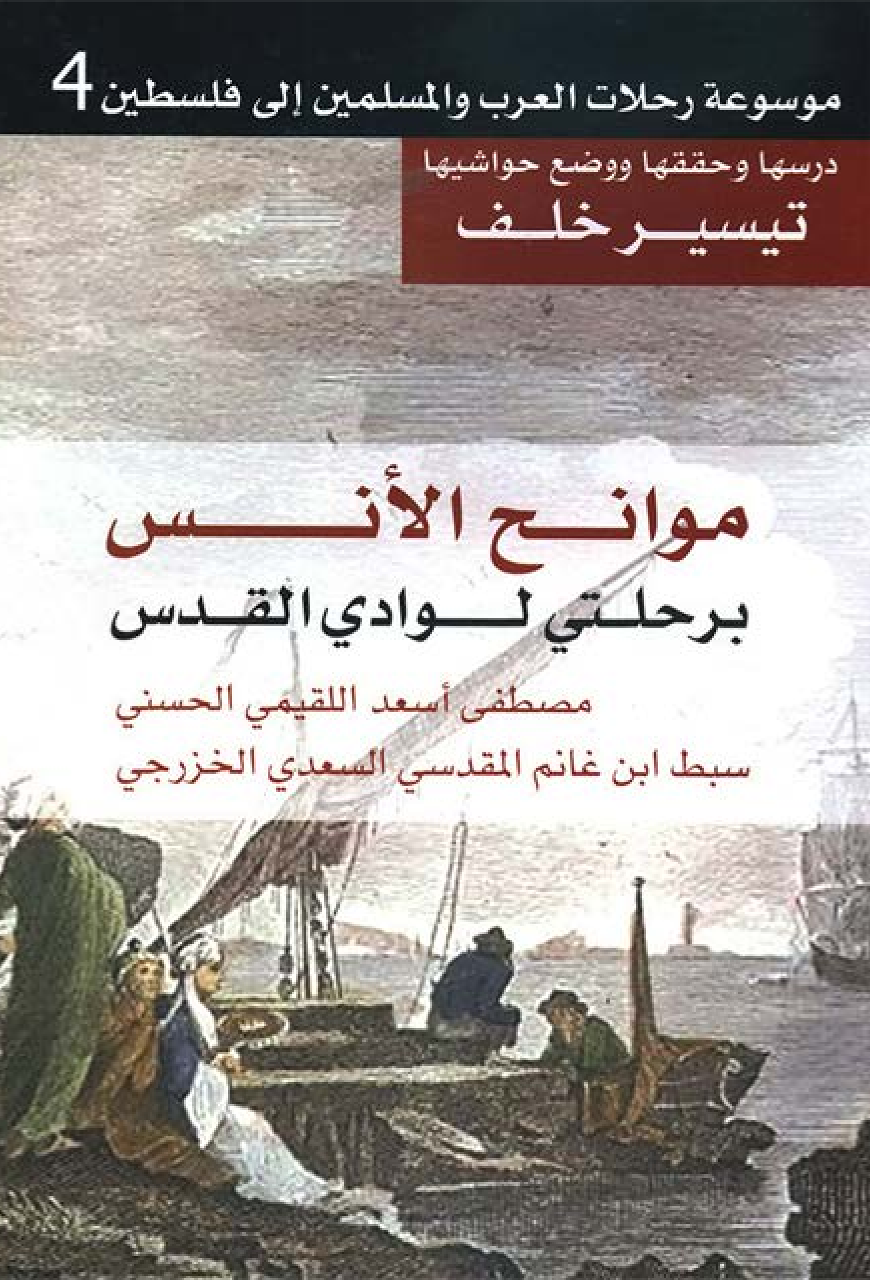

موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين 4
درسها وحققها ووضع حواشيها
تيسير خلف
موانح الأنس
برحلتي لوادي القدس
مصطفى أسعد اللقيمي الحسني
سبط ابن غانم المقدسي السعدي الخزرجي

موانح الأنس

برحلتي لوادي القدس

مواكب الأنس برحلتي لوادي القدس

درسها وحققها ووضع حواشيها : تيسير خلف

الناشر : دار كنعان

للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية

دمشق – ص.ب 443 تلفاكس: 2134433 (11 - 963 +)

E-mail 1: said.b@scs-net.org

E-mail 2: kanaanbook@yahoo.com



بالتعاون مع

دائرة الثقافة والإعلام بعجمان

دولة الإمارات العربية المتحدة – تلفاكس: 0097167423189

E-mail 1: mafarag_2005@yahoo.com

E-mail 1: m_harbi3@yahoo.com

الطبعة الأولى : 2010 / عدد النسخ 1000

إخراج: لبنى حمد

التدقيق اللغوي: سامي عبد المجيد

الإشراف العام: سعيد البرغوثي

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها

على صفحة الشبكة التالية:

http://www.darkanaan.com

http://www.neelwafurat.com

موانح الأنس
برحلتي لوادي القدس

مصطفى أسعد اللقيمي الحسني

سبط ابن غانم المقدسي السعدي الخزرجي

درسها وحققها ووضع حواشيها

تيسير خلف

صدرت هذه الموسوعة بمناسبة

احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية 2009

بالتعاون مع دائرة الثقافة والإعلام بعجمان / دولة الإمارات العربية المتحدة







لنا كلمة

إن أهم إسهام يمكن أن نقدمه للقدس في احتفاليتها عاصمة للثقافة العربية لعام 2009 هو أن تبقى حية في الأذهان، في وقت يحاول المحتلون الصهاينة محو وجهها العربي والإسلامي، واستبداله بوجه غريب عنها، ولكي تبقى حية في الأذهان بصورتها العربية الإسلامية هي وأخواتها مدن فلسطين المحتلة الأخرى، لابد من تقديم الوجه الحقيقي لها من خلال الكتب والمؤلفات التي تناولتها من وجهة نظر عربية إسلامية.

ولذلك تحمسنا لمشروع موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين، لأننا أدركنا أهمية نشر هذا الأثر، وتعميمه في هذه الاحتفالية، لأنه يسد نقصاً كبيراً في المكتبة العربية، ومن شأنه أن يسهم بشكل مباشر في خدمة قضية القدس وفلسطين، بشكل حضاري يرد على الدعاية الصهيونية بالحجة والمنطق التاريخي.

ولذلك فنحن نرى أن الاحتفال بالقدس عاصمة للثقافة العربية لعام 2009م هو احتفاء بتاريخها وأعلامها، عبر جعل هذا التاريخ في متناول الجميع، لأن من شأن هذا الأمر أن يسهم في تعميق الوعي بضرورة تحريرها من رجس الاحتلال، وإعادتها مدينة عربية إسلامية، تُشد الرحال إليها كما اعتاد أجدادنا أن يفعلوا طوال القرون الخمس عشرة الهجرية الماضية.

والاحتفاء بالقدس يختلف عن الاحتفاء بأي مدينة عربية أخرى، فهو ليس ترفاً أو استعراضاً شكلياً بقدر ما هو ممارسة عملية واجبة على كل عربي ومسلم، والتزاماً فكرياً وإيماناً راسخاً بعروبة هذه المدينة، ولن يتم كل ذلك إلا بتكريس هذه القيم عبر الوسائل الثقافية والمعرفية، ومنها نشر الكتب وإنتاج الأفلام والبرامج والمسلسلات التي تؤكد على الوجه الحقيقي لهذه المدينة التي شهدت أعظم الأحداث في تاريخنا العربي والإسلامي.

دائرة الثقافة والإعلام – حكومة عجمان

هذه الموسوعة

إسهاماً منها في احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية لعام 2009م ارتأت دار كنعان للدراسات والنشر أن تُقدم لقراء العربية موسوعة شاملة لرحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين خلال أكثر من أحد عشر قرناً، شهدت فلسطين خلالها عدداً كبيراً من الرحلات التي قام بها عرب ومسلمون، بعضها تم تحقيقه خلال فترات زمنية مختلفة، ومنها ما بقي حبيس المخطوطات، لم يتيسر لعموم القراء مطالعته.

ولأدب الرحلات أهمية خاصة بالنسبة لفلسطين، فهي الأرض المقدسة التي زارها ملايين الحجاج ونقلوا لأحبتهم أخبار مشاهداتهم لهذه الديار المباركة. غير أن عدداً قليلاً منهم قام بتدوين مشاهداته، التي تمثل الزمن الذي عاش فيه هذا الرحالة أو ذاك، ولذلك فالرحلات وثائق تاريخية وجغرافية، من شأنها أن تعمق الوعي التاريخي وتوسع الآفاق والمعارف والرؤى.

ولقد عرفت فلسطين طوال هذه القرون تطورات وتحولات كثيرة، لم يكن بالإمكان الاطلاع عليها من خلال كتب التاريخ التقليدي المتداولة، نظراً لحصر اهتمام هذه الكتب في أخبار الحروب والتحركات السياسية والعسكرية لهذا القائد أو ذاك، بعيداً عن التاريخ الذي يخص الأرض والبشر، ولذلك نأمل أن نُسهم بقدر الاستطاعة في نفض الغبار عن هذا التاريخ المجهول الذي يميط اللثام عن الكثير من الحقائق الغائبة.

وتكمن أهمية هذه الموسوعة، في أنها تمثل الجانب الآخر من صورة الرحلات التي قام بها الرحالون الغربيون إلى فلسطين خلال قرون طويلة، أسهموا من خلالها في تكوين وعي معين تجاه فلسطين، مستقى بشكل أو بآخر من الوعي الديني المسيحي واليهودي الذي يُمثل فيما يُمثله جانباً واحداً من الصورة، غير أن الأمر بات أكثر خطورة بعد حملة نابليون على فلسطين آخر القرن الثامن عشر، حيث بدا نوع جديد من الرحلات مرتبط بشكل أو بآخر بالمشاريع الاستعمارية التي كانت تُعد في دوائر القوى العظمى، مستهدفة إنشاء وطن قومي لليهود على أرض فلسطين في مغالطة لحقائق التاريخ والجغرافيا والمنطق. ولذلك ساد خلال قرنين من الزمن نوع من الرحلات الاستكشافية إلى فلسطين

وما يحيط بها، أسهم بشكل مباشر في تكوين وعي زائف لتاريخ فلسطين خصوصاً وبلاد الشام بشكل عام، ما نزال نعاني من تبعاته حتى هذه اللحظة، إذ ركزت معظم رحلات الغربيين على إدعاءات كاذبة تحيل على جهل وتخلّف سكان فلسطين من العرب الذين يعيشون في خيام ويمتهنون السرقة والسلب والخروج على القوانين، تاركين هذه الأرض الخصبة معطلة، فكان لابد من إعمار هذه الأرض المقدسة بشعب متحضر يبلغ بها مراقي التقدم، معيداً لها مجدها القديم الذي توقف مع قدوم العرب المسلمين إليها. وهذا هو الوعي الذي سوغ للصهيونية كل جرائمها بحق فلسطين وأهلها حتى يومنا هذا.. فما أحوجنا إذاً لتصويب الصورة، وتوضيح الأمور ووضعها في نصابها، ونقل الجانب الآخر من الصورة الذي تمثله رحلات العرب والمسلمين التي ننشرها في موسوعتنا هذه.

ومن الملاحظ أن الوعي العربي للخطر الصهيوني بدأ بالظهور في مطلع القرن العشرين، والرحلات التي نقدمها خلال هذه الفترة؛ تُبين بشكل واضح وجلي أن الكثير من العرب كانوا على بينة من أبعاد المشروع الاستعماري الصهيوني لفلسطين، ولذلك ظهرت في ذلك الوقت أشكال متعددة لمقاومة هذا المشروع، منها أدب الرحلات الذي كان يهدف إلى تقديم حقيقة الأوضاع وتوعية الناس لما يجري حولهم، وهذا ما تصدى له كلٌ من نجيب نصار ونجيب عازوري وعارف العارف وبشير كعدان وغيرهم..

موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين، إذاً هي إسهامٌ هامٌ في احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية وهي إسهامٌ نطمح أن نثري به المكتبة العربية، فتكون هذه الموسوعة إضافةً هامةً إلى المراجع الأخرى التي تناولت الحديث عن فلسطين أرضاً وشعباً وتاريخاً عبر العصور الغابرة.

دار كنعان للدراسات والنشر

تقديم

انتشر في المشرق العربي خلال القرنين السابع عشر و الثامن عشر الميلاديين، نوع من أدب الرحلات يطلق عليه أحياناً اسم (السياحات الصوفية)، وهي رحلات يقوم بها عادة متصوفون زاهدون، اتخذوا الترحال مهنتهم، وزيارة قبور الأنبياء والصالحين هدفهم، والقصد من وراء ذلك الحصول على (المدد) الروحي، الذي يساعدهم على بلوغ نوع من (الانشراح) كطريقة لتنقية النفس وتصفيتها، والسمو بها نحو العوالم السامية العليا.

ومع أن تأثيرات المتصوف الكبير الشيخ عبد الغني النابلسي تطغى على سيّاح القرن الثامن عشر، إلا أننا نجد جذور هذه التجربة الأدبية الروحية في كتاب (الإشارات إلى معرفة الزيارات) للسائح المتصوف علي بن أبي بكر الهروي، الذي طاف على جميع مقامات العالم الإسلامي ومزاراته أيام الدولة الأيوبية ووضع ما يشبه دليلاً لذلك.

أما سياحات أبناء القرن الثامن عشر الميلادي ومنهم مؤلف رحلتنا هذه مصطفى أسعد اللقيمي، فقد امتازت، بالاضافة إلى وصف المقامات والأضرحة، بوصف نادر ومهم جداً للأوضاع السكانية والحياة العلمية والاجتماعية، وأسماء المدن والقرى والمواضع والمواقع. وهو ما يساعدنا على تكوين وعي تاريخيّ مختلف إلى حد كبير عن النصوص التاريخية التقليدية التي تتضمن الحوليات والتراجم، من دون الدخول في التاريخ الاجتماعي أو السكاني أو الروحي.

ترجمته

ومصطفى أسعد اللقيمي واحد من الشخصيات الصوفية التي اشتهرت في عصرها، وقام بعدد من الرحلات والسياحات الصوفية إلى فلسطين خصوصاً وبلاد الشام عموماً، ووضع أكثر من كتاب في ذلك، لعل أهمها وأشهرها، مقصدنا في هذه

المناسبة وهو رحلته: (موانحُ الأنس في رحلتي لوادي القدس)، هذه الرحلة التي قام بها وله من العمر ثمانية وثلاثون عاماً، أي انه كان مكتمل الشخصية، محصلاً لمعظم معارفه من مظانها الأصلية، نتيجة نشأته في بيت علم ودين أباً عن جد.

وقد ذكر المرادي في موسوعته (سلك الدرر)[1]، حين ترجم للقيمي، أنه مصطفى [أسعد][2] اللقيمي ابن أحمد بن محمد بن سلامة بن محمد بن علي بن صلاح الدين، المعروف باللقيمي الشافعي الدمياطي، نزيل دمشق. وقال إن لقب اللقيمي نسبة للقيم، بلدة بالطائف، ونسبة أجداده إليها، وأضاف، أن للمترجَم نسبة إلى سيدنا سعد بن عبادة الخزرجي رضي الله تعالى عنه.

ووصفه بالشيخ العالم، الفاضل، الفرضي، الحيسوب، الكامل، الأديب الناظم، الجهبذ النقّاد، العابد التقي، الماجد، الأوحد، الزاهد، العفيف. وقال إنه ولد بدمياط في ربيع الأول ليلة الجمعة بين العشائين سنة خمس ومائة وألف [كانون الأول 1693م]، وبدمياط نشأ في كنف والده مع أخويه: العالم الأديب الشيخ محمد سعيد، والأديب المتقن الشيخ عثمان، وعليه تخرجوا في سائر الفنون. ويقول المرادي أيضاً إن اللقيمي أيضا أخذ وقرأ على جده لأمه، العلاّمة الشيخ محمد الدمياطي الشهير بالبدر وابن الميّت من أنواع العلوم، وبه تخرج ومنه انتفع.

وذكر أيضاً انه حج مع والده إلى البيت الحرام، وأخذ بالحرمين عن العلماء كالشيخ عبد الله بن سالم البصري المكي، والشيخ الوليدي، وفي المدينة عن أبي الطيب المغربي، أحد المشاهير من المحدّثين، وقرأ وأخذ عن علماء مصر ودمياط ودمشق وبيت المقدس، واستجاز منهم وعمّته نفحاتهم، حسب تعبير المرادي.

ويشير صاحب (سلك الدرر) إلى أن اللقيمي كان يتعاطى المناسخات والمقاسمات بالفرائض والحساب، وكان ذا زهد وعفة وديانة، وكان يختم في رمضان كل يوم وليلة ختمة، وكان على قدم صدق عظيم من التهجد.

ويذكر من تآليفه الرحلة المسماة بـ(موانح الأنس بالرحلة لوادي القدس) واختصاره لكتاب (الأنس الجليل في زيارة بيت المقدس والخليل) و(شرح ورد الأستاذ شيخه الصديقي البكري) وله كتاب (التوصل في شرح الصدر بالتوسل بأهل بدر) وله رسائل

---

[1] - سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر لمحمد خليل المرادي 4: 154 – 166.

[2] - اسعد ساقطة من الكتاب المطبوع للمرادي، ولكن مؤلفات اللقيمي وحتى الكتابة على شاهدة قبره التي يذكرها المرادي نفسها تورد اسم أسعد، وهو من الأسماء المركبة مصطفى اسعد.

كثيرة في الحساب والفرائض مشهورة، وله ديوان شعر جمعه وسماه (تحائف تحرير اليراعة بلطائف تقرير البراعة).

ويقول المرادي إن اللقيمي كانت له اليد الطولى في الأدب، ونظم الشعر، وعمل التاريخ على سبيل الارتجال، وله رسائل أدبية وتحريرات مفيدة، غير أنه كان، رحمه الله تعالى، مطويا في راحة الدهر، يوم كجمعة وجمعة كشهر، وبالجملة فقد كان من أفراد دهره.

أما وفاته فيؤكد المرادي أنها وقعت بدمشق يوم الأحد السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وسبعين ومائة وألف [17 حزيران عام 1765م]، ودفن بتربة مرج الدحداح في مقبرة الذهبية، تجاه قبر المؤرخ الشهير وصاحب كتاب الروضتين الشيخ أبي شامة المقدسي، أي أنه عاش 72 عاماً.

وقد نظم اللقيمي قبل وفاته بساعات تأريخا لوفاته ليكتب على قبره وهو: [من الكامل]

قبرٌ به من أوثقته ذنوبه	وغدا لسوء فعاله متخوّفا
قد ضاع منه عمره ببطالة	والعيشُ فيه بالتكدّر ما صفَا
ماذا ثوى قبرُ اللقيميّ أرّخوا	مُستَمنحٌ للعفو أسعدَ مُصطفى

ومن حساب التأريخ الحروفي- الرقمي[3] الذي أودعه في الشطر الأخير (مستمنح- م = 40، س = 60، ت = 400، م =40، ن = 50، ح = 8) = 598 + (للعفـو- ل =30، ل =30، ع =70، ف =80، و= 6) = 216 + (أسـعد- أ= 1، س = 60، ع = 70، د = 4) = 135 + (مـصطفى- م = 40، ص = 90، ط = 9، ف = 80، ي = 10)= 229 = 1178، وعليه، تكون سنة وفاته 1178 هجرية.

هذه هي ترجمة كاتبنا كما وردت عند المرادي، وهي المصدر الوحيد، تقريباً، الذي اعتمده جميع الذين كتبوا عن اللقيمي. ومنهم صاحب موسوعة الأعلام خير الدين الزركلي الذي كتب عن اللقيمي ما يلي:

مصطفى أسعد بن أحمد بن محمد بن سلامة اللقيمي الشافعي: حاسب، من الشعراء الكتاب.

---

[3] - الأحرف الأبجدية العربية ابجد هوز- ومقابلها قيمتها بالأرقام: ا 1 ، ب = 2 ، ج = 3 ، د =4 ، هـ = 5 ، و =6 ، ز = 7 ، ح = 8، ط = 9 ، ي = 10 ، ك = 20 ، ل = 30 ، م- 40 ، ن = 50 ، س = 60 ، ع = 70 ، ف = 80 ، ص = 90 ، ق - 100 ، ر = 200 ، ش = 300 ، ت = 400 ، ث = 500 ، خ -600 ذ = 700 ، ض - 800 ، ظ = 900 ، غ = 1000.

ولد ونشأ في دمياط، وحج، وسكن دمشق إلى أن توفى.

نسبته إلى لقيم (بالطائف) أصل أجداده منها.

من كتبه (موانح الانس بالرحلة لوادى القدس) و (المدامة الارجوانية في المقامة الرضوانية) في خزانة الرباط (1716 ك) نشرت في عجائب الاثار، للجبرتى، طبعة لجنة البيان (2: 144 - 158) و (لطائف أنس الجليل في تحائف القدس والخليل) و (الحلة المعلمة البهيجة بالرحلة القدسية المهيجة) ورسائل في (الحساب) و (الفرائض) و (ديوان شعر).

استخلاصات

ولعل الملاحظة الأبرز التي تؤخذ على التراجم السالفة، هي إغفالها لعلاقة اللقيمي بشيخه مصطفى البكري الصديقي، التي كان لها أكبر الأثر في التحول الذي طرأ على حياته، فقد قرر اللقيمي بعد لقائه الصديقي في القدس عام 1731 م أن يدخل في الطريقة الصوفية الخلوتية، التي كان الصديقي شيخها في ذلك الزمن، وكان من نتيجة ذلك قراره العودة للاستقرار نهائياً في بلاد الشام عموماً، وفي دمشق خصوصاً.

ويمكن لنا أن نستخلص مجموعة من الحقائق في ضوء ترجمة المرادي: منها أن اللقيمي كان يعتز بانتساب أجداده لأمه لبلاد الشام، وهذا ما نلمسه واضحاً في متن الرحلة أيضاً. وأنه قام برحلة (قدسية) ثانية وربما قرر الاستقرار في دمشق بعدها. وعلى الأغلب فقد شملت رحلته الثانية (الحلة المعلمة البهيجة بالرحلة القدسية المهيجة) التي يذكرها الزركلي زيارة الأضرحة والمقامات التي لم يزرها في رحلته الأولى، ومنها مقامات حلب ومزاراتها شمال بلاد الشام، كما يرد في ملحق صغير في نهاية النسخة (أ) من النسختين اللتين اعتمدناهما لتحقيق هذه الرحلة.

وأيضاً يمكن لنا أن نستشف استغراق اللقيمي في التأمل وعدم عنايته بالوقت أو بمشاغل الحياة. ومن خلال أبياته الشعرية التي أرخ فيها لوفاته، يمكن أن نلمس مسحة من اليأس والحزن والقلق، كانت تعتريه قبيل وفاته، ربما هي ناتجة عن محاكمته لتجربته الحياتية. أو ربما نسج على منوال كثير من العلماء والمتصوفين المسلمين الذين كانوا يحقرون ذواتهم (المجرمة) أو (الخاطئة) أمام الخالق[4]. وتحقير الذات أمام الخالق نجده

---

[4] - كمثال على ذلك قصيدة الإمام الشافعي، المعروف بعبادته ومكانته في التاريخ الاسلامي، التي مطلعها:

إليكِ إمام الخلق أرفع رغبتي   وإن كنت ياذا المن والجود مجرما

أيضاً عند رجال الدين المسيحيين وخصوصاً السريان الذي يستعملون مصطلح (حقارتي) أو (ضعفي) عند حديثهم عن ذواتهم كأن يقولوا: قام ضعفي بكذا، بدل قمت بكذا.

ولعل الملاحظة الأبرز، التي يمكن للمرء أن يخرج بها بعد قراءة رحلة اللقيمي، هي طغيان ما اصطلح على تسميته بـ(الإسرائيليات) على تفكير المتصوفين في تلك الحقبة، والمقصود بـ(الإسرائيليات) هنا، الأحاديث والتفاسير المروية عن عبد الله بن سلام ووهب بن منبه وكعب الأحبار خصوصاً، وهذان الأخيران مرجعان أساسيان في الأسانيد والمراجع التي يعتمدها اللقيمي، ولعل مرد ذلك يعود إلى ثقافة الرجلين اليهودية وربما المسيحية قبل اعتناقهما للإسلام، بعيداً عن التشكيك بنواياهما[5]، فهذا الأمر يمكن فهمه من منطلق أن الإسلام قدم قراءته الخاصة للكتاب المقدس واعترف بنبوة أنبياء (العهد القديم) واصطفائهم، عبر الدخول العميق في القصص الكتابي [التوراتي] ومحاولة قراءته من جديد. وكذلك قدم تصوراً متكاملاً لطبيعة السيد المسيح، في زمن كان الجدل حول هذه الطبيعة محتدماً بين أتباع الكنائس المختلفة. فعندما جاء الإسلام لم يستطع أن يدير ظهره لهذا الجدل، فدخل فيه وقدم قراءة توافقية للمسيحية، حاولت التوفيق بين الأريوسية واليعقوبية والنسطورية.

ويمكن فهم اعتماد المتصوفين المسلمين، وخصوصاً في العصر العثماني، على أحاديث (الإسرائيليات)، والمسيحيات، من منطلق اشتمال هذه الأحاديث على (الخوارق) و (المعجزات)، والتي تعتبر مكوناً رئيساً من مكونات العقيدتين اليهودية والمسيحية، وكذلك الفكر الصوفي الإسلامي.

فلسطين في رحلة اللقيمي

من الواضح أن اللقيمي كان مهتماً بفلسطين اهتماماً خاصاً قبل قدومه إليها في هذه الرحلة فقد لخص وهو في دمياط كتابي (اتحاف الأخصا في فضائل المسجد الأقصى) و(الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل) لعبد الرحمن العليمي المقدسي الحنبلي، بمؤلف عنونه بـ(لطائف أنس الجليل في تحائف القدس والخليل)، وذلك قبل

ولما قسى قلبي وضاقت مذاهبي جعلت الرجا مني لعفوك سلما

[5] - قام كثير من الباحثين والعلماء المسلمين بدراسة احاديث ما يسمى بـ(الاسرائيليات) وخلص الكثير منهم إلى وجود مؤامرة او فكر تآمري على الاسلام من خلال دس هذه الأحاديث والتفسيرات، منهم المستشرق غولد زيهر في كتابه (المذاهب الإسلامية في التفسير) واحمد امين في (فجر الإسلام) و(ضحى الإسلام) والشيخ رشيد رضا في مقالات ودراسات منشورة في مجلة (المنار) ومحمود ابو رية في كتابه (اضواء على السنة المحمدية).

قيامه برحلته (موانح الأنس) بعام، ربما نظراً لأنه أشار إليه في معرض رحلته، ولأن الناسخ فرغ من كتابته في 22 جمادى الأولى سنة 1143هجرية [3 كانون الثاني 1730م][6].

ويمكن لنا القول إن فلسطين تبدو في رحلة اللقيمي بطيئة في حركتها، لا يشوب صمتها إلا أخبار قطاع الطرق البدو وغير البدو، الذين كانوا يسطون على القوافل. ومع أن اللقيمي لم يصادف قاطع طريق واحد، إلا أن هذا الهاجس كان مسيطراً على أجواء الرحلة. وهذا بحد ذاته أمر متوقع، نظراً لفقدان السلطة المركزية العثمانية هيبتها خلال القرن الثامن عشر، نتيجة تفشي وباء نظام الالتزام، الذي قضى على البنية الاقتصادية لفلسطين وغيرها من أقاليم بلاد الشام، ودفع كثيراً من الفلاحين لمغادرة أراضيهم وتركها خالية هرباً من سطوة (الملتزمين) الذين وضعوا نصب أعينهم هدفاً واحداً، وهو تحصيل الضرائب من الفلاحين مهما كانت الظروف، وبأي وسائل كانت. ويمكن أن نلحظ ذلك من خلال القرى المهجورة الخراب التي مر عليها اللقيمي في رحلته.

وثمة ملاحظة أخرى تتعلق بتضخم دور المزارات الدينية في حياة الناس، وهوما يؤشر إلى انتشار الطرق الصوفية، التي شجعت عليها السلطنة العثمانية، عبر الإعفاءت من الضرائب التي كان يتمتع بها الصوفيون. ولكن في مقابل ازدهار المزارات نلحظ خراب الكثير من الأوقاف التي بنيت في القرن السادس عشر الميلادي، على يد الوزراء العظام أمثال مصطفى لالاباشا وسنان باشا وغيرهم، إبان قوة السلطنة وهيبتها، والمقصود بذلك تلك الخانات والعمارات والتكايا التي أنشئت على الطرق التي تربط بلدان المشرق العربي فيما بينها، سواء الطرق الذاهبة إلى الحج في الحجاز، أو تلك التي توصل إلى فلسطين ومصر. ومنها خان المنية وخان عيون التجار وخان جسر [بنات] يعقوب وغيرها، من المحطات التي تشير إلى تراجع سلطة السلاطين العثمانيين، وغرق الأقاليم في فوضى أدت إلى تزايد نزعة التمرد لدى الحكام المحليين والعشائريين، والذين كانوا يسعون للاستقلال عن سلطة اسطنبول خلال هذه الفترة، أي أواسط القرن الثامن عشر، وما تلا ذلك من أحداث أدت إلى تدخل الغرب للمرة الأولى منذ الحروب الصليبية، ونعني بذلك محاولة نابليون الفاشلة لاحكام السيطرة على فلسطين عام 1799م والتدخل البريطاني لمنعه من ذلك.

أما دمشق التي استحوذت على عقل اللقيمي، وقرر الإقامة فيها حتى الممات، فلم يظهر شيء من تلك التفاصيل التي برع في نقلها البديري الحلاق في كتابه (حوادث دمشق اليومية)، رغم معاصرة الرجلين، والسبب في ذلك أن اللقيمي كان يعيش في عوالم

---

[6] - راجع دراسة الدكتور عبد الكريم رافق في الموسوعة الفلسطينية، الجزء الثاني، ص 765- 767.

صوفية، على أجنحة تجلياته وقراءاته وأرقامه وحساباته وألغازه ومعمياته، وهي عوالم لاترى صغائر الحياة، التي ركز عليها البديري المعاصر له.

ونلحظ تشابهاً كبيراً بين اسلوب اللقيمي وأسلوب أستاذه وشيخه مصطفى البكري الصديقي، من حيث الأسلوب وطريقة سرد المعلومة، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على تشبع اللقيمي بكتب الصديقي قبل قدومه إلى بلاد الشام والقيام برحلته هذه، والتي نستطيع أن نقول إن أحد أهدافها كان لقاء شيخه الصديقي، الذي وثق لقاءه باللقيمي في أحد نصوص رحلته (أردان الإحسان في الرحلة إلى جبل لبنان).

ولذلك فقد غلب التكلف على أسلوب صياغة الرحلة بسبب الاصرار على السجع والطباق والجناس، مما أفقد النص عفويته وسلاسته. وقد حاول اللقيمي، بما امتلك من ذخيرة لغوية وبلاغية يُشهَد له بها، أن يتجاوز ذلك باختصار سجع الجمل إلى جملتين لا أكثر، في معظم مواضع النص، ولكن هذا الأسلوب هو أسلوب ذلك العصر، ولم يكن للقيمي تلك القدرة أو الجراة أو الشخصية المستقلة التي تخوله القيام بثورة على هذا الأسلوب، فقد كان مسحوراً بأسلوب شيخه الصديقي، وبقدوته ومثله الأعلى الشيخ عبد الغني النابلسي.

ومع ذلك فقد قدم اللقيمي نصاً ينتمي إلى عصره، وأغناه بالمراجع التي عبرت بشكل أو بآخر عن ثقافة، ومعرفة بالكثير من المصادر التاريخية والجغرافية والفقهية، تؤشر إلى البيئة التي نشا فيها كما أوضح ذلك مترجمه المرادي.

مخطوطات الرحلة :

اطلعنا على أربع نسخ مصورة من رحلة (موانح الأنس)، محفوظة في مكتبة الأسد الوطنية في دمشق، وهي نسختان باسم (موانح الأنس في رحلتي لوادي القدس) قمنا بالرمز لهما بحرفي (أ) و(ب)، ونسخة باسم (موانح الأنس بالرحلة لوادي القدس) رمزنا لها بالحرف (ج)، ونسخة باسم (سوانح الأنس برحلتي لوادي القدس) رمزنا لها بالحرف (د). وبعد مقارنة النسخ قررنا الاعتماد في تحقيقنا على النسختين (أ) و(ب)، لأنهما شبه متطابقتين، وإحداهما كتبت في حياة المؤلف والأخرى بعد وفاته بست سنوات. أما النسخة (د) أي المسماة (سوانح الأنس) فهي كثيرة الأخطاء، والتي تبدأ من العنوان، سوانح بدل موانح، ولذلك فهي نسخة لا يمكن التعويل عليها بشيء.

وفيما يخص النسخة (أ) فهي مكتوبة بخط نسخي حسن ودقيق، وفرغ ناسخها منها سنة 1164 هجرية [1750-1751م] أثناء حياة المؤلف وقد كتبت بعض العناوين باللون

الأحمر وعلى بعض صفحات المخطوطة عبارات تقريظ وإشارة إلى أن واقف هذه النسخة هو الشيخ حسين بن الشيخ عبد اللطيف العمري، وهذه النسخة من مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق وتتكون من 126 ورقة مزدوجة مقاسها 13.5 × 20 سم، رقمها المتسلسل في مكتبة الأسد الوطنية 9297.

وأما النسخة (ب) فهي نسخة جيدة كتبت بقلم نسخي سنة 1184 هجرية [1770-1771م] أي بعد وفاة المؤلف بست سنوات، نسخها محمد أمين بن محمد الشريف ابن محمد بن علي العطار.

والورقة الأولى منها مذهبة وملونة، وعناوينها مكتوبة الأحمر، وهي أيضاً من مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق وتتكون من 123 ورقة مزدوجة ورقمها المتسلسل في مكتبة الأسد الوطنية 5248.

لقد حظيت مخطوطات (موانح الأنس) المختلفة بعناية الكثير من الباحثين، وأخص بالذكر منهم أستاذنا الدكتور عبد الكريم رافق الذي درس مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق، وقدم عرضاً مهماً للرحلة في دراسته المرجعية (فلسطين في عهد العثمانيين) المنشورة في الموسوعة الفلسطينية، قسم الدراسات المتخصصة في المجلد الثاني [ص 765-767]. كما درسها الأستاذ العلاّمة كامل جميل العسلي في كتابه حول بيت المقدس وكتب الرحلات العربية والاسلامية، وعلمنا أخيراً أن باحثين آخرين اهتموا بالرحلة في السنوات القليلة الماضية.

وقد اعتمدنا في تحقيقنا لهذه الرحلة على مجموعة كبيرة من المصادر والموسوعات والمعاجم إضافة إلى معلوماتنا الشخصية، حيث قدمنا شرحاً وتفسيراً للكثير من العبارات الواردة في المتن، كما هو مبين في الهوامش، ولم نرهق أنفسنا باللهاث وراء النقاط والحروف الناقصة أو المطموسة، بقدر عنايتنا بالتحقيق التاريخي والجغرافي.

ولم نتدخل بأسلوب الرحلة، واقتصرت تعديلاتنا على الأخطاء النحوية والإملائية واللغوية الفاقعة، وهي في كل الأحوال قليلة، وتقع مسؤوليتها على النساخ وليس على المؤلف، وقد قمنا بإعادة النبرة إلى أصلها في النص بعد أن استبدلها المؤلف جريا على عادة كتاب عصره بالياء، وذلك لأنها أصح لغوياً.

تيسير خلف

دمشق 21 / كانون الثاني 2009

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملك القدوس، باعث لطائف النفوس، شوقاً لزيارة القدس المحروس. وأثار لها بالوجد أشجاناً. جدوا بالعزم المسير، وشمروا عن ساق الجد من غير تقصير، واتخذوا التوكل أحسن سمير. يطوون الفدافد[7] رجالاً وركباناً، فقابلتهم العواطف السبوحية، ومبشرات اللطائف الرحمانية بمشاهدة المآثر القدسية، فتلوا[8] من لوح القبول فرقاناً. والصلاة والسلام على من فضائله لا تحصى، ومعجزاته لا تعد ولا تستقصى، المنزل عليه ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾[9] ليريه من آياته الكبرى برهاناً، وعلى آله وعترته الطاهرين بنص الكتاب، وأصحابه القادة السادة الأنجاب، ما شدّت إلى أحد المساجد الثلاثة[10] الركاب، ليتخطى زائرها أجراً وغفراناً وبعد.

هذا، فقد جعل الله المسجد الحرام الأقصى ثالث حرم يقصد وإليه رحال السائرين تشد، كما روينا في الصحيح المسند، سنداً يقلد جيد الزمان عقياناً، فمنه تمتد[11] إمدادات العوارف، وتجتنى ثمرات موانح اللطائف، وتهبُ بالقبول نسمات العواطف، يشاهد ذلك أهل الكشف عياناً، خصه الله تعالى بمظهر الجمال، كما خص حرمي مكة والمدينة بالكمال والجلال، وقد أثر ذلك عن أهل الكمال، مظهراً يفيض عليه[12] السرور طوفاناً، فمن وفد إليه وافته منح السعادة، ونشرت عليه ألوية السيادة[13]، وبشره لسان الحال بالحسنى وزيادة[14]، أن قد منح من جناب الرحمن أماناً. فيا لها بقعةً من أفضل البقاع، ضاع نشر محاسنها وما ضاع، وتحلت بمحاسن ذكرها الأفواه والأسماع. أحاديث

---

(7) - الفدافد: الفلوات: مفردها فدفد بفتح الفاء الفلاة.

(8) - ب فتلو.

(9) سورة الاسراء، الآية رقم 1.

(10) - ا و ب الثلاث

(11) ب تمد.

(12) - ناقصة في ا.

(13) ا السياده

(14) - ا وب زياده

تشنف جواهر درها آذانا، وحسبك ما اختص من ليلة المعراج والإسرا[15]، بصلاة من رأى من آيات ربه الكبرى، وقد دنا من ربه قاب قوسين أو أدنى لمستوى[16] سمع فيه صريف الأقلام إيقاناً، جمع الله له فيه الأنبياء والمرسلين، والملائكة الكرام المقربين، فأمهم به والمبلغ الأمين، فكان دليلاً لفضل عليهم أعلانا: [من البسيط]

قد خصَّصَ المسجد الأقصى بمانحةٍ فكان كالشمس حلت ذروة الشرف

صلى الملائك والرسل الكرام به وكونه مبدأ المعراج غير خفي

هذا، فيقول الفقير مصطفى أسعد اللقيمي الحسني[17] سبط العلامة نور الدين علي بن[18] غانم المقدسي الحنفي السني العمري: طالما كنت كثير الوجد والولوع، لمشاهدة هاتيك الربوع، ناثراً من الأجفان لآلئ الدموع، فتنتظم على الخدين عقيقاً ومرجاناً، أتشوف[19] حنيناً لرؤياها، وأتشوق لاجتلاء حسن محياها، لأتنشق شذا عبير ريّاها، عَرفاً يتضمن روحاً وريحاناً. فكم روينا في فضلها من حديث وأثر، هذا وأبيك ليس الخبر كالخبر، فيعوضني عن السعي إليها سابق القدر، والعاقل يعلم أن لكل شيء إيانا[20]. [من الوافر]

إليها الشوق ما عنه مزيد فما يبدي الشوق وما يعيدُ

وعنها الصبر ينقص كل يوم وتلك صبابتي أبداً تزيدُ

إذا روت النهاة لنا حديثاً لسان الحال قال لهم أعيدوا

ما إن جاء البشير، ويسر الله إلى المسير، وعلامة الإذن التيسير، استنهضت للسُرى[21] من نجائب العيس أظعاناً. وشرعت في تحبير رحلة بهية، تتضمن ما أشاهده من المآثر الزهية، ومن ألاقيه من السادة العلماء والصوفية، الحائزين من مظاهر الحقيقة والشريعة عرفاناً. وسميتها (موانح الأنس برحلتي لوادي القدس) فكان عددها كالأس، إذا وافق ذلك تأريخاً بياناً، فلاح من ذلك بارقةُ المدد، وغادقةٌ من فيض وبلها يُستَمد، وحقيق لمثل هذا أن يُقتَصد، فهاكها درراً تكلّلُ من معاقد العزّ تيجاناً.. [من البسيط]

---

(15) - ا الأسرى.

(16) - ا لمستوا.

(17) - ساقطة في ا.

(18) - ا ابن.

(19) - ا اتشوق.

(20) - في ا و ب والصحيح اواناً.

(21) - ا للسير. والصواب كما هو في النسخة ب للسرى: أي السير ليلاً.

لمــا ثنيــت عنــان العــزم منتــضياً		جواد عزم سرى نحو الحمى القُدْسي

وليس يخفاك ما في السير من خطرٍ		تلــوتُ للحفــظ فيــه آيــة الكرســي

لعــلّ أبلــغ مــا أرجــوه مــن أمــلٍ		برحلــةٍ أشــهدتني منحَــة الأنــسِ

دمياط

ففي يوم الثلاثاء ثامن ذي القعدة الحرام عام ثلاثة وأربعين وماية وألف[22] من هجرته عليه الصلاة والسلام، سرت من ثغر دمياط باسم المبدي المعيد، سائراً على قدم التوكل والتجريد، وقد تلهفت بالتصعد أنفاساً، وأشعل الوجد بطور القلب نبراساً، فصليت الظهر بجامعه الجامع، ودعوت الله بالتسهيل إذ هو خير سامع، وسرت نحو أحياء الأموات وقرأت لهم الفاتحة، ولاسيما جناب سيدي فاتح[23] لتكون رحلتي ناجحة، وتوجهت إلى البحيرة وركبت من السفن أجراها، ثم تلوت بسم الله مجراها، فعند ذلك هاجت بلابل الأشواق حيث لم أودع حبيباً يوم الفراق. [من الطويل]

دعاني النوى قهراً على حين غفلةٍ		فلم أستطع أني أرى مَنْ مُودْعي

مخافةَ يغشى الدمعُ عيني فلا أرى		ويَذْهَل عقلي بالوداع فلا أعي

ومررت بسيدي شطا والقرشة والبغدادي والتفاحي والداير[24]، وقرأت لهم الفاتحة رجاء إمدادي، وأهديت الفاتحة لسيدي عبد الله تونا وأبي الوفا، وسكان البحيرة الذين هم من أهل الولاية والوفا.

استطراد :

قال المقريزي[25] في خططه: اعلم أن دمياط كورة من كور أرض مصر بينها وبين تنيس اثني عشر فرسخاً سميت بدمياط من ولد اشمن بن مصرايم بن ينصر بن حام بن

---

(22) - 15 ايار 1731.

(23) - فاتح بن عثمان الأسمر التكروري الشهير في دمياط باسم ابو المعاطي، ومسجد الفاتح يسمى الأن مسجد ابو المعاطي، وهو مجاور لمسجد عمرو بن العاص في دمياط، وبه ضريح المذكور، وهو معلم سياحي وأثر هام ومزار ديني ويقام له احتفال سنوي في منتصف شعبان من كل عام، ترجمته في الصفحات القادمة

(24) مقامات تزار في دمياط

(25) - تقي الدين احمد بن علي المقريزي الشافعي [764هـ 845هـ] كتابه الشهير (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار).

نوح عليه السلام. وقال إن إدريس عليه السلام كان أول ما أنزل عليه ذو القوة والجبروت: أنا الله مداين الفلكية بأمري وصنعي اجمع بين العذب والملح والثلج والنار، وذلك بقدرتي ومكون علمي، الدال والميم والألف والطاء قيل هم بالسريانية دمياط أي القدرة، إشارة إلى مجمع العذب والملح. انتهى

قال الحافظ الدمياطي[26] في شرح الأسماء الإدريسية، نسبة لإدريس عليه السلام، لأنه كان كثيراً ما يلهج بها، فقد بنى إدريس عليه السلام اثني عشر مدينة رابعها دمياط ومنها رفع. انتهى

ولذلك سميت باب السماء الرابعة.

تذييل :

قال البغوي[27]: في قوله عز وجل ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾[28] وهو جد أبي نوح واسمه أخنوخ سمي إدريس لكثرة درسه للكتب. وكان خياطاً وهو أول من خط بالقلم، وأول من خاط الثياب، ولبس المخيط، وكانوا من قبل يلبسون الجلود، وأول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار، وأول من نظر علم الحساب والنجوم. ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۞ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[29] قيل يعني الجنة، وقيل هي الرفعة بعلو الرتبة في الدنيا، وقيل هو أنه رفع إلى السماء.

وروى أنس بن مالك[30]، عن مالك بن صعصعة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه رأى إدريس في السماء الرابعة ليلة المعراج، وكان سبب الرفع على ما قال كعب الأحبار وغيره أنه سار ذات يوم في حاجة، فأصاب وهج الشمس، فقال يا رب أنا مشيت يوماً فكيف بمن يحملها مسيرة خمس مائة عام في يوم واحد، اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها. فلما أصبح الملك وجد في خفة الشمس وحرها ما لا يعرف، فقال: يا رب ما الذي قضيت فيه، قال إن عبدي إدريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرها

---

[26] - شرف الدين ابو محمد عبد المؤمن بن خلف بن ابي الحسن بن شرف بن الخضر بن موسى بن موسى التوني التنهسي الدمياطي الشافعي ولد ولد عام 613 هجرية وتوفي عام 705 هجرية، كان حجة في الحديث ونقل الذهبي عن المزيّ قوله: (ما رايت في الحديث احفظ من الدمياطي)

[27] - ركن الدين ابو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي الشافعي له كتاب في تفسير القران اسمه معالم التنزيل

[28] - سورة مريم، الآية 56.

[29] سورة مريم، الآيتان 56 57.

[30] - انس بن مالك بن النضر الخزرجي الأنصاري، من الصحابة، خادم الرسول صلى الله عليه وسلم

فأجبته، فقال رب اجعل بيني وبينه خلة، فأذن له حتى أتى إدريس فكان يسأله إدريس فقال له إني أخبرت إنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت، فاشفع إليه ليؤخر لي أجلي، فأزداد شكراً وعبادة. فقال الملك لا يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها وأنا مكلمه فرفعه إلى السماء، ووضعه عند مطلع الشمس، ثم أتى بملك الموت، فقال: لي حاجة إليك، صديق لي من بني آدم تشفع بي إليك لتؤخر أجله، قال ليس ذلك إلي ولكن أنى أحببت أعمله أجله فيتقدم في نفسه. قال نعم فنظر في ديوانه، فقال إنك كلمتني بإنسان ما أراد يموت أبداً. قال: كيف؟ قال: لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس، قال: فإني أتيتك[31] وتركته هناك. قال انطلق فلا أراك تجده إلا وقد مات، فوالله ما بقي من أجل إدريس شيء، فرجع الملك فوجده ميتاً. واختلفوا في أنه حي وقالوا: أربعة من الأنبياء في الأحياء، اثنان في الأرض واثنان في السماء، ففي الأرض الخضر والياس، وفي السماء إدريس وعيسى. وقال وهب [بن منبه] كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لجميع أهل الأرض في زمانه، فتعجب منه الملائكة واشتاق إليه ملك الموت فاستأذن في زيارته، فأذن له، فأتاه في صورة بني آدم، وكان إدريس يصوم الدهر، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه، فأبى أن يأكل معه ففعل ذلك ثلاث ليال، فأنكره إدريس، فقال له في الليلة الثالثة: إني أريد أن أعلم من أنت؟ قال: أنا ملك الموت استأذنت ربي أن أصحبك، فقال: فلي إليك حاجة. قال: ما هي؟ قال: تقبض روحي. فقبض روحه وردها الله عليه بعد ساعة، فقال له ملك الموت: ما سؤالك في قبض الروح؟ قال لأذوق كرب الموت وشدته فأكونَ أكثرَ استعداداً له. ثم قال له إدريس: إني لي[32] إليك حاجة أخرى. قال: وما تريد؟ قال ترفعني إلى السماء لأنظر إليها، وإلى الجنة والنار. فأذن الله له في رفعه، فلما قرب من النار قال: لي إليك[33] حاجة. قال: وما تريد؟ قال: تسأل مالكاً حتى يفتح لي بابها[34] فأردها ففعل فقال كما أريتني النار فأرني الجنة فذهب به إلى الجنة فاستفتح ففتحت بابها[35]. فأدخله الجنة، ثم قال له ملك الموت: اخرج لتعود إلى مقرك، فتعلق بشجرة وقال لا أخرج منها، فبعث الله تعالى ملكاً حكماً بينهما، فقال الملك: مالك لا تخرج؟ قال: لأن الله

---

(31) - ا أتيك

(32) - ناقصة في ا.

(33) - ناقصة في ا.

(34) - ب أبوابها

(35) - ب أبوابها.

تعالى قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[36] وقد ذقته. وقال: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[37] وقد وردتها. وقال: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[38] فلست أخرج، فأوحى الله تعالى إلى ملك الموت، بإذني دخل الجنة وبإذني يخرج، فهو حي هناك فذلك قوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[39].

قلت: وبدمياط بالجامع الفتحي العمري بالحائط المقابل للباب البحري، جناحان مصوران من الخشب، والدعاء فيما بينهما يستحب، فيقال إنه كان له مرقاة[40] ومعراج، فلذا يرى تجاهه بالدجى مجرةٌ ذات ابتهاج. [من الوافر]

قد اختار العلي إدريس عبداً	رسولاً بالهدى براً تقيا
وخصصه خصايص بعد شيث	خصايص منه كان بها وصيا
فأول من أقام الخط شكلاً	وخط الرمل كاد يكون وحيا
وأول مرسل تخذ السلاحا	وقاتل من ذوي الكفر الشقيا
وأول ناظر في النجم حكماً	وفي علم الحساب رقى رقيا
وأول خايط لبس المخيطا	بهاتيك الخصايص قد تزيا
ورام الرفع للفردوس جسما	فرقاه العليّ مرقاً عليا
ولما أن رقى جسماً وروحاً	ومات به أعيد الجسم حيا
حياة لا فناء لها فيبقى	إلى ماشاء ربك فهو يحيى
ومن دمياط كان له ارتفاع	فمرقاه نشاهده بهيا
عليه الله بالتسليم صلى	ورسل الله مع آلٍ وحيًّا

قال المقريزي: لما افتتح عمرو بن العاص مصر، امتنع الملك الهاموك- ابن أخت المقوقس- ملك دمياط بها، فأنفذ لها عمرو بن العاص المقداد بن الأسود في طائفة من المسلمين، فحاربهم الهاموك وقتل ابنه في الحرب، وكان له ابن آخر عاقل يقال له شطا له

---

(36) - سورة آل عمران الآية 185.

(37) - سورة مريم، الآية 71.

(38) - سورة الحجر، الآية 48.

(39) - سورة مريم، الآية 57.

(40) - ب مرقات

دار ملاصقة للسور فخرج إلى المسلمين ليلاً، ودلهم على عورات البلد، فاستولى المسلمون عليها وتمكنوا منها، وبرز الهاموك للحرب، فلم يشعر إلا وهم يكبرون على سور البلد وقد ملكوه، فعند ذلك لما رأى شطا المسلمين فوق السور لحق بهم ومعه عدة من أصحابه من خواص أبيه نحو العشرة، واستأمن للمقداد، فتسلم المسلمون دمياط، واستخلف المقداد عليها، وسار بهم مع المسلمين لفتح تنيس، فبرز شطا إلى أهلها وقاتلهم قتالاً شديداً حتى قتل- رحمه الله تعالى- في المعركة شهيداً، بعدما أنكى فيهم وقتل منهم، فحمل من المعركة ودفن في مكانه المعروف به الآن خارج دمياط، وكان قتل في ليلة الجمعة النصف من شعبان، فلذلك صارت هذه الليلة من كل سنة موسماً يجتمع فيه الناس من النواحي عند شطا ويعتنون به إلى هذا اليوم. انتهى

قال الهروي في رحلته[41]: وعند شطا أربعة من الصحابة مدفونون لم تُعلم أسماؤهم. ثم قال المقريزي: ودمياط الآن بلدة كبيرة ذات أسواق وحمامات وجوامع ومساجد ومدارس، ودورها تشرف على النيل الأعظم، ومن ورائها البساتين وهي أحسن بلاد الله منظراً، وقد أخبرني الوزير المشير الأستاذ يلبغا السالمي رحمه الله تعالى أنه لم ير[42] في البلاد التي سلكها، من سمرقند إلى مصر أحسن منها، أي دمياط هذه، فظننت أنه يغلو في مدحها إلى أن شاهدتها، فإذا هي أحسن بلد وأنزهه، وفيها أقول: [من الطويل]

سقا عهد دمياط وحيّاه من عهد	فقد زادني ذكراه وجداً على وجد
ولازالت الأنواء تسقي سحابها	دياراً حكت من حسنها جنة الخلد
فيا حسن هاتيك الديار وطيبها	فكم قد حوت حسناً يجل عن العد
فلله أنهار تحف بروضها	كما الصارم المصقول أو صفحة الخد
ويشينها الريان تحكي متيماً	يُبدّلُ من وصل الأحبة بالصدّ
فقام على ساق وفي الدمع غارق	يراعي نجوم الليل من وحشة الفقد
وظل على الأقدام يحسب أنه	لطول انتظار من حبيب على وعد
ولاسيما على تلك النواعير أنها	تجدد حزن الواله الدنف الفرد

---

[41] - ابو الحسن علي بن ابي بكر بن علي الهروي الأصل الموصلي المولد السائح، له كتاب (الإشارات في معرفة الزيارات).

[42] - ب يرى.

أطارحها شجواً[43] وصارت كأنما	يطارح شجواها بمثل الذي أسدي
فقد خلتها الأفلاكَ فيها نجومها	تدور بكأس النفع منها وبالسعد
وفي البركة الغرا بأحسن نوفر	حكى وغدا بالزهر يسطو على الورد[44]
سماء من البلور فيها كواكب	عجيبة صنع اللون محكمة النضد
وفي شاطئ النيل المقدس نزهة	تعيد شباب الصب في عيشة الرغد
وتنشي رياحاً تطرد الهم والأسا	وتنسي ليالي الوصل من طيبها عندي[45]
وفي مرج البحرين جمّ عجائب	تلوح وتبدو من قريب ومن بعد
كان التقاء النيل بالبحر إذ غدا	مليكان سارا في جحافل من جند
وقد نزلا للحرب واخترم اللقا	ولا طعن إلا بالمُثَقَّفة المُلد
فظلاّ كما باتا وما برحا بها	كما من جليل الخطب في أعظم الجهد
فكم قد مضى لي من أفنانين لذة	بشاطئها العذب الشهير بذي الورد
وكم قد نعمنا في البساتين نزهة	بعيش هنيٍّ في أمان وفي سعد
وفي البرزخ المأنوس كم لي خلوة	وعند شطا عن أيمن العلم الفرد
هناك ترى عين البصيرة ما ترى	من الفضل والإفضال والخير والمجد
فيا رب هب لي بفضلك عودةً	ومُنّ بها في غير بلوى[46] ولا جهد

وبدمياط، حيث كانت المدينة التي هدمت، جامع من أجل مساجد المسلمين، تسميه العامة مسجد فتح، وهو المسجد[47] الذي أسسه المسلمون عند فتوح دمياط، أول ما فتح الله مصر على يد عمرو بن العاص، وفيه عدة من العمد الرخام، منها ما يعز وجود مثله، وانما عرف بجامع فتح بنزول فاتح[48] بن عثمان الأسمر التكروري[49] قدم من مراكش إلى

---

(43) ب شجوى

(44) - البيت ناقص من النسخة ب

(45) - البيت ناقص من النسخة ب

(46) - ب بلوي

(47) ا وب مسجد.

(48) - ساقط من النسخة ا.

(49) - التكرودي في ب

دمياط على قدم التجريد، وسقى بها الماء في الأسواق احتساباً، وأقام في وكر بأسفل المنارة من غير أن يخالط أحداً، وكان حاله أبداً اتصالاً في انفصال، وقرباً في ابتعاد، وأنساً في نفار، ولما نزل بالمسجد أخذ في ترميمه وتنظيفه بنفسه، وساق الماء إلى صهاريجه، وبلط صحنه وسبك[50] سطحه بالجبس، وأقام فيه، وكان قبل ذلك من حين خربت دمياط لا يفتح إلا يوم الجمعة، فرتب به إماماً يصلي الخمس، وكان يقول: لو علمت بدمياط مكاناً أفضل من الجامع لأقمت فيه، ولو علمت[51] في الأرض بلداً يكون فيها الفقير أخمل من دمياط لرحلت إليها وأقمت بها. وكان يؤثر الأرامل والفقراء في السر، ويترفع على أهل الدنيا، ويتواضع للفقراء، وكان من دعائه: اللهم بعّدنا عن الدنيا وأهلها وبعّدها عنا، وما زال كذلك إلى أن مات ليلة الثامن من شهر ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وستماية[52] رحمه الله تعالى، ودفن بجوار الجامع، وقبره يزار إلى يومنا هذا. انتهى

خطط :

وقد خرج منها جماعة من المحدثين والفضلاء والأدباء النبلاء، ترجم بعضهم الإمام السبكي في طبقاته، وأبان عن فضلهم برقيق عباراته. فمن أجلّهم الحافظ عبد المؤمن بن خلف شرف الدين الدمياطي، كان حافظ زمانه وأستاذ الأساتيذ[53] في معرفة الأنساب، وإمام أهل الحديث المجمع على جلالته، الجامع بين الرواية والدراية بالسند العالي. تفقه بدمياط على الأخوين الإمامين أبي المكارم عبد الله، وأبي عبد الله الحسين بن الحسن بن منصور السعدي وسمع الحديث بها منهما ومن الشيخ عبد الله بن موسى بن النعمان، ثم انتقل للقاهرة واجتمع بحافظها زكي الدين عبد العزيز المنذري، ولازمه سنين، وبرز في حياته، وسمع من الجم الغفير، والعدد الكثير، بالإسكندرية، ودمشق، وحلب، ومكة، والمدينة، وبغداد، وماردين، وحماة، وغيرها، وروي عنه.

من الأئمة[54] تلاميذه: الحافظ أبو الحجاج يوسف بن الزكي المزي، وقال: ما رأيت احفظ منه. والحافظ أبو عبد الله الذهبي، والحافظ أبو الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس، والحافظ التقي السبكي الكبير، وهو أول من درس بالمدرسة المنصورية بالقاهرة،

---

(50) ا سلك

(51) - ساقطة من النسخة ا.

(52) 15 شباط 1296م

(53) - ا وب الأستاذين

(54) - الحفاظ في النسخة ب

ولد سنة ثلاث عشرة وستماية[55]، وتوفي فجأة سنة خمس وسبعماية[56]، ودفن بمقابر باب النصر من القاهرة. ومن شعره رحمه الله: [من الطويل]

روينا بإسناد[57] عن بن المغفل	حديثاً شهيراً صح من علة القدح
بأن رسول الله حين مسيره	لثامنة وافته في غزوة الفتح
تلا خير مقروء على خير مرسل	فرجّع في الآيات من سورة الفتح

تذييل :

الحديث الذي أشار إليه الحافظ ذكره الترمذي في شمائله[58]، في باب قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو: حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا شعبة عن معاوية بن قرة، قال سمعت عبد الله بن مغفل يقول: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته وهو يقول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[59] قال فقرأ ورجّع. قال: وقال معاوية: لولا يجتمع الناس علي لأخذت لكم في ذلك الصوت، أو قال اللحن. انتهى

قال الشارح المناوي[60] عند قوله ورجّع أي ردد صوته بالقراءة ومنه ترجيع الأذان، أو قارب ضروب الحركات في الصوت. وقد فسره عبد الله بن مغفل بقوله (أ ا أ) بهمزة مفتوحة بعدها ألف ساكنة ثم همزة أخرى، وذلك ينشأ غالباً عن أريحية وانبساط. والمصطفى صلى الله عليه وسلم حصل له حظ وافر يوم الفتح آ هـ بحروفه وقد أطال الشارح في هذا المقام.

فليراجعه من رام نَشْقَ عَرف ذاك البشام. قلت ومازالت دمياط ممدوحة للشعراء ومشوقة للأدباء والفصحاء لطيب معاهدها وحسن مشاهدها، وبهجة منتزهاتها ورياضها، وتمايل أشجارها ورونق غياضها، وتأرج شذا أزهارها، وتعدد أنواع أسماكها وأطيارها، وناهيك قصبها السكري، وحالي موزها العنبري. ومن أجلّ ما قيل فيها من

---

[55] - 1216- 1217 م

[56] - 1305 1306 م

[57] - حديثاً في النسخة ب

[58] - (الشمائل النبوية والخصائل المصطفوية)، للامام ابو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن الضحاك السلمي الترمذي

[59] - سورة الفتح، الأيات 1 2

[60] - (فيض القدير شرح الجامع الصغير) للامام عبد الرؤوف المناوي

التشابيه، ما أنشده الامام[61] بن النبيه للملك موسى الكامل حين افتتحها، فمدحه بذاك ومدحها: [من البسيط]

دمياط طورٌ ونار الحرب موقدة … وأنت موسى وهذا اليومُ ميقاتُ

فألقِ عصاك تلقف كل ما صنعوا … ولا تخف ما حبال القوم حيات

ولقد مدحها فأبدع وأجاد، شقيق الروح والفؤاد، البارع المجيد، السيد محمد السعيد، بقصيدة طويلة بديعة الصفات، فاخترت منها هذه الأبيات: [من الطويل]

إذا ثغر دمياط به ابتسم الزهر … حكى ثغر معسول اللما حين يفتر

أحاطت بها تلك الرياض كأنها … فراديس حفها سرادقها الخضر

بساتينها عدت كأيام حولها … فأي بلاد زانها ذلك القدر

ومن تحتها الأنهار شبه أراقم … تجاري هبوب الريح أزعجها الزجر

غدت بهجة للناظرين ونزهة … بألوان زهر زانه النظم والنثر

لها ظاهر يزهو برونق باطن … فظاهرها زهر وباطنها نهر

وحاكت لها الأنوا مطارقَ سُندُسٍ … مكللة بالطل زركشها الزهر

نواعيرها تبكي بسائل مدمع … فتضحك ثغر الروح أن أبطأ القطر

حكت حرف نون خطه قلم العلا … بحسن اعوجاج يستقيمُ به السطر

وتحكي إذا حققت رونق شكلها … هلالاً وزهر الروض أنجمه الزهر

وقوساً بأطراف السهام مفرقاً … وراميه بدر التم إذ بزغ البدر

وكم يزدهي قصر بشاطئ نيلها … على حسن ذاك القصر يستحسن القصر

ربوع بها روحي وراحي وراحتي … بذكرى لها والصب يطربه الذكر

تحن لها الأرواح شوقاً كأنها … هي الشام أو دار الخلافة أو مصر

قد افتخرت من حيث إدريس خطها … ومنها ارتقى[62] رفعاً فحق لها الفخر

وشكل جناحي جبرئيل[63] مصور … بجامعها الفتحي وما الخَبَر الخُبْرُ

---

(61) - الأديب في النسخة ب

(62) - ا و ب ارتقا.

(63) - جبريل في ب

هنالك صار المدعي كل جمعة … بأكمل آداب إذا صُلّيَ العصر

وينظر خطاً في السماء منوّراً … يوازيه جنح الليل إن أفل البدر

وفيها شطا ذا التابعي مقامه … على أيمن الوادي فغبراؤه عطر

وشرّف من صحب النبي بأربع … لديه ولم يعلم لأسمائهم ذكر

فقبل ثرى أعتابهم واستغثْ بهم … لحادث هذا الدهر إن غدر الدهر

ولازم رحاب الأولياء وثق بهم … حريصاً على الحسنى إذا ختم الأمر

وخذ من سعيد سبط طه فرائداً … هي الجوهر المكنون في سمطه الدر

وبيت قصيدي مدح طه وصحبه[64] … فإنهم القادات والأنجم الزُهر

وأما البحيرة[65] فيقال لها بحيرة تنيس، وكانت تنيس مدينة كبيرة فيها آثار للأوائل، فقد ذكر المقريزي أن الجنتين المذكورتين في قوله تعالى ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ﴾[66] إلى آخر الآية كانتا من أحسن متنزهات تنيس. قال المسعودي في (مروج الذهب): تنيس كانت أرضاً لم يكن مثلها استواء وطيب تربة، وكانت جناناً ونخلاً وكرماً وشجراً ومزارع، وكانت فيها مجاري على ارتفاع الأرض، ولم ير الناس بلداً أحسن من هذه الأرض، ولا أحسن اتصالاً من جنانها وكرومها، ولم يكن بمصر كورة تشبهها إلا الفيوم، وكأن الماء منحدر إليها لا ينقطع عنها صيفاً ولا شتاءً، يسقون جنانهم وزرعهم إذا شاؤوا، وسائره يصب إلى البحر المَلح من جميع خلجانه، من موضع معروف بالأشتوم. وقد كان بين البحر وبين هذه الأرض مسيرة يوم، فلما مضت لدقلطيانوس من ملكه مائتان وإحدى وخمسون سنة، حكم الماء من البحر على بعض المواضع، التي يسمى الآن بحيرة تنيس، فما كان من القرى التي في قرارها غرقت، وما كان منها على ارتفاع من الأرض بقيت كنونا وبورا. وكان استحكام غرق هذه قبل أن تفتح مصر بمائة سنه.

وقال في جامع تاريخ دمياط[67]، وكان أهلها مياسيرَ، أي أصحاب ثروة، وأكثرهم حاكة، وكان يصنع فيها ثوب للخليفة يقال له البدنة، لا يدخل فيه من سدا ولحمة غير

---

(64) - آله في ب

(65) - ا و ب البحيرا.

(66) سورة الكهف الآية 32

(67) - ساقطة في النسخة ب وثمة إشارة إلى جامع تاريخ دمياط في كتاب (خطط المقريزي) عند حديثه عن فتح الفرما دون ان يذكر اسم المؤلف

أوقيتين، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة، لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة، تبلغ قيمته ألف دينار، وكان يعمل منه ستر الكعبة، ومازالت تنيس مدينة عامرة إلى أن خربها الكامل محمد بن العادل في سنة أربع وعشرين وستمائة[68]، فاستمرت خراباً ولم يبق منها إلا رسومها في وسط البحيرة، وبحيرتها الآن يصاد بها السمك، وهي قليلة العمق، ويلتقي السفينتان، هذه صاعدة وهذه نازلة بريح وقلع، كل واحد منه مملوء بالريح مسيرهما في السرعة مستو. وبوسط هذه البحيرة عدة جزائر تعرف بالغرب يسكنها الصيادون وماؤها[69] ملح وقد يحلو أيام النيل. انتهى

وقد خرج منها جماعة من العلماء والمحدثين، فمنهم عبد الله بن يوسف التنيسي المحدث، أخذ عن مالك بن أنس، وعنه أخذ البخاري، وخرّج له في جامعه الصحيح. قال القسطلاني[70] في شرحه ظهر من تنيس جماعة من العلماء، منهم عبد الله بن يوسف التنيسي شيخ البخاري، ومنهم الحسن بن عبد الله الجردي نسبة إلى جردي بفتح الجيم وسكون الراء قرية من قرى[71] تينس، وهو من مشايخ البخاري أيضاً، ومنهم شيخ مشايخ البخاري يحيى بن حسان التنيسي وبشر بن بكر التنيسي. انتهى

وفي عام خمس وثلاثين ومائة وألف[72] وقفت في بعض زياراتي عليها، ونظرت بعين الاعتبار إليها، فلم أر فيها[73] إلا رسوم أطلال وآثار، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار. [من البسيط]

تلك المعاهد من تينيس قد محيت	لم يبق منها سوى آثار أطلال
كأنها لم تكن من قبل دوحتها	من تحتها قد جرى أنهار سلسال
يبكي عليها غراب البين من أسف	كأنما نسفتها ريح زلزال
فكم بها لأولي الأبصار من عبر	فانظر إليها بعين الناقد السالي

ثم، بعد ركوبنا البحيرة على متن السفين، نتلو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[74]

---

(68) - 1227-1226 م

(69) - ب ماها.

(70) - (إرشاد الساري شرح الامام البخاري) للحافظ شهاب الدين احمد ابي العباس بن محمد الخطيب القسطلاني الشافعي

(71) - ب قرا.

(72) - 1723-1722 م

(73) - ب بها.

(74) - الفاتحة

وصلنا ثاني يوم فم أم مفرج، فركبنا متون الصفانات[75] على قلعة الطينة[76] نعرج، فوردناها قرب الغروب، فنزلنا بها وقد زالت عنا الكروب، وأكلنا ما حضر من العشا، وسرينا منها بعد صلاة العشا، حتى نزلنا آخر الليل نحن والقوم، وطلبنا الاستراحة فاضطجعنا للنوم. إلى أن هزم الصبح جيش الليل البهيم، فسرنا بعد الأسفار إلى الرماني منزل بني هشيم. فتلقونا بالبشر والإكرام، وبثغور زاهية الابتسام، من كل مولى حميم وجواد كريم. [من البسيط]

لا تعجبوا من نداهم إنهم عرب   والجود بالطبع فيهم غير مبتكر

إنّا نزلنا لديهم نحتظي بندى   من راحتيهم وليس الخُبْرُ كالخبَر

ثم ركبنا من الجياد الظهور، والسعد يبشرنا بتيسير الأمور، فوصلنا إلى المريح تجاه[77] قطية[78] قرب الزوال، فأسقينا وعزمنا على الرحيل والسير في الحال، ومازلنا سائرين مع ذلك الوفد، إلى أن وصلنا قريب الغروب بئر العبد[79]، فإذا ماؤها مر المذاق، وإذا فيه كؤوس دهاق، ولونه يداني الحبر البرأق، ولا يخفى ما بين الاسم والمسمى من الطباق. [من الوافر]

وردنا نحو بئر العبد نروي   فؤاداً ذاب من حرِّ الأوامِ

وجدنا طعمه ملحاً أجاجاً   وأرجاه مسجى بالظلام

فطابق إِسمه عين المسمى   ولا يخفى التجانُس بالمقامِ

العريش

فتناولنا ما تيسَّر من الزاد، وجعلنا ظهور الخيل للاستراحة مهاد، ومازلنا سائرين حتى عجزنا عن الاستطاعة، فوصلنا العريش يوم الجمعة قبيل المغرب بساعة، وقد لاحت منها بوارق السناء ولوامع أنوار الضياء، كيف وقد نقل كعب الأحبار أن بها عشرة من الأنبياء الخيار، لم تعلم أسمائهم الشريفة، ولا ضرائحهم السامية المنيفة، فيقصد الزائر

---

(75) صحيحها الصافنات وهي الجياد.

(76) - قلعة حربية بناها السلطان قانصوه الغوري بشمال سيناء.

(77) - ب قبال.

(78) - قطية محطة مهمة على طريق مصر - الشام.

(79) - حالياً مركز من مراكز محافظة شمال سيناء في جمهورية مصر العربية، وهي محطة معروفة على الطريق الحربي الكبير منذ القدم

زيارتهم على الإجمال فتحصل نفحات إمداداتهم على كل حال. وبها مقام سيدي محمد الدمياطي، كعبة الزوار صاحب المنظومة الدمياطية، ذات الأسرار. ولقد تيسر لي في الخَطرَة الأولى زَورَتُه، وسرني من ذلك المعهد رؤيتُه.

بلدة قديمة، قال أبو السرور البكري في كتابه الرياض الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، إنها، أي مصر، كانت قبل[80] تسمى جَزلة، وكان لسكانها معرفة في العلم، وكان من جملتهم أقليمون الكاهن، ولما اتصل به خبر نوح عليه السلام علم بما يؤول إليه الحال من الطوفان، فخرج من مصر ولحق بنوح وآمن به هو وولده وأهله وتلامذته، وركب معه في السفينة وزوج ابنته من بيص بن حام بن نوح عليه السلام، فلما خرج نوح من السفينة وقسم الأرض، كانت ابنة أقليمون قد ولدت من بيص ولداً أسماه مصر، وقيل مصريم، قالت لنوح ابعث معي ولدي حتى أمضي به إلى بلدي، وأوقفه على علومي ورموزي، فأنفذه معها مع جماعة من أهل بيته، وكان غلاماً، فنزلوا على[81] العريش أولاً ولهم فيها آثار بها سمي العريش عريشاً، ثم انتقل إلى مصر وسبق أباه وأخوته، وكان هو أكبرهم إلى هناك، وكان إقامتهم بسفح الجبل، ونقروا هناك منازل كثيرة، ومغائر مديدة مهولة، حتى قيل إن بعض المغائر نَفَذَ نَقْرُهُ إلى ساحل السويس. وغرس مصريم الأشجار بيده وكانت أشجاراً عظيمة بحيث تشق الأُتْرُجَةُ الواحدة نصفين فيكونان حملا جملٍ، وكان طول كل واحدة من القثاء أربعة وعشرين شبراً إلى آخر ما أطال به. إلى أن قال وسميت الأرض باسم مصريم المذكور. انتهى

وقد منعنا أكابر العريش وحماها، أن نحل ذروة حماها، خوفاً من الطاعون يناديهم، أو يحل بساحة ناديهم، لكوننا من الديار المصرية، وكان الوباء بها إذ ذاك وهذه سليقة غير مرضية، وولُوا عن المقابلة معرضين، وهيهات أن يدفع المقدور حصن حصين. [من البسيط]

فروا مخافة طاعون وما علموا ... أن المقدَّر محتومٌ من القدر

وكيف يدفع مقدوراً بحيلته ... من قد تحفظ بالأحجار والمدر

فنزلنا ظاهرها بدوح روضة تَقَرُّ به العيون، وينشرح بطيب شذاه القلب المحزون. ويشفي نسيم أَرَجه العليلَ، ويروي سلسال واديه الغليل. [من المتقارب]

نزلنا بدوح بوادي العريش ... يسر العيون ويشفي الغليل

بنشر الزهور بلوح النهور ... وحسن المقيل بظل ظليل

---

[80] - ساقطة في ب

[81] - ساقطة من ا.

وأقمنا بذلك البستان البسام، إلى أن حان من يوم السبت الختام، فسرينا قاصدين خان يونس وعين العناية لها تؤنس، ممتطين ظهور الخيل إلى أن عرّسنا بوادي الخروبي آخر الليل، وهو واد متسع أفيح بهيج، يفوح عبير شذاه الأريج، وبه صلينا الصبح قبل الأسفار وسرنا فوصلنا رفع وسط النهار، وهو أول أرض الشام، كما ذكره صاحب مثير الغرام، وبه بئر يقارب النيل في عذوبته، صلينا عنده الظهر وسرنا في ساعته، فوصلنا إلى الخان، وكان وقت العصر قد حان، فامتطينا صهوته الرفيعة، وبتنا بقلعته المنيعة، نكحل العيون بميل السهر، ونديـر ما بيننا كؤوس السمر، مستبشرين بدنو المزار، وقرب هاتيك الديار. [من البسيط]

بخان يونس نجم القرب قد لاحا	وطيب عرف الشذا من دوحه[82] فاحا
إنْ كان مبتدأُ القدس الشريف به	والقرب ينشئُ للأرواح أفراحا
في ليلة أذكرتني ليلة بمنى	أجلو بها من شراب الأنس أقداحا

غزة

فلما انقضت تلك الليلة التي كليلة القدر، وكاد أن يُفْجأنا ضياء الفجر، قصدنا غزة فوافيناها ضحوة النهار، وقد فاح شذا نسيمها المعطار، فأطلقت عنان الطرف في ناديها، وصُلت بصولجان الفكر في واديها، عندما كشفت عن نقابها، وتجلت للناظرين من حلل إعجابها، فإذا هي بحبوحة جنان، وللحمائم بروض زهورها ألحان، فأسرعت إلى نحوها المسير وكدت من فرحي إليها أطير. [من البسيط]

سر بي إلى غزة الفيحاء إن بها	رياض زهر تحاكي جنة الخلد
مر النسيم عليها والصبا سحراً	يروي حديثاً لنا عن ساكني نجد
فهاجني بلبل الأفراح حين شدا	بلحنِ مَعْبَدَ فوق الأغصن الملد

فلما وصلت لحانها ساقتني يد التقدير إلى خانها، فنزلت بها مصاحباً لبعض الرفاق، وأنا مما به من عسكر الدولة في غاية الإشفاق، فبت فيه ليلة[83] ملسوع، ودهوة[84]

---

(82) - ب عرفه

(83) - ب بليلة

(84) - ب دهوت

مفجوع، أروي عن السها حديث السهاد، من وثبات براغيثها ومخافة تلك الأوغاد، أقول مخاطباً للنفس، حيث أزعجت عند ذلك الحواس الخمس. [من الطويل]

كليني لهمٍ يا أميمة ناصبِ ... وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب[85]

وقد تذكرت قول القائل من الشعراء الأوائل: [من البسيط]

عندي براغيث سوءٍ كلها اجتمعت ... قد بيتوني بأنواع من الغصص

يروح هذا يجي هذا فأقنصه ... فتنقضي ليلتي في الصيد والقنص

ولا يخفاك ما للناموس أيضاً من السطوات، وترقيص النائم بنغم تلك النايات. وللأخ السعيد في هذا المقام، ما يحكي اللآلئ في حسن النظام. [من الوافر]

عدتك لويلة قصرت وطالت ... بها الناموس محتف وسادي

أثار النوم قهراً عن جفوني ... بلسع قد حكى شرر الزناد

ولما كثرت وثباتها علي من كل جانب، وضاقت لدي المسالك والمسارب، ارتجلت منشداً، حيث لم أجد لي منجداً، وكدت أن أشتفي بذمها في النظام، لكن نهى عن سبها سيد الأنام. [من الطويل]

براغيث هذا الخان أسهرن ناظري ... بلسع كسقط الزند ما خلته يطفا[86]

لها وثبات الليث مع ضعف جسمها ... ولكنها قد أورثت جثتي ضعفا

وقد كدت أهجوها بحسن تلطف ... ولكنْ جاء النهي عن حبها كفا

وما زلت به إلى أن لاح الصباح، ونسخ حديثه آية المصباح[87]. ولما جرَّد الليل بُردَهُ المسكيّ، أقبل علينا صديقنا محمد مكيّ، وحيّانا بأحسن الخطاب، وعاتبنا بألطف عتاب، ثم أقسم علينا بالنزول بداره، أو بقصر ببستان له بجواره، فأجبته بالامتثال، وسرت معه في الحال، فلما وصلت إلى بستانه البديع، وروض حماه المريع، قابلتني خُطَبَا طيوره فوق منابر الأغصان، تروي أحاديث السرور ببديع الألحان، فصبوت مما شاهدته من الجمال، وأنشدت على الارتجال: [من الكامل]

قصر زها[88] فروى عليل نسيمه ... خبر الشفا لحدائق الأزهار

---

(85) - مطلع قصيدة النابغة الذبياني يمدح النعمان بن المنذر.

(86) ا و ب يطفى

(87) - الجملة من: ومازلت به حتى المصباح، ساقطة من النسخة ب

(88) - ا و ب زهى.

صدحت بلابله على أغصانه	تملي حديث العود والمزمار
فلك به المكيُّ شمس نهاره	وبنوه تحكي بهجة الأقمار
أنعِمْ بقصر يستطيل إلى السها	فاح الشذا من عَرْفه المعطارِ
مَنْ أمَّه يلقى لديه مُسَطَّراً	كنز الصفا ومشارق الأنوار

وقد وفد علي المولى الأديبُ، والطبيب الرئيس اللوذعيُّ الأريبُ، الشهاب أحمد الخرش الحكيم، فتلقيته بالإجلال والتكريم، إذ هو في حذاق الأطباء معدود، فكأنما بعث الله لنا داود[89]، فشفا في بشفاء قانون لطفه، وداوى فؤادي بعذوبة ألفاظه ولطفه[90]. فكانت محادثته النزهة المبهجة، في تشحين الأذهان وتعديل الأمزجة، منحني من مفرداته بكل غريبة، وأتحفني من منهاجه بكل عجيبة، وأنشدني لصاحب النفس القدسي، مولانا العارف الشيخ عبد الغني النابلسي: [من الطويل]

سقى الله غزا وابل السحب إننا	وجدنا بها ما لا بِمصرَ وجلِّقِ
بدوراً وغزلاناً وماءً وخضرةً	وكثبانَ من رمل على بحرِ أزرقِ

وطلب مني تشطيرهما مرتجلاً فأجبته قوله ممثلاً وأين نظم الدر والياقوت ممن ينحت من الجبال بيوت. [من الطويل]

سقى الله غزّاً وابل السحب إننا	نَحِنُّ لها وجداً بفرط تشوّق
نزلنا بواديها الأريج بروضة	وجدنا بها ما لا بمصر وجلق
بدوراً وغزلاناً وماءً وخضرة	وألحان أطيار بأفصح منطق
وطيب نسيمٍ مع زهورٍ تدبَّجت	وكثبان من رمل على بحر أزرق

وأنشدني بيتين لابن طاهر، على مثلهما تعقد الخناصر، يزريان بالأغاني، والمثالث والمثاني.. [من الطويل]

إلى كم تطيلي[91] العتب في كل ساعة	فلم لا تملين القطيعة والهجرا
رويدك إن الدهر فيه كفاية	لتفريق ذات البين فانتظري الدهرا

---

[89] - ب داوود.

[90] - الجملة من: فشفا. إلى ولطفه، ساقطة من النسخة ب

[91] - الصواب تطيلين بثبوت النون، ولو قال يطول العتب؛ لتخلص من الضرورة

ثم استروحت النفس لرؤية رياضها، والتملي بمحاسن غياضها، فوافيت روضة أظهرت يد الغيث آثارها. وأبدى الربيع للعين أنوارها، فهي كالعروس في حليتها وزخارفها، والقَينة في وشيها ومطارفها، تنافحت بنوافح المسك آزهارها، وتعارضت بغرائب النطق أطيارها: [من البسيط]

أنهارها بمياه الحسن دافقة	كأنها لذوي التنعيم جنات
أزهارها بعبير المسك قد نفحت[92]	أطيارها ببديع النطق قينات

ذات ظل ظليل، وماء عذب من السلسبيل، نعوتها وأوصافها متناسقة، وأشجارها كالمحبين متعانقة، أرجاؤها مؤنقة، وجداولها متدفقة، سمت بالحسن والابتهاج، وفرشت أرضها بالسندس والديباج، وازدهت بمرجها الأريج، وأنبتت من كل زوج بهيج، فكأنها روضة ابن المعتز البديع، حيث مدحها إبان الربيع:

وروضة كحلية العروس، وقدم كهامة الطاووس، فالسرو مثل قضب الزبرجد، قد استمد الماء من تربٍ ندٍ، والأقحوان كالثنايا الغر، قد صقلت أنواره بالقطر، وياسمين في ذرا الأغصان، منظم كقطع العقيان، فيضحك الورد إلى الشقائق، فاعتنق الورد اعتناق الوامق، والسوسن الأروا منشور الحلل، كقطن قد مسه بعض البلل، وفرج الخشخاش حبيباً وفتق، كأنه مصاحف بيض الورق، تبصره عند انتشار الورد، مثل الدبابيس بأيدي الجند، أو أنها الروضة الفنا التي بلبل بن حبيب بها[93] غنّى[94]، حيث يقول أيضاً:

جدّ بي الوجد إبان الربيع، إلى رؤية فضل الغيث بمنازل الربيع، فسرت أحدّق في جوانب الحدائق، وصحبي من الشوق وشائق يتلوهن حاد وسابق، فإذا أنا بروضة أريضة، عيون أزهارها مريضة، قد فاح أرجها وأضاءت سرجها، وبرز إبريزها، وحسن تطريزها، وأبدت من زينتها ما هو باللطف منعوت، ونثرت على الزمرد أصناف الدر والياقوت، وتحلت بما يروق إنسان كل إنسان، وتجلت في رفرف خضر وعبقري حسان، أعلن السحاب أسرارها، وهتك النسيم أستارها.

شعر: [من المتقارب]

كأن تفتحها في الضحى	عذارى تُحلّل أزرارها

---

[92] - ب نافحة

[93] - ب باروحها.

[94] - ا وب غنا.

حكت الخنسا لا في الحزن بل في الحسن والفخر، ولها عيون تجري على الديباج لا على صخر، يضوع عَرْفُها على الآفاق ولا يضيع، ويَبُزُّ الظرف من صنع صنعائها كل بز رفيع، تنهار جداولها وأنهارها، ويضحك في وجه منه وابلها وأم لها نوّارها.

شعر: [من الوافر]

وما غربت نجوم الليل لكنْ نُقلنَ من السماء إلى الرياض

فمنه ورد أحمر الإهاب، عنه في الخضاب، ومنه الأبيض، المُذْهبُ المفضّضُ، ومن نرجس باسم، عَرْفُه ناسم، ومن ياسمين يجلو البصر، كأنه أقراط منه الدرر، ومن نسرين، جوهرٌ عقده ثمين، ومن خلاف، ليس في طيب عرفه خلاف، ومن بنفسج حسن لباسه، وطابت أنفاسه، ومن نيلوفر صفّره السَّقام وعذّبه، وغرٌ به الأمل وغرّبَهُ، ومن آس[95] ما لجرح محبة آسٍ[96]، ومن ريحان يقول إن وقت[97] الري حانَ، كان أطواق الحمام أو سلاسل سوالف الغمام، ومن منثور منظوم جوهره منثور، ومن سوسن، تعالى الله ما أحسن، ومن خزامى قدره لا يسامى، ومن أقحوان جمع في مفرده القلم آن ومن أذريون، أظهر القطر سره المكنون، ومن بهار، بهر بحسنه الأبصار ومن شقيق، أين منه المرجان والعقيق، ومنه ومنه ومنه في إشارة فمن بالعجز عن الحصر فتن. انتهى

فروحت الروح بأرجاء[98] مغانيها، وشرحت الصدر بمتن بهجتها ومباهج حواشيها، وتمتعت بمحاسن بدائع حدائقها، واقتطفت من وردها الزاكي وشقائقها.

المقامة الزهرية

وكنا جمعَ سلامةٍ بمجمع الأحباب، الحائزين[99] أداب الظرف وظرف الآداب، فتجارينا في مضمار المسامرة بميدان الأشعار، على نجب البراعة وكرائم الأفكار، فابتدرني منهم ذو حسن وذكا، سما في المعارف الأدبية وزكا، وقال أيحضرك بعض ما ورد في الأزهار، من التشابيه البديعة والمنافع والأسرار، فقلت إيه على الخبير سقطت، وصدق حدسك فيما تفرست، فألقيت[100] الدواة وحرفت القلم، وكتبت مستعيناً باسم من أقسم بنون والقلم،

---

[95] - نبات ورقه طيب الرائحة

[96] - الأسي هو الطبيب

[97] - ا إن قته ان الري حان

[98] - ب في ارجا.

[99] - ا الحاوين

[100] - ا و ب فالقت

بسم الله الرحمن الرحيم، حمداً لمن أنشقَنا من الأزهار نوافح عَرفها، وأشهدنا لطائف خواصها، وموانح نفعها ونفث في رُوعِ[101] ذوي البلاغة أسرار البديع، فنطقت ألسنتهم في تشبيهها بكل وجه بديع، والصلاة والسلام على أفصح العرب والعجم، من أوتي جوامع الكلم والكلام المحكم، وعلى آله وأصحابه زهور روضه المعطور، من تحلى بحسن مدائحهم المنظوم والمنثور وبعد، فيا ذا الأدب واللطافة والرقة والظرافة، قد صدقت طلبتك، وحققت رغبتك، مقتفياً من مقامات السيوطي طرفاً، ومن دوحة الدفاتر طُرفاً.

فإن عثر القلم في الخُطا، فعليٌ لا عليه الخَطا، فأقول: فأما الورد فهو سلطان[102] الرياحين، والمنعش للأرواح في كل حين، نديم الخلفا، وحليف الظرفا، العادل المزاج، الصالح في العلاج، فشمه يسكن حرارة الصفرا، وماؤه يبرد من المعدة حرا وينفع من الغثا والخفقان، والصداع الحاد في كل آن، وشرابه يطلق الطبيعة القوية، ولاسيما من صاحب الأمراض الصفراوية، وبزره نافع للثة الفم، وأقماعه تقطع الإسهال ونفث الدم، ودهنه شديد النفع في الجراحات، وفيه مآرب كثيرة لذوي الحاجات. قال صاحب كتاب الفلاحة الحيلة في وجوده: متى طلب أن يؤخذ أزراره الخضر التي لم تفتح، يملأ جرة فخار جديد ويُطيَّن رأسها بطينٍ محكم، لا يتخلل الهوى وتدفن في الأرض، فإذا احتيج منه شيء أخرج ورش عليه ماء ويترك في الهواء[103] فإنه يفتح ورداً رطباً كالذي يقطف من شجرة، وقد أنشد فيه مَنْ راعى حُسن التشبيه. [من الخفيف]

دوح ورد يميس فيه غصون	فتحاكي بهفهفات القدود
زهرها فوق ما تفتح منها	كَشفاهٍ ضُممْنَ للثم الخدود

وقد أنشد من له شغف بمعانقات القدود والمعاطف، ولثم وجنات ورود الخدود والمراشف. [من الكامل]

وردت إليك من الحديقة وردة	وأتتك قبل أوانها تطفيلا
طمعت بلثمك إذ رآتك فجمعت	فمها إليك كطالب تقبيلا

ومنه ما حُكي أنَّ رجلاً أهدى إلى أبي عامر الكاتب وردة قبل أوانها، فأخذها وكان بعض شعرائه بالمجلس، فأشار إليه أن يقول ما عنده فأنشد: [من المتقارب]

---

[101] - روع: براء مضمومة وواو ممدودة: القلب

[102] ب سيد.

[103] - ا و ب الهوى.

أتتــــــك أبــــــا عــــــامر وردة يحـــاكي لـــك المسكُ أنفاســها
كمـــذراءَ أبـــصرها[104] مبـــصرٌ ففطـــت بأكمامهـــا رأســـها

فلهذين البيتين حكاية طنانة، أودعها الشهاب في كتابه الريحانة: ولما استغاث الورد الجني واستنجد رق له السامع وأنشد: [من الكامل]

ولم أنـس قـول الـورد حـين جنيتـه والنـــار لاســـتقطاره تتـــسعر
ناشـــدتكم نفـسي الفـداء وإنمـا لا تعجلوا[105] في قبض روحي واصبروا

وأما النرجس فهو فريد الزمان، الكامل في المحاسن والإحسان، المشبه بعيون الملاح، المعروف في الأدوية بالصلاح، وقد ورد فيه خبر عن سيد البشر، شموا النرجس فإن في القلب حبة من الجنون والجذام والبرص لا يقطعها إلا شم النرجس. وقد روى عن بقراط أهل النقل، أنه غذاء للروح والعقل، وإن الحسن بن سهل نبه على فضله من غير حيف، فقال إن من أدمن شمه في الشتاء أمن البرسام في الصيف، وفيه منافع طيبة ظاهرة غير خفية، فشمه منافع للزكام البارد، وبه تحليل قوي الموارد. ودهنه نافع لأوجاع العصب والأرحام، والآذان والصلب من الأورام، واصله يلحم الجراحات العظيمة وينفع ذكر العنين ويجيد تقويمه، ومن الدليل على صلاحه أنه غفر لأبي نواس بأبيات قالها في امتداحه: [من الوافر]

تأمـــل في ريـــاض الأرض وانظـــر إلى آثــارِ[106] مـــا صـــنع المليـــك
عيـــون مـــن لجـــين شاخـــصات بأحـــداق كمـــا الـــذهب الـــسبيك
علـــى قـــضب الزبرجـــد شـــاهدات بـــأن الله لـــيس لـــه شـــريك

وقد تشوق أديب للقاء الحبيب، فضمه مع الأقاح، فضاع نشرهما وفاح. [من الكامل]

لـــو كـــان مـــن أحببتـــه في روضـــة أطيارهـــا صـــاحت بـــه تـــترنم
لرأيـــت نرجـــسها يغـــض جفونـــه عنـــا وثغـــر أقاحهـــا يتبـــسم

---

(104) ا بصرها.

(105) - ب تعجبوا.

(106) - ا و ب إثارات

وقد أنشدني لنفسه الشقيق السعيد مضمناً للمثل السائر في لحاظ الفيد: [من الكامل]

أهدى الحبيب إلي باقة نرجس ... وجفون أعينها المريضة تبسم

حاكت عيون معذبي فلثمتها ... من أجل عينٍ ألف عين تُكرَمُ

وأما الياسمين فهو زين الرياض، والموسوم في الوجه بالبياض، وجاء في حديث يفوح بنشره، أن قارئ القرآن يؤتى[107] بياسمين الجنة في قبره، ونفعه مشهور بلا خفاء، فكم له من أنموذج في قانون الشفاء، ينفع من الأمراض الباردة، ويحلل الرطوبات الجامدة، وينفع الشقيقة والزكام، ويقطع نزف الأرحام، وينفع من الفالج ووجع المفاصل، ويجلب العرق الفاضل، وإذا وضع في الكتب لم يَقْرَبْها أرَضَةٌ، وإن كانت فيها كالجمل المعترضة، وقد أنشد الصاحب بن عباد، فأحسن في التشبيه وأجاد: [من البسيط]

وياسمين على قُضْبٍ منعمة ... قد قدرته يد الخلاق تقديرا[108]

ما خلت من قبله سبحان خالقه ... قُضْبَ الزَّمُرُّدِ أن يحملن كافورا

وقد بعث ابن النقيب النبيه إلى النصير الحمامي[109] ملغزاً فيه: [السريع]

يا من يحل اللغز في ساعة ... كلمحة من طرفة العين

ما اسم إذا أنقصت من عده ... في الخط حرفاً صار اسمين

فأمّا البان فهو ذو اسمين، والقريب من البان بلامين، المشبه قده الرطيب بقامة الحبيب، أزهاره عالية وأدهانه غالية، شمّه نافع لذوي المزاج الحار، ومسكن الصداع الكائن عن البخار، ودهنه نافع لكل وجع بارد، وتحت ذلك صور خالية الموارد، من الأذن والضرس والرأس، والكبد والطحال بلا التباس، وحسبك في عبوق نفحه، قول ابن الوردي في مدحه: [من الوافر]

تجادلنا أماء الزهر أزكى ... أم الخلّاف[110] أم ورد القطاف

وعقبى ذلك الجدل اصطلحنا ... وقد وقع الوفاق على الخلاف

---

[107] - ب ياتي

[108] - ب مقدورا.

[109] - ب بن النصير الحمامي

[110] - الخلاف شجر الصفصاف واحدته خلافة

ولما رأيت البان ماس وتاه، أنشدته محذراً سوء عقباه: [من الطويل]

أيا غصن بان الروض إن كنت معجباً بقامتك الحَسنا فما أنت مُنصف

لقد ملت كل الميل تيهاً وعزة ومن تاه عجباً بالمحاسن يُقصف

وأمّا النسرين فهو زين البستان، وفيه من الذهب والفضة لونان، العابق نشره بين الأزهار، الغزير وجوده في جميع الأمصار، اللطيف مزاجه، الظريف علاجه، ينفع من برد العصب ووجع الأسنان، ومن الدوي والطنين في الآذان، وشرابه يقتل الدود ويسكن القيء والفواق، ويقوي القلب والدماغ على الإطلاق، ويحلل من الصدر الرياح، وفيه لأصحاب المرة السودا غاية النجاح، وإذا لطخ به الجبهة أذهب الأرق، والتدلك به يطيب البشرة والعرق، فكم له من فضيلة نشرها فائح، وخصوصية نورها لائح، وقد أنشد بعضهم فيه وأتحف، حيث للفظ صحّف: [من المديد]

ما أحسن النسرين عندي وما أملحه مذ كان في عيني

زهراً إذا ما أنت صحفته وجدته بشرى ويسرين

ولا التفات لمن عليه اغتصب، وللورد انتصر وانتصب. [من الطويل]

ولا تنس قول الورد لا تركنوا إلى معاهدة النسرين فهو يمين[111]

ألا تنظروا منه بناناً مخضباً وليس لمخضوب البنان يمين[112]

وأمّا البنفسج فهو اللطيف الذات، الشريف الحسن والصفات، به تعطرت الجيوب، وبه يشبه عذار المحبوب، المحاكي لزرق اليواقيت، وأعناق الفواخيت، منافعه لا تحصى، وفوائده لا تستقصى، ويكفيه ما ورد عن سيد ولد عدنان، أن دهنه سيد الأدهان، فهو بارد في الصيف حار في الشتا، صالح للأمزجة في أي زمن أتى، شمه يولد دماً في غاية الاعتدال، وينفع من الرمد الحار والسعال، ويسكن الصداع والصفراء، ويلين من ضمد به صدراً، وشرابه لذات الجنب والكلا، ولدر البول حقاً محللا، والمربى منه بالسكر يفسخ الحمى الدموية، ويلين البطن والحلق بلا مريْه، ودهنه إذا قطر في الإحليل سكن حرقة المثانة، ويصلح ما فسد من الشعر إذا أدمن دهانه. وإذا تحسى منه في الحمام وزن درهمين نفع من ضيق النفس بلا مَيْنٍ. وكفاه شرفاً بين الندمان، ما أنشده حين إهدائه بعض الأخوان. [من المنسرح]

---

(111) ـ يمين فعل مضارع ماضيه مان ومعناه كذب

(112) ـ يمين قسمٌ، حَلْفٌ اسم على وزن فعيل

يا مهدياً لي بنفسجاً أرجا ... يرتاح صدري له وينشرح

بشرني عاجلاً مصحّفه ... بأن ضيق الأمور ينفسح

ومما يشنف الأسماع ويشيق، ما أنشده فيه الشاعر اللبيب ابن رشيق:

بنفسج جاك في حين لا ... حريري فيه ولا فرط برد

كأنما لما آتينا به ... منغمس الأثواب في اللازورد

وأمّا اللينوفر فهو نزهة النظار، وبهجة النفوس وجلا الأبصار، اللطيف لكثير الخواص، شمه يسكن حاد الصداع، وبه لإذهاب الأرق غاية الانتفاع، شرابه شديد الأطفى، بعيد عن الاستحالة للصفرا بلا خفا، صالح للحميات الحادة، نافع من السعال ويبس المادة وقد أنشد من ارتاح لنشقه، وهاجت به بلابل عشقه: [من الكامل]

يرتاح للنّيلوفر[113] القلب الذي ... لا يستفيق من الغرام وجهده

والورد أصبح في الروائح عبده ... والنرجس المسكيُ خادم عبده

يا حسنه في بركة قد أصبحت ... محشوة مسكاً يشاب بندّه

ومنه صنف يسمى البشنين، يشابهه في التكوين لا في التلوين، يحدث عن انطباق النيل وله في مجملات الطب أحسن تفصيل، دهنه محمود في البرسام إذا تسعط به ذوي الأسقام[114].

وأصله يجبر الباه الكسير، ويسخن المعدة ويقطع الزحير، قد صاغ وصفه فأحسن سبكه من قال فيه حين شاهده في بركة:

وبركة بغدير الماء قد طفحت ... بها عيون من البشنين قد فتحت

كأنها وهي تزهو في جوانبها ... مثل السماء وفيها أنجم سبحت

وأما الآس، فهو سيد الرياحين، لوجوده في كل وقت وحين، وكم له فضائل بلا التباس، تثبتها الأدلة والقياس، فقد أخرج بن السني عن ابن عباس، أهبط آدم من الجنة بسيدة رياحين الجنة الآس.

وأخرج بن أبي حاتم عن ابن عباس بسند أجاد تحسينه، أول شيء غرس نوح الآس[115] حين خرج من السفينة، وله خواص كثيرة محمودة، وفي قانون الطب معدودة،

---

(113) - ا و ب للينوفر.

(114) ا الأفهام

(115) - ساقطة في النسخة ا.

شمه مقو للأبدان، حابس للإسهال ولكل سيلان، منشّف للرطوبات ومسكّن للأورام. نافع للشريّة والسعال على الدوام، وإذا دق ورقه[116] الغض وعجن بالخل ووضع على الرأس قطع الرعاف وإن جل، وحبه يقطع القيء والأورام، ودخانه ينفع من النزف عند الاستحكام، ودهنه لإشقاق[117] المقعدة وحرق النار، والبثرة وجميع ما في البدن من الآثار، وشرابه يدفع السعال، وينفع الرية بلا محال، وقد أنشد المستهدي أمير المؤمنين، حين أهداه حبيبه غصناً من المرسين[118]: [من الكامل]

أهديت شبه قوامك المياس ... غصناً رطيباً مايساً من آس

فكأنما تحكيه في حركاته ... وكأنما يحكيك في الأنفاس

وقد مدح بطيبه الأريح، وأزهى منظره البهيج منبهاً بطول بقائه وحسن وفائه. [من الكامل]

للآس فضل بقائه ووفائه ... ودوام منظره على الأوقات

قامت على أغصانه ورقاته ... كنصول نبل جئن مؤتلفات

وأما الريحان، فقد آن نشر عرفه وحان، وقد ورد ذكره في القرآن، في قوله تعالى: ﴿روح وريحان﴾، وحسبك في شرف الحديث، المنوه فيه بالأمر الحثيث، عليكم بالمرزجوش فإنه جيد للجشام. وإنه نوع من أنواعه الجسام، وفيه منافع جلية في القوانين الطبية، ينفع لمن يشتكي أرقاً، أو مغصاً أو استسقاء[119]، ويحلل النفخ، ويفتح السدد، ويدفع الرطوبة والبرد، إذا عليه العليل اعتمد. وإذا مزج بالحنا وطلي به الرأس في الحمام، أذهب البخار والأوجاع على التمام، وإذا ضمد بشيء من خل الخمور، أبرأ من لسعة العقرب وقرص الزنبور، ودهنه ينفع في اختناق الرحم والانضمام، ويسكن وجع الظهر ويخرج مشيمة الأرحام، ويحلل من الاثنين[120] الورم ويفتح من الأذن الصمم، وقد أنشد الأصفهاني أبو سعيد فكان في التشبيه أحسن مجيد: [من الطويل]

وباقة ريحان كعقد زبرجد ... حوت منظراً للناظرين أنيقا

---

(116) - ا ورق

(117) - ا لشقاق

(118) - المرسين شجيرة دائمة الخضرة، تكثر في دول حوض البحر الأبيض المتوسط ويطلق عليها أسماء عديدة، أهمها: عشبة السكر، شجرة السكر، قمام، ريحان، آس، وفي دمشق تسمى الحنبلاس

(119) - ا استسقى

(120) - ا الانثيين

إذا شمه المعشوق خلت اخضراره ووجنته فيروزجاً وعقيقا

وقد أنشدني الأخ الشقيق مع بلاغة التشبيه، بمحاكاته لعذار المحبوب فاجاد فيه: [من الكامل]

انظر لريحان الرياض وحسنه واترك فديت ملامة العذّال

لو لم يكن من لطفه وذكائه إلا محاكاة العذارِ الحالي

وأما السوسن، بفتح السين والضم أحسن، فهو زينة الرياض والفراديس، المشبه بأذناب الطواويس. لونه يحاكي الذهب، مسدس الشكل ولا عجب، فقد ثبت له في قانون العلاج، منافع صرح بها صاحب المنهاج، وما له من هاج[121]، فشمه يقوي ضعيف الأنفاس، ويحلل الرياح من الرأس. ودهنه ينفع برد الدماغ طلا وسعوطاً بعد الاستفراغ، وإذا شرب منه خمسة دراهم بلا مراء، أسهل المرارة الصفراء، وقد ترنم بفياضه أبو نواس، وجاء فيه بالتشبيه على أبدع قياس: [من البسيط]

سقيا لأرض إذا ما نمت نبهني بعد الهدو بها صوت النواقيس

كأن سوسنها في كل شارقة على الميادين أذناب الطواويس

ونسج آخر على منواله، فأحسن وأجاد في مقاله:

وسوسن راق مرآه ومخبره وجل عن أعين النظار منظره

كأنه أكؤس البلور قد صبغت مسدسات تعالى الله مظهره

وأنشد البليغ ابن المعتز، حين تمايل غصنه واهتز: [من البسيط]

يا رب سوسنة قبلتها كلفا وما لها غير نشر المسك من ريق

مصفرة الوجه مُبَيضٌ جوانبها كأنها عاشقٌ في حجر معشوق

وأما المنثور، فأوان[122] عرفه منشور، وهو أنواع عديدة، ذو صفات حسنة حميدة، فأرفعها الذهبي الأصفر اللون، الحسن العرف في الكون، لأنه ضاع عرفه وفاح، في الغدو وفي الرواح، وأدناها الأبيض الأشهب، لعدم عرفه عنه يرغب، وأوسطها الخمري والبنفسجي والأكحل، فلا يفوح عرفه إلا بالليل الأليل، لأن في الليل خلوة العشاق، وراحة كل مشتاق، وغيبوبة الرقيب، وحضور الحبيب. وله عطرية غريبة ورائحة عجيبة، يشابه

---

[121] - ا منهاج.

[122] - ا فلم اعرفه

القرنفل المصعد بماء الورد، كأنما بينهما مواصلة وعهد، وقد ثبت له في الطيب فوائد جمة، أجتمعت[123] عليها كل حكاء الأمة. فشمه يحلل من الدماغ البلغم والرياح، ودهنه يسود الشعر ويصلحه غاية الإصلاح، وإذا شرب منه ثلاثة دراهم على التحقيق أدر الطمث وأخرج المشيمة بلا تعويق. وإذا أخذ من حبه مثقالان بالتمام، وتحمل به أخرج[124] الأجنة من الأرحام.

ودخل بعضهم روضاً ممطوراً، فأنشد حين رأى تبسم المنثور: [من الكامل]

دوح عليه من السماء ستور	ونسيم نشر الروض فيه يسير
نشر السحاب به بدائع وشيه	ببكائه فتضاحك المنثور

وأنشد عرقلةُ الدمشقي الشاعر المشهور، بين يدي شمس الدولة حين أحضر له[125] من المنثور: [من السريع]

قد أقبل المنثور يا سيدي	كالدر والياقوت في نظمه
نسيم أنفاسك من عطره	ورأس من عاداك مثل اسمه

وأما الأقحوان، فشرفه شائع عند الأخوان، وهو بالبابونج عند أهل مصر مشهور، وله عندهم خصوصية حديث فضلها مسطور[126]، يزعمون أن من قطعه بالذهب، يوم تاسع عشر الحمل يرى العجب، فلا يعدم الذهب بقية عامه، من جود مولاه وإنعامه. وفيه خصوصيات شريفة، يعرفها ذو الأمزجة اللطيفة، يسقط الأجنة ويفتح السدد، ويفتت الحصا حيث ما انعقد، وينفع من الاستسقاء والنفخ والسعال، والقراقر، ونفث الدم والربو المؤدي إلى أسوأ حال، وإذا طَلَيْتَ به الساقين حلل أورامها بلامين، وشربته إلى ثلاثة دراهم عن يقين، وفيه تصديع لكن يصلحه السكنجبين[127]، وحين ابتسم من ثغره الحالي الشنب، أنشد فيه بعض أهل الأدب، فلله دره من نبيه، لاختراعه هذا التشبيه: [من البسيط]

والأقحوانة هيفا وهي ضاحكة	من غير واضح ذي ظلم ولا شنب
كأنما شمسه من فضة حُرِست	خوف الوقوع بسُمَّارٍ من الذهب

---

(123) - ب اجمعت

(124) - ب اخرجت

(125) - ب شيء

(126) - ب مشهور

(127) - ا السلنجبين

وما إن لاح زهره وماس في الدوح، أنشد بعضهم بما ينعش النفس والروح: [من الطويل]

وقد لاح زهر الأقحوان كأنه ... يميس به خضر رقاق من القضب

رؤوس مسامير من التبر رُصِّعتْ ... دوائرُها أضوا من اللؤلؤ الرطب

وأما الجلنار، فكم أهاج في القلب الشجي جلنار، المشبه به خدود القيان، ووجنات وجوه الحسان، فإذا هي في الوجنات والخدود، بشر المحب برمان النهود، وقد أنشد بن خلوف وهو بزورته حبيبه مشغوف. حين احمرت وجنتاه، وترفع على عشاقه وتاه: [من الوافر]

أرانا الوردَ في حمر الخدود ... وقد حُمِلَتْ بأنات القدود

ولاح الجلنار بوجنتيه ... فبشرنا برمان النهود

وله فضل في الطب محمود، نبه عليه بتذكرته داود، أن يحبس الدم ويقطع الإسهال، ويذهب الحكة والجرب والنار الفارسي بلا محال، وإذا دلك به البدن دفع الصنان وطيب العرق، وشدّ مسترخا الأعضاء بحق، ومع الخل يشد اللثة وينفع الأسنان، ويذهب قروح الفم من الإنسان، ولحسن شكله ولونه الباهر، أنشد فيه اللبيب بن عبد الظاهر: [من السريع]

كأنما الجلنار حين بدا ... مفتحاً في زبرجد القضب

كوز عقيق مشرف حسن ... قد أودعوه برادة الذهب

وقد أنشد الأخ السعيد النبيه، مشيراً إليه مع حسن التشبيه: [من الطويل]

وما أحمر ذاك الجفن من لحظ شاذن ... سقاماً فيقضي في الهوى باتضاعه

ولكن صفا ماء الجمال بخدّه ... فألقى على الأجفان لون شعاعه

به جلنار العشق في شرعة الهوى ... ويحلو من التشبيه حسن اختراعه

وأما شقائق النعمان، فقد حماها ابن المنذر وصان، لنضرة بهجته، ورونق حمرته، وإنه وإن لم يكن له في العرف زكا[128] فقد حاكى في الحسن ابن زكا[129]، فكم ترنم شاعر بذكره، ورفع له في موكب الزهر راية نصره، فلله در الشاعر النبيه، حيث يقول فيه: [من الكامل]

---

(128) - ا ذكا.

(129) - ب زكى.

هــذا الــشقائق قــد أتانــا زائــراً　　مــن بعــد غيبتــه وطــول مــزاره

وكـــأن أحمـــره وأســـوده معـــاً　　خــد الحبيــب ملاصــقاً لعــذاره

ولقد بالغ وتفنن، من أنشد فيه فأحسن: [من البسيط]

حمـراء مـن صَـنْعة البـاري وقدرتـه　　مــصقولة لم ينلــها قــط صــقال

كأنمــا وجنـــاتٌ أريـــعٌ جُمِعَـــتْ　　وكـــل واحـــدة في وســـطها خـــالي

وحسبك ما فيه لذة للسمع وشفاء، ما أنشده العلاّمة الدماميني من بديع الاكتفاء: [من السريع]

شـــقائق النعمـــان ألهـــو بهـــا　　إذا غــاب مــن أهــوى وعــز اللقــا

والقـــرب بالخـــد نعيمـــي وإن　　غـــاب فـــإني اكتفـــي بالـــشقا

وصاغ الصاحب بن عباد، حلياً من الزهور فأجاد: [من الطويل]

يــصوغ لنــا كــف الربيــع حــدائقاً　　كعقــد عقيــق بــين سمــط لآلي

وفــيهن أنــواع الــشقائق اشــتبهت　　خــدود عــذارى نقطــت بغــوالي

وأما الفاغية، المفضلة على الرياحين الزاهية، فقد ثبت لها عليهم[130]، السلطنة وأقيم على ذلك الدلائل المبرهنة. فقد روى البيهقي عن عمر مرفوعاً للحضرة السامية، سيد رياحين الدنيا والآخرة الفاغية. وروى البزار المنعقد على فضله الإجماع، حديث اختضبوا بالحنا فإنه يزيد في شبابكم ونكاحكم يعني الجماع. وتسمى أيضاً بالتمرحنة[131]، لأن شجرتها حنت على آدم حين أخرج من الجنة، ومن منافعه المشهورة، الذي في كتب الطب مسطورة، أن شمه ينفع من الصداع، وأوجاع الجنب والطحال، وإذا وضع في ثياب الصوف، منع فسادها بكل حال. ودهنه يلين العصب ويحلل الإعياء والنصب. ويوافق الخناق وكسر العظام والشوصة وأوجاع الأورام. وإذا خضب بالحنا رجل مجدور، حصل له أمان من المحذور، وإذا شرب بزرها بمثقال من العسل، نفع الدماغ وأذهب الكسل.

ولما أن زهت بروضها الخصيب، أنشد فيها الشاعر الأديب: [من البسيط]

---

(130) - أ عليم

(131) ب بالتمر حنا.

كأنما دوحة[132] الحنا إذا فتحت ... أنوارها وبدت في عين مرتقب

عروس حسن تجلت في غلائلها ... خضراء قد حُلِيَتْ باللؤلؤ الرطب

ولما اكتسب النسيم من طي طيبها نشراً، ومر فعبق الأرجاء شذاً وعطراً، وانتشق الأديب من ريّا عبيرها المعطار، أنشد في محاسنها رقائق الأشعار: [من البسيط]

رأيت في السمرة الحناء ذا عجب ... قد جاء في طيبها أنفاس خمار

إن مرت الريح بين الدوح تحسبها ... من طيب نكهتها مرت بعطار

ولما عبق دوح مجلسنا بنشر عبير الأزهار، وتروحت النفس بما ورد فيها من الآثار، سنح للخاطر الفاتر أن ينشئ قصيداً على حسن الأزهار قاصر، يهيج النفوس بحسن الطرب، ويحلي[133] الكؤوس بتاج الحبب: [من البسيط]

انظر إلى الدوح قد فاحت أزاهره ... عن مسك دارين روّتنا معاطره

يميس من بهجة الأزهار في حلل ... لما تجلت بتشبيه أزاهره

فالورد وجنة معشوق به ضرج ... حيث السوالف ما يبديه ظاهره

والنرجس الغض أجفان مضاعفة ... لنحو زهر الربا ترنو محاجره

والياسمين خطيب بالرياض على ... قضب الزمرد ترقيه منابره

والبان حاكى بنان الخود إذ خطرت ... تشير نحو الذي تهوى تسارره

نسرينه العبق الزاهي بنضرته ... شكلاً لحق لجين فاح عاطره

وذا البنفسج أثواب قد انغمست ... في اللازورد فلا صبغ يناظره

زهر اللينوفر يحكي الزهر في فلك ... لكنه ثابت في المسير سائره

والآس لام عذاراً خطها قلمٌ ... بها ابنُ مقلةَ ما جادت محابره

ريحان ذا الروض يحكي في تنظمه ... عقد الزبرجد لا يخفاك باهره

كان كأساً من البلور سوسنها ... مسدس الشكل منقوش دوائره

والروض منثوره مدت أصابعه ... يدعو على الورد أذوافاً يفاخره

---

(132) - ب دوحت

(133) - ا يحكي

والأقحوان ثغور طالما ابتسمت — لما بكى من سحاب المزن ناظره
والجلنار كأكواب العقيق بها — نثار تبر أجاد النثرَ ناثره
وذا الشقيق خدود للحسان بها — خال من المسك قد عمت عواطره
واللؤلؤ الرطب ما هدته فاغية — أو الحبان الذي تزهو نواظره
فاسعى له وانتشق سوامع لطيب عنا[134] — فقد ترنم فوق الأيك طائره
واغنم زمان ربيع بالزهور أتى — مخلقاً تملأ الدنيا بشائره
ولا تضع فرصة مهما ظفرت بها — واصغي لمن قال والممدوح ناصره
خذ من زمانك ما أعطاك مغتنماً — وأنت ناهٍ لهذا الدهر آمرُهُ

ولما فاح عرف تمام هذه المقامة الزَّهرية، ولاح ضياء سناء نجومها الزُّهرية، وتجلت بمنصات الابتهاج، وبدا لامع حسنها الوهّاج، صبا الطالب لجمالها، وطلب الراغب في كمالها، واستجلى طيب مواردها، واستحلى حسن مشاهدها، وقال: ما على هذا الحسن منه مزيد، والله على ما أقول شهيد، ثم شدا بها صادحاً، وأنشد لها مادحاً: [من الكامل]

لله در مقامة زهرية — قد عطرت أدواحنا من نشرها
وغدت بمسند حسنها وكمالها — تروي أحاديث الهنا عن بشرها

وهنا وقفت عند حدها الأقلام، لما طبعت المقامة بمسك الختام. ثم تثنيت العزم لزيارة ما بها من المشاهد، التي ينجح بها القصد وتطيب منها الموارد.

فمنها البشير الذي بشر يعقوب بولده يوسف عليما السلام، والدار قطني أحد أئمة السنة الحافظ الإمام، وسيدي علي بن مروان ذي الكرامات الظاهرة، والشيخ أبو العزم صاحب الإمدادات الباهرة، والشيخ أكرم المولى الهمام، وسيدنا هاشم جد نبينا عليه الصلاة والسلام، ومحل مولد نبي الله سليمان بن داوود الملك العظيم، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وحيث ولد إمامنا الشافعي ابن إدريس، صاحب المقام السامي والعلم النفيس، وبه قبر والدته وأخته والشيخ عطية، عليهم الرحمة والرضوان والتحية.

ومآثر خلاف ذلك يطول مختصر شرحها، وتهدي الزائر إليها بطيب نفحها، فتباركنا[135] بتلك الآثار، ورجونا إمداد أولئك الأخيار، وسرنا نتأمل في مشارعها، ونتملى

---

[134] - هذا الشطر غير قابل للوزن لأن فيه خطا او تصحيف في النسخ
[135] - ا فتبركنا.

برؤية جوامعها، ولاسيما جامعها الذي هو للمحاسن جامع، وفلك حسنها الذي به قمر المسرة طالع.

فرأيت غالب البلدة خراب، من ظلم الأمراء وتحكم لمط [؟] الأعراب.

فرحلت عنها لهفاً، وأنشدت أقول وا أسفاً: [من البسيط]

يا ويح غزة مذ أوهت مرابعُها ... إلى الحضيض وقد ناحت مواجعها

كانت معاهدها للأنس جامعة ... من كل معنى سما[136] والحسن جامعها

فأصبحت من سطى الأعراب خاوية ... على العروش مخيفات بلاقعها

فقل لعينيك تبكي عندها أسفاً ... يحق للعين أن تهمي مدامعها

وقل لقلبك يبدي من تلهفه ... إن البروق دجى[137] تخفي لوامعها

واستنجد الصبر إن ودعتها سحراً ... فللنفوس جوىً ممن يودعها

خان سدود

فسرينا منها يوم السبت وقت الصبح بسلام، وهو الثامن عشر من ذي القعدة الحرام[138]، قاصدين خان سدود[139]، لننهل من منهله المورود، فمازلنا بين نغمات أطيار، ونفحات معطرات الأزهار، تستلذ بمحاسنها النفس، وتتنعم بها الحواس الخمس، فوصلنا إلى ذلك الخان، وكان وقت العصر قد حان، فبادرت إلى أداء الصلاة الوسطى، وشددت لزيارة سيدي إبراهيم المتبولي مرطا[140]، لأن ضريحه من الخان ذو اقتراب، وعليه من المهابة والجلال جلباب، فوقفت خاضعاً على أبوابه، لائذاً برفيع[141] جنابه، وحيث تفيأت بظله الظليل، وطاب لي بذلك المقيل، أنشدت بلسان التوسل، مع حسن الأدب والتبتل:

بسدود وادي القدس طاب نزولي ... فيها ضريح العارف المتبولي

---

(136) - ب سمى

(137) - ا دجا.

(138) - 25 ايار 1731م

(139) - وتكتب اسدود، ذكرها الجغرافي ابن خرداذبه في كتابه (المسالك والممالك) في مطلع القرن الثالث الهجري باسم ازدود، وقال إنها محطة بريد بين الرملة وغزة ومر بها السلطان المملوكي قايتباي في طريقه إلى دمشق في سنة 1477. في سنة 1596 كانت اسدود قرية في ناحية غزة، وكان عدد سكانها 413 نسمة

(140) - المرطى هي السرعة، ومرطاً اي بسرعة

(141) - ساقطة من ا

عقبت لي النفحات من أرجائه | متمسكاً من طيبه بذيول
كم قد نشرت إليه مطويّ الفلا | وطويت نشر الطيب غبّ وصولي
وكحلت عيني من ثرى أعتابه | ولثمتها بالجفن عند دخولي
ودخلت للحرم الشريف فإنه | كمقام إبراهيم في التمثيل
ووقفت وقفة خاضع متذلل | أرجو الوصول وبُلْغَةَ المأمول
فاسمح لأسعد مذ وفاك بلحظة | وامنحه بالإسعاف والتفضيل

قال الشرف المناوي[142] في طبقاته في ترجمته: هو إبراهيم بن علي بن عمر الأنصاري المتبولي الأحمدي الصوفي الخبير، الناقد البصير، كان ذا معرفة تامة بالتربية مع كونه أمياً، وعقل راجح وتمكن قوي من نفسه حتى لا تحكم عليه الأعراض النفسانية.

وكان يجعل القرآن إمامه، لم يلزمه غسل قط لا من احتلام ولا من جنابة. أخذ عن الشيخ يوسف البرلسي الأحمدي، وفتح عليه في سطح[143] جامع الظاهر، وكان مبتلىً بالإنكار عليه[144] لكونه لم يتزوج، وكان كثير العطب لمن يؤذيه أو ينكر عليه، وكان كثير التعبد لا يفتر ليلاً ولا نهاراً، وبه مرض الحصا وعسر البول، وكان يجعر كالثور ويقول: يا رب لا أسألك تحويل ما بي أردته، ولكن أسألك اللطف فيه. وكان يصلي المغرب كل ليلة بمكة، والظهر بالجامع الأبيض برملة لد.

وقال: يقال في المثل نظف القناة تجري المياه، وكذا الفقير إذا نظف قلبه من مكروهات الحق تعالى جري ماء الإيمان في قلبه جداول. وكان إذا رأى أنف إنسان عرف كل ما هو مرتكبه من الفواحش. ورماه أهل بيت من متبول باللواط بأولادهم، فقال هتك الله ذراريهم، فصار أولادهم مخانيث وبناتهم زناة. وكان يقول لأصحابه: من أدرك النصف الثاني من القرن العاشر، فلا يشدد في إزالة منكرات الولاة، إلا إن كان له نصير يعضده، أو

---

(142) - يحيى بن محمد بن محمد بن محمد بن احمد بن مخلوف، شرف الدين ابو زكريا المُناوي القاهري المصري [798. 871 هـ) ونشا بالقاهرة وحفظ القرآن وبعض كتب الشافعية والنحو واشتهر بمعرفة المذهب الشافعي، ودرّس بالأزهر فقصده الطلبة، وولي القضاء بالديار المصريّة. اخذ عنه: الشمس السخاوي، والجلال السيوطي. وصنّف كتباً، منها: شرح «مختصر» المزني في الفقه، حاشية على «شرح البهجة الوردية» في الفقه لشيخه ولي الدين احمد بن عبد الرحيم العراقي، حاشية على «الروض الأنف» في السيرة للسهيلي، تلخيص «بذل الماعون في الطاعون» لابن حجر العسقلاني، والفتاوي جمعها سبطه زين العابدين المناوي.

(143) - ساقطة من ب

(144) - ساقطة من ا.

حال يحميه. وقد قتل خلق كثير ونفوا بإنكارهم على الولاة بدون ذلك. وقال لا ينبغي لفقير أن يظهر كرامة إلا بقدر حماية أصحابه، وإن من لا كرامة له لا يحمي له صاحب خرج إلى القدس. فمات في الطريق فدفن بسدود عند سلمان الفارسي سنة ست وثمانين وثمانمائة[145] عن نحو ثمانين سنة كما جزم به بعضهم، لكن في الأخلاق المبتولية أنه عاش مائة وتسع سنين رضي الله تعالى عنه. انتهى

وسيأتي أن سلمان الفارسي مدفون بطور زيتا[146]، قريباً من رابعة العدوية، وسنذكر ترجمتها إن شاء الله تعالى قريباً[147].

يبنى

ولما ذهب ثلثا الليل بتعيين، سرينا قاصدين برملة فلسطين، ومررنا على قرية يبنى[148] وقت الفجر، وصلينا عندها الصبح وسرينا على ظهر. وليس المدفون فيها هو أبو هريرة الصحابي المشهور، وإنما هو بعض ولده كما في الكتب مسطور. وأبو هريرة هو بالبقيع مدفون، سقا ضريحه الوابل الهتون.

الرملة

فوصلنا الرملة[149] ضحوة النهار، وقد لاح من جامعها الأبيض مشارق الأنوار، فانشرح الصدور برؤياها، وانتعشت الروح بطيب حسنها ورياها.

فنزلنا عند صديقنا السيد عبد الله نخلة، فقابلنا بمزيد الإكرام أكرمه الله ورفع محله. وطاب لي بذلك المنزل السامي المقام، وعندما وصلت الظهر بعد انتباهي من المنام، طلبت منه أن يوقفني على مآثرها المشهورة، ويمتع نظري بمشاهدة مشاهدها المأثورة.

---

[145] - 1481 م

[146] - اي جبل الزيتون وهي الصيغة الأرامية للاسم

[147] - ساقطة من ا.

[148] يبنا أو يبنة او يبنى، عرفت في الحقبة الرومانية باسم يمنيا، واسماها الصليبيون الإفرنج باسم إيبلين هدمها المكابيون واحرقوا ميناءها عام 156 ق‌م كان اكبر من ميناء يافا واعاد بناءها غابينوس الروماني، فتحها عمرو بن العاص في خلافة ابي بكر الصديق.

[149] - بناها الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك عام 715هـ وجعلهامقر خلافته والرملة ذات ميزة تجارية وحربية إذ تعد الممر الذي يصل يافا الساحلية بالقدس الجبلية، وتصل شمال السهل الساحلي بجنوبه وقد بقيت الرملة عاصمة لفلسطين نحو 400 سنة إلى ان احتلها الفرنجة عام 1099هـ

فأول ما بدأنا بزيارة جامعها الأبيض الأنيق، فأذكرني بمرآه الحرم الأسني والبيت العتيق. فصليت ببقعته البيضاء صلاة العصر، على وجه الإتمام دون القصر، وبصحنه مغارة بها عدة من الأنبياء والشهداء الكرام، وقريباً منها في صدر الجامع الغربي مغارة بها النبي صالح عليه السلام. فقرأت ما تيسر بحسب الاستعداد، ودعوت الله تعالى راجياً منه حسن الإمداد.

تذييل :

سيدنا صالح عليه السلام نبي بين نوح وابراهيم خليل الملك العلام، أرسله الله تعالى[150] إلى ثمود. وكان مسكنهم بالحجر بين المدينة الشريفة والشام. فلم يؤمن إلا قليل مستضعفون، ثم إن كبارهم عاهدوه على أنه إن أتى بما يقترحونه آمنوا به، فاقترحوا عليه أن يخرج من صخرة ناقة.

فسأل الله تعالى في ذلك، فخرج من تلك الصخرة ناقة وولدت فصيلاً، فلم يؤمنوا وعقروا الناقة، فأهلكهم الله تعالى بعد ثلاثة أيام بصيحة من السماء، فيها صوت كل صاعقة، فتقطعت قلوبهم فأصبحوا في دارهم جاثمين فسار صالح إلى فلسطين، ثم انتقل إلى الحجر يعبد الله إلى أن مات وهو ابن ثمان وخمسين سنة.

روي أنه توفي بفلسطين، وأن قبره بالمغارة التي بالجامع الأبيض بالرملة. انتهى [من الطويل]

فلسطين منها العرف كالمسك فائح	ففيها نبي الله ذو الهدي صالح
مقام عليه للنبوة رونق	يلوح على السارين[151] منه لوائح
سقى روضه المخضلُ وكف غمايم	يسح عليه منه غاد ورائح
وقفت لديه أبتغي من نواله	عواطف منها أسعد المدح ناجح[152]
عليه صلاة الله ما هبت الصبا	وما قد شدا في منبر الدوح صايح

وبالمسجد المذكور منارة عجيبة ظريفة في الشكل غريبة لم ير السيأح[153] مثلها، ولا

---

[150] - ساقطة من ا.

[151] - ب الصراين

[152] - البيت ساقط من ب

[153] - ا و ب السواح

حسن صناعتها وشكلها، وكأنما فرغ المعمار الآن من بنائها، لحسن بهجتها مع قدم إنشائها، وهي من بناء الملك الناصر محمد قلاوون، سقى ضريحه وابل السحب الهتون.

قال صاحب أنس الجليل[154] في صفة الرملة وفضلها، ما لخصه من غير تطويل ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[155] فلسطين والأردن، أي نهر الشريعة. وقال سعيد بن المسيب في قوله تعالى ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[156] قيل هي الرملة، وهي، أي الرملة، واسطة بلد فلسطين، فإنها في أرض سهلة، وهي كثيرة الأشجار والنخيل، وحولها كثير من المزارع والمغارس، وفيها أنواع الفواكه، وظاهرها حسن المنظر، وهي من جملة الثغور، فإن البحر الملح[157] قريب منها بنحو نصف بريد من جهة المغرب.

وكان لها سور محيط بها وقلعة واثنا عشر باباً، وكان حولها أربعة آلاف ضيعة. وقد هدم السلطان صلاح الدين قلعتها وقلعة لد في سنة سبع وثمانين وخمسمائة[158].

وأما في عصرنا أعني سنة تسعمائة[159] لم يبق أثر لتلك الأسوار والأوصاف لاستيلاء الإفرنج عليها نحو مائة سنة، ولم يبق من المدينة ثلثها ولا ربعها، وبني فيها مساجد مستجدة في أيام السلطان صلاح الدين الناصر محمد بن قلاوون، وقد صار المسجد القديم بظاهر المدينة من جهة الغرب، وقد بنى فيه الملك الناصر المذكور منارة من عجائب الزمان في الهيئة والعلو سنة ثمانية عشر وسبعمائة[160].

حكى المسافرون أنها من المفردات، ليس لها نظير، ولم يبق حول الجامع من الأبنية القديمة سوى حارة بجواره من جهة الشمال حكم القرى، وإن المدينة يومئذ تقهقرت ونقصت جداً، وقل ساكنها، ومع ذلك فهي مقصودة بالبيع والشراء، ولا يخلو من بركة في معيشتها لبركة أرضها وسكانها من الأنبياء والصحابة والعلماء والأولياء.

فهذا[161] في زمنه سنة تسعمائة، فما بالك الآن، فلم يبق من تلك المحاسن إلا

---

[154] - الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل تأليف مجير الدين الحنبلي العليمي

[155] - سورة الاسراء، الآية 1.

[156] - سورة الذاريات، الآية 51.

[157] - ا المالح

[158] - 1191 م

[159] - 1495 م

[160] - 1316 م

[161] - ب فهذه

الآثار وغالب أهلها تخطفتهم أيدي الأقطار، لكن بركتها باقية على الدوام، يدرك ذلك الخاص والعام. فمن بيانه من حل بناديها، ودفن بروضة واديها، الزكي الأصل والأنفاس، سيدنا الفضل بن العباس، مقامه في روضة ذات أفنان، يفوح شذاها بروح وريحان، وهو الفضل بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي المدني ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، ورديفه في حجة الوداع، وهو الذي غسل النبي صلى الله عليه وسلم حين وفاته.

روى عنه أخوه عبد الله، وابن أخيه عباس بن عبيد الله، وابن عمه ربيعة بن الحارث، وأبو هريرة وغيرهم، وهو أكبر ولد العباس استشهد في طاعون عمواس بالرملة سنة ثمانيَ عشرة من الهجرة.

وردت حماهُ أتَرجَّى أرَبا، وعلى الكريم حق الضيافة قد وجبا: [من البسيط]

يمم فلسطين وانظر حسن معهدها	فالفضل قد حلها بشرى لمن وفدا
له مقام به الأنوار ساطعة	تجلو العيون فلا تشكو إذا رمدا
مقامه حرم فيها ومحترم	عن حسن محتده يروي لنا سندا
لا غرو وهو ابن عم المصطفى نسبا	على علاه لواء المجد قد عقدا
عند الحديث روى صحب لعمدته	مثل ابن عباس صنو الفضل معتمدا
في غزوة صحب الفاروق محتسباً	بشراه بشرى تواخى زمرة الشهدا
فكان بالرملة الفيحاء مشهده	سامي الذرى والعلا طوبى لمن شهدا
به استغث وتوسل واعتمده تجد	نجح المقاصد والإسعاف والمددا
سحّت على سوحه السامي فيوض رضا	ما زائر لرحاب القدس قد قصدا

ويشرقي المسجد الأبيض غير بعيد، قبر الإمام المحدث ابن[162] رحيم أبي سعيد، وقريب منه ضريح الإمام الحافظ النسائي صاحب السنن، ويمقابله ضريح الشيخ أبي حجلة وهو الولي المؤتمن.

وهناك مقام يقصد لنجح المطالب، يقال له مشهد الإمام علي بن أبي طالب. ويقربه مسجد لطيف الشكل والكون، به مقاما[163] السطوحي والشيخ أبي العون، وبإزائه

---

[162] - ا و ب بن.

[163] - ا مقام

ضريح الشيخ العلمي صاحب الأسرار، عليه لوائح السنا وبوارق الأنوار. وبالمدينة عدة مزارات لسادة أنجاب، قد وردت الآثار بأن الدعاء عندهم مستجاب، كالشيخ البطائحي والشيخ محمد العدوي بحارة العنابة[164]، والشيخ أحمد الأشموني والشيخ موسى القبي ذوي الإنابة.

وثم جماعة صحابة وأولياء كانت ضرائحهم مشهورة، درست معالمها ولكن أخبارها في الكتب مسطورة. ثم لما وقفنا بهاتيك الأبواب، ومرغنا خدودنا على ثرى تلك الأعتاب، قرأنا ما تيسر من القرآن، ورجونا من الله تعالى حصول الغفران، واستمدينا منهم حصول المدد، واتخذنا منهم عدة عند الشدائد إذا فقدت العدد. وصرت أتأمل في تلك المدينة وشوارعها، وانظر إلى قصور قصورها، واندراس مدارسها وجوامعها، فتنفست تنفس الصعداء من الحرق، وأنشدت عند ذلك مقتصداً[165] والقلب في قلق:

[من البسيط]

قفا على الرملة العا في[166] معالمها ثم ابكيا طللاً منها وآثارا

محت محاسنها مر السنين بها وكم روينا لها في الكتب أخبارا

حوت مشاهد للوراد شارقة كم أتحفت سائحاً منها وزوارا

قد حل ساحتها العباد واقتبسوا من طور سينا سنا التقديس أنوارا

زاروا مآثرها اللاتي قد اشتهرت وأنبيا وأصحاباً وأخيارا

ومذ أنخت بها نجب المسير ضحى مستنشقاً من شذاها الذر معطارا

روحت روحي برؤياها ومنظرها وقد شهدت بها للأنس آثارا

بهم وقفت عسى ألقى بهم مددا وقد جعلتهم في الحشر أنصارا

عليهم من رضى الرحمن غادية يسح منها سحاب المزن مدرارا

ثم أننا بتنا ليلة الاثنين، بمنزل صديقنا السيد عبد الله قرة العين، بدوح أنس لاح به السرور، وكؤوس المسامرة فيما بيننا تدور، إلى [أن] لمع ضوء الصباح. وظهر لنا ضياء الشمس ولاح.

---

[164] - ا العناية

[165] - ساقطة في ب

[166] - ب القاني

يافا

سرنا مع رفقة أعزاء سالمين من النفار[167]، فوصلنا إلى أسكلة[168] يافا ضحوة النهار، فتلقانا شريكنا وحبيبنا سيدي أحمد النجار، لازالت عواقبه بفعل الجميل تحمد بالعشي والإبكار. وجعل ذلك اليوم ثالث العيدين، وأبدى لنا حسن المسرة والبشر بلامين، وقد زال عني ما لقيته من النَصَب، وهزني لرؤيته أريج رياضها داعي الطرب، مذ تجلت علينا بحسنها البديع، وكان ذلك أوان فصل الربيع. [من البسيط]

وافيت يافا وزهر الروض مبتسم ... وللطيور على العيدان نغمات

وكم قضيت بها والصحب من تفث ... وقد حَلَتْ لي وكم مرت أويقات

بها اقتبست بطور القلب نور هدى ... كأنها لكليم القلب ميقات

ويافا بلدة ظريفة على ساحل البحر، وهي إسكلة للرملة والقدس ونابلس ونواحيها، بظاهرها بساتين ذات أشجار، وفواكه وأزهار، فمازلت أردد طرف الطرف في رياضها الأنيقة، وأروح الروح بلثم ثغور زهورها[169] العبيقة إلى أن وصلت الجمعة بجامعها اللطيف، وورد الإذن بالسير إلى القدس الشريف. [من الكامل]

جاء البشير مبشراً بمسيري ... نحو الحمى لأفوز بالأسعاد

فثنيت طرف العزم غير مقصّر ... وغدوت أنشد سر بنا يا حادي

فعزمت على المسير في الوقت والحين، وقصدت رملة فلسطين مع رفيقين رفيقين، وشقيقين شفيقين، فامتطينا متون خيل عتاق، وسرنا نتجارى بهم في حلبة السباق، فتذكرت أبياتاً في هذا المعنى، يطربن السامع ولو من دون مغنى:

ربّ طرف من العتاق كريم ... يسبق البرق حالة الإيماض

لو سرى والجنوب في الجو يسري ... علّم الريح كيف قطع الأراضي

أو سرى مع دعاء آصف بالعر ... ش لكان البشير بالأغراض

ولله در القصار حيث يقول، في أدهم اللون ذي حجول: [من مخلع البسيط]

---

[167] - ا النقار.

[168] - مفردة إيطالية الأصل تعني موانئ الشرق [scala] ومعناها الحرفي السلم، وقد دخلت إلى العربية عن طريق الاحتكاك بالتجار الجنويين والبنادقة الايطاليين، واصبحت تعني الميناء، كما انها تعني السلم في العامية الشامية والمصرية [السقالة].

[169] - ا ثغورها.

وأدهـــم اللـــون ذي حجـــول	قـــد عقـــد صـــبحه بليلـــه
كأنمـــا الـــبرق خـــاف منـــه	فجـــاء مستمـــسكاً بذيلـــه

ومررنا على سيدي حيدرة[170] بقرية يازور[171]، وسيدنا لقمان بصرفند[172] على ما هو مشهور.

تتميم:

هو لقمان بن باعور[173] بن تارخ، وهو آزر، وقيل كان ابن أخت أيوب أو ابن خالته، وكان قاضياً في بني إسرائيل، واتفق العلماء على أنه كان حكيماً لا نبيّاً، خلافاً لما تفرد به عكرمة من القول بنبوته.

روي أنه خُيّر بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة. وروي أنه كان نائماً نصف النهار فنودي يا لقمان! هل لك أن يجعلك الله خليفة في أرضه فتحكم بين الناس بالحق. فأجاب الصوت إن خيّرني ربي قبلت العافية ولم أقبل البلاء. وإن عزم عليّ فسمعاً وطاعة فإني أعلم إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني. فقالت الملائكة بصوت لا يراه: لم يا لقمان؟ قال لأن الحاكم باشر المنازل وأكدرها، يغشاه الظلم من كل مكان، إن يعن فبالحري أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة. ومن يكون ذليلاً خير من أن يكون شريفاً ومن يختر الدنيا على الآخرة تَفْتِنْه الدنيا ولا يصيب الآخرة.

فتعجبت الملائكة من حسن منطقه، فنام نومة فأعطي الحكمة، فانتبه وهو يتكلم بها.

قال وهب[174]: تكلم لقمان باثني عشر ألف كلمة من الحكمة، أدخلها للناس في كلامهم وقضاياهم. ومن حكمته:

---

(170) - ا حيدة

(171) - قرية قديمة مذكورة في المصادر التاريخية القديمة والوسيطة، تقع في ظاهر يافا الشرقي إلى الجنوب من مصب نهر العوجا بحوالي 7 كيلو مترات وعلى بعد 60 كيلو متر شمال غرب القدس

(172) - ثمة اكثر من قرية بهذا الاسم في فلسطين واحدة في جنوب حيفا واثنتان قرب الرملة وهما المعنيتان في هذه الرحلة فالأولى صرفند العمار، وهي البلدة الأصلية التي كانت تعرف بـ(صرفند الكبرى) وسميت بالعمار لتميزها عن (الخراب)، تقع في الشمال الغربي من الرملة على الطريق العام بينها وبين يافا، وعلى مسيرة ثلاثة كيلو مترات عن الرملة اما صرفند الخراب، فهي قرية تقع على بعد ستة كيلو مترات غرب الرملة، وعلى بعد 3 كيلو مترات جنوب غرب صرفند العمار، سميت بالخراب لأن الإنجليز احرقوها في العشرينيات

(173) - بن ناخور [ناصور] ناقصة في ا.

(174) - هو وهب بن منبه بن كامل بن سيج، ابو عبد الله الصنعاني ويقال: الذماري وذمار من صنعاء سيج، وكان مولده في زمن عثمان سنة أربع وثلاثين للهجرة، وعده أصحاب السير من الطبقة الثالثة من التابعين

قال خالد الربعي: كان لقمان عبداً حبشياً فدفع إليه مولاه شاة وقال اذبحها وأتني بأطيب مضغتين منها، فأتاه بالقلب واللسان ثم دفع له شاة أخرى وقال اذبحها وأتني بأخبث مضغتين منها، فأتاه باللسان والقلب. فسأله مولاه، فقال ليس شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا.

وروي أنه كان نجاراً، وقيل خياطاً، وقيل راعي غنم. وروي أنه لقيه رجل وهو يتكلم بالحكمة، فقال ألست فلاناً الراعي فيم بلغت ما بلغت؟ قال: بصدق الحديث وأداء الأمانة وترك ما لا يعنيني. انتهى

وعاب إنسان صورته فقال أتعيب النقش أو النقاش. ومن حكمته قوله لابنه: يا بني إنك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها، واستقبلت الآخرة، فأنت إلى دار تقرب منها أقرب إلى دار تبعد عنها. يا بني بع دنياك بآخرتك تربحهما، ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعاً، يا بني لا تحقرن أحد الخلقان ثوبه، فإن ربك وربه واحد. ولما أن شاهدت ذلك الرحاب، أنشدت موجهاً وجهي لهذا الجناب: [من البسيط]

قد لاح لي من حما لقمان أنوار	وفاح من دوحه المخضل أزهار
كأنها الروضة الغناء زركشها	من راحة الوابل الهتان نوار
من أوتي الحكمة الغراء مبتهجاً	مواعظاً وهي بالتحقيق أسرار
من كل موعظة قد ضمنت حكماً	قد أنبأتنا بها آيٌ وأخبار
فاسع إلى سوحه السامي فإن به	لوائح الفيض وهو البحر زخار
ترى به حرما بالآمن محترماً	وكعبة كم بها قد طاف أبرار
حلوا بساحته الفيحاء فانكشفت	لديهم من خفايا الغيب أستار
وقام فيهم لسان الحال ينشدهم	من السعادة أن لا تبعد الدار
عليه من رحمة الرحمن غادية	ما إن حدت نحوه بالعيس زوار

الرملة مرة أخرى

فوصلنا إلى الرملة قريب الغروب، ونزلنا عند السيد عبد الله المحب المحبوب.. والمسافة بين يافا والرملة أربع ساعات عداد، وذلك بسير الصافنات الجياد، وبتنا تلك الليلة بذلك المنزل الرحيب، نقتطف زهور المسامرة بالروض الخصيب، إلى أن لاح ضوء

الصباح، وحيعل[175] المؤذن بالفلاح، فبادرنا إلى صلاة الصبح بلا توانٍ، وأشفعناها بالأذكار وأوترناها بالسبع المثاني. وحين طلعت الشمس وعم ضياؤها الآفاق، امتطينا متون الكرائم العتاق، وسرنا نقطع تلك المهامة الصعبة المرقبة، إلى أن أتينا قرية قليونة[176] وصعدنا العقبة، فأنشدت مضمناً بيت الحافظ العسقلاني[177]، سحّت على قبره سحب الرضوان والتهاني: [من الوافر]

ولما أن دعانا الشوق يوماً	وحرك لاعج الود القديم
قطعنا في محبتكم عقاباً[178]	وما بعد العقاب سوى النعيم

مشارف القدس

فلاحت لنا مشارق الأنوار، وبشرت الزائر بقرب المزار، وفاح عرف نسيمها من جانب الربا، فتمايل المشوق شوقاً وطربا، وأنشد لساني التهاني، ببلوغ المنى ونيل الأماني: [من البسيط]

بشراك بشراك وادي القدس قد لاحا	ووطيى نشر الشذا من دوحه فاحا
ولاح من طوره الأسنى ضياء سنا	يهدي الهدى لكليم الروح إذ لاحا
وأشرقت من سما الصخرا[179] بوارقها	تروي حديث الشفا للسر إيضاحا
وطاب بالمسجد الأقصى مظاهره	وِرْداً لتتحف زوارا وسيّاحاً[180]
نصّاً تشد رحال السائرين له	ليقرؤوا من سطور الفيض ألواحا
ناهيك من قبة المعراج حيث روت	معاهداً أذكرتنا العهد إفصاحا
إذ ذكرت ليلة الإسرا[181] وقد جمعت	أولى النبوة والأملاك أشباحا
صلى إماماً بهم إذ كان أحمدهم	طه الرسول فحاز الحمد إمناحا

---

(175) - اي قال حي على الصلاة حي على الفلاح.

(176) - خطأ في الكتابة، وهي قرية قالونية التي تبعد عن القدس خمسة كيلومترات وتقع على طريق القدس يافا.

(177) هو احمد بن علي بن محمد بن علي بن محمود بن احمد بن حجر الشافعي العسقلاني الأصل المصري المولد.

(178) - العقاب جمع عقبة وهي ما يعترض النسان من مصاعب

(179) - صحيحه الصخرة

(180) - ا و ب سواحاً.

(181) - الإسراء.

فـارق إلى حانـة التقـديس مرتـشفاً ... من كأسه العذب ما تزري به الراحا

وطـف بكعبـة ناديـه ومـشهده ... وروح الـنفس مـن مـسراه أفراحـا

واسـع لـدى عرفـات الأنـس مزدلفـا ... واشرب به من سلاف القرب أقداحا

وسـر إلى طـور سـينا وارتـشف نهـلا ... واسـتجل في دوحـة المـأنوس أرواحـا

واسـتقبس النـور في واديـه ملتمسـاً ... عواطـف الأنـس كـي يهـديك مفتاحـا

واركب خيـول غيـوب نحـو سـعد أبـى ... إلاّ المنـى تبتغـي المـسعد أدواحـا

واصـعد معـارج فـوز نحـو بارقـة ... كم أوقدت لذوي الإصباح مصباحا

وغب وطف واشهد المغنى الشهي تجد ... قـوت القلـوب وروحـاً ثـم أرواحـا

والـبس ملابـس تيـه حيثمـا انبلجـت ... لـك المـوارد إمـساءً وإصـباحا

و احـنُ علـى الـدرة البيـضاء في مـرح ... فقـد مُنحـتَ مـن الـرحمن إصـلاحا

واخلع لنعليك وادخل [في] الستور فقد ... وافـاك نـور بنـادي القـدس قـد لاحـا

فوافينا المدينة قبيل العصر، وقد قابلتنا بشائر التهاني بالمسرة والنصر، فوقفنا وقرأنا الفاتحة عند الباب، واستأذنا في الدخول من بها من الأوتاد والأنجاب، فإن ذلك من حسن الأدب معدود، كما نص عليه الشعراوي[182] في العهود.

وللمدينة سور محكم البنيان، بديع الشكل في الصناعة والإتقان، له ستة أبواب منيعة، غريبة في الوضع بديعة، وهي باب الأسباط، باب الساهرة، وباب العامود، وباب الخليل، وباب داوود، وباب المغاربة. [من البسيط]

للقـدس سـور سمـا بالحـسن رونقـه ... أبوابـه سـتة فيهـا مقاربـة

أسـباط سـاهرة عـامود ثالثهـا ... بـاب الخليـل وداود مغاربـة

ثم دخلنا المدينة من باب الخليل، وحاوي الإنس لنا بالسعد دليل، فنزلنا بمنزل قطب دائرة الأفلاك الحسنية. واسطة عقد العصابة الهاشمية. خلاصة السادة الأشراف، وصفوة بني عبد مناف، من فاق بحسن سيرته النجوم الزواهر، وبجميل طلعته البدور النواضر. الراسخ في العلم الإلهي الكاشف عن أسرار الحقائق كما هي. أستاذ كل أستاذ،

---

(182) المقصود كتاب (لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية) لعبد الوهاب بن احمد بن علي الشعراني، وليس الشعراوي، المتوفى سنة 973هـ

وملاذ كل ملاذ، مولانا السيد مصطفى البكري الصديقي[183]، قدس الله سره الشريف وأسكرنا من كأس خمره الرحيقي.

فبرؤيته وردت على واردات السرور من كل جانب، وأيقنت ببلوغ المآرب والمطالب، وعند ذلك جاد الجفن بالدمع وسمح، لما اعتراه من المسرة والفرح: [من الكامل]

طفح السرور علي حتى أنه ... من عظم ما قد سرني أبكاني

فتلقاني بوجه طلق بسام، وعذوبة لفظ تزري بالآلئ في النظام، فإن أستاذنا المذكور قدس الله سره الشريف، بمظهر الجمال في أرفع محل منيف، مع لطف بلغ غاية الكمال، وحسن خلق وفضل وإفضال.

فو النجم إذا هوى، إنه لجميع المحاسن قد حوى، وهو الذي يقتدي به المقتدون، وبسمته يهتدي المهتدون، وبمحاسن الصفات مُحَلّى[184] رفع الله له في العليا محلاً.

مولى تحلى بالفضائل والتقى ... وأشاد من طرق الحقيقة معهدا

ودعي لي النهج القويم مسلكا ... لطريقة منها شهدنا المشهدا

ثم استأذنته في التوجه إلى الحرم، والحمى الرفيع البديع المحترم، فتوجهت لذياك المقام، واحتظيت فيه[185] بحسن المقام، الحالي الموارد لكل وارد: [من البسيط]

يا حبذا المسجد الأقصى له الشرف ... من جاءهُ زائراً تهدى له التحف

ناهيك من ثالث الحرمين منزلة ... طوبى لمن زاره أو فيه يعتكف

فهي تضاعف أعمال التقى درجا ... فالناسكون لهم في ذاك مزدلف

كأنه فلك والعاكفون به ... بدور تم علاها السعد والشرف

يا طال ما ذكرت عندي محاسنه ... حتى بدا فبدا لي فوق ما وصفوا

وما برحت في الحرم إلى العشا معتكفاً، ورجعت لبيت الأستاذ عهدة أهل الاصطفا.

ثم لما أشرقت الشمس وانجلت، وتجلت برونق حسنها وازدهت، توجهت لشيخ مشايخ الإسلام وعمدة العلماء الأعلام، ذي الأخلاق الشريفة المرضية، مولانا الشيخ محمد الخليلي عمدة الأئمة الشافعية، فرأيت الأنوار منه تلوح، وروائح الأنس حول حماه تفوح: [من البسيط]

---

(183) - متصوف سائح مشهور دمشقي نزل بالقدس ودعا للطريقة الخلوتية سيأتي التعريف به في متن الرحلة

(184) - ب محلا.

(185) - ا به

يا سائلي [حينما قد] جئت أمدحه	هذا هو الرجل العاري من العار
رأيته فرأيت الناس في رجل	والدهر في ساعة والأرض في دار

ولما رآني مقبلاً، قابلني بوجه بالسرور متهللاً. فقبلت يده الشريفة واستمطرت سحب دعواته المنيفة. وتنزهت في روضته الأنيقة، مجتنياً من أزاهر علومه العبيقة، منتهلاً من جداوله الغديقة، كؤوس علم جمعت بين الشريعة والطريقة والحقيقة. فأورد بعض أهل العلم في ذلك المجلس سؤالاً، مريداً به على الجميع استشكالاً، وهو أنه لما رجع الكليم[186] من المناجاة جعل على وجهه الشريف برقعاً لخوف العمى على من يراه. ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام، لما رجع من المناجاة من المعراج لم يتخلق بهذا المقام، وهذا يوهم التفضيل، وما الجواب عن ذلك بأحسن دليل؟ فابتدر بعض من حضر مجيباً، بجواب لم يكن فيه مصيباً. فقال حضرة الشيخ إن مما يزيل ما في هذا الاستشكال من الأوهام، ما في كتاب حل الرموز للعز بن عبد السلام. فطلب وفي الحال أحضر، وكشف عن هذا البحث وما فيه قد سُطّر، حيث قال ما نصه.

فصل:

ومن هاهنا عرف التلوين والتمكين، فالتلوين عبارة عن الانتقال من حال إلى حال، وتحول من وصف إلى وصف، وترق من مقام إلى مقام. فهذا كله وصف من هو في الطريق لم يصل إلى الآن، فمادام في الطريق فهو متلون، فإذا وصل إلى المنزل فهو متمكن، والذي يترجح عندي أن المتلون قابل للزيادة والنقص في حاله ومقامه، بحسب تقلبه مع بشريته ورجوعه إليها، والمتمكن آمن من النقص لخنوس إحساسه، وانخلاعه عن نفسه، وفنائه عن جثمانيته، لاستيلاء سلطان الحقيقة عليه، ومحوه في ثبوتها، وفنائه في بقائها، فهو متمكن من حالة لا يرده الحق سبحانه وتعالى إلى معلومات نفسه، ومألوفات حسه، بل هو متمكن من حاله بحسب ما يستحق من الحق تعالى نكتة. فعلى هذا التقرير كان موسى عليه الصلاة والسلام متلوناً إذ رجع من حضرة المناجاة والمكالمة، وقد أثر حاله على وجهه فلا ينظر إليه أحد إلا عمي لتمكن حاله فيه، حتى أذن الله له أن يتبرقع.

ومحمد صلى الله عليه وسلم كان متمكناً، لأنه صلى الله عليه وسلم رجع من حضرة المشاهدة ولم يؤثر فيه حاله ولا تغير عليه أمر، فهو متمكن لأنه لم يزل في حضرة

---

[186] النبي موسى

مشاهدة، فنقل من حضرة إلى حضرة، ومن رؤية إلى رؤية، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم: لست كأحدكم، وقوله إلى وقت لا يسعني فيه غير ربي.

ونظير هذا قصة زليخا[187] وصواحباتها، كانت[188] صواحباتها أصحاب تلوين، فلذلك لم يطقن الشهوة عند تجلي جمال سيدنا يوسف عليه السلام، بل دهشن لمشاهدته حتى أثر فيهن الحال، وأخرجن عن طور الإحساس، واعتراهن الالتباس، حتى قلن ما هذا بشر وقطعن أيديهن ولم يشعرن. وأما زليخا، فلتمكنها من حالها ما تغير عليها الحال، ولا أثر ذلك فيها لأنها لم تزل في مشاهدته صلى الله عليه وسلم حاضرة. وقد أنشد لسان حالها مترجماً عن حالها فقلت في ذلك: [من الطويل]

إذا لم يكن معنى حديثك لي يروى	فلا كبدي يشفى ولا مهجتي تروى
نظرت فلم أنظر سواك أحبه	ولولاك ما طاب الهوى للذي يهوى
ولما اجتلاك الفكر في خلوة الرضا	وغيبت قال الناس ضلت به الأهوا
لعمرك ما ضل المحب وما غوى	ولكنهم لما عَمُوا أخطؤوا الفتوى
ولو شاهدوا معنى جمالك مثلما	شهدت بعين القلب ما أنكروا الدعوى
خلعت عذاري في هواك ومن يكن	خليع عذار في الهوى سره نجوى
ومزقت أثواب الوقار تهتكاً	عليك وطابت في محبتك البلوى
فما في الهوى شكوى ولو مزق الحشا	وعار على العشاق في حسنك الشكوى
وما علموا للحب داءً سوى الهوى	وعندي أسباب الهوى كلها أدوا
وقد كنت من خوف الهوى أتقي الهوى	ولكنما حكم الهوى غلب التقوى

فلما قرأت هذه السطور بتمامها، وبرزت أنوار الحقيقة بأعلامها، ألزم السائل السكوت بهذه الحجة، وكشفت له شمس المحجة.

ثم فرض لي حضرة الأستاذ الصديقي خلوة سنية، على طرف سطح الصخرة مقابلة للمدرسة السلطانية. فلما نزلت بناديها البهيج، وحللت بحماها الأريج، وداخلني من رؤيتها الطرب، وزال عن القلب الوصب. استعطفت القلم أن يكتب ما أمليه، فقام على ساق الجد من غير تمويه: [من الكامل]

---

(187) - المقصود زليخة زوجة عزيز مصر في سورة يوسف

(188) - ا و ب كن

بالمسجد الأقصى حظيت بخلوة	من أفقها شمس السرور تلوح
من حلها يلقى بها كنز الصفا	ولديه من شرح الصدور شروح
بمشارق الأنوار ساطعة السنا	وبنشرها أرج العبير يفوح

وفي يوم الاثنين زرنا محل ما ربط البراق، وعليه من المهابة والجلالة أبهى رواق. ونزلنا إلى اصطبل سليمان عليه السلام، ومنه إلى المسجد القديم ذي الاحترام، ثم انعطفنا إلى مهد عيسى، لنخبئ برؤيته نفوسا . وقرأنا به سورة كهيعص والمنقذات والسبع المثاني، ودعوت الله لي ولإخواني ببلوغ المنى والأماني. ثم ارتقينا سور المسجد من جهة الصراط، المطل على وادي جهنم، الذي ذكره يقطع من القلب النياط، فإذا هو مقبرة طايفة من اليهود، ودليل الغضب عليها شاهد ومشهود .. [من البسيط]

انظر إلى حكمة الأسماء أن لها	سراً بديعاً وهذا القول مشتهر
شهدت في القدس حقاً باب رحمته	للمؤمنين قبوراً إذ بها ظفروا
بشرى لهم فازوا بمرحمة	أما اليهود بوادي النار قد قبروا

ثم توجهنا إلى بابي التوبة والرحمة، لعل بولوجهما يحصل لنا تمائم الرحمة، وقرأنا بينهما أم الكتاب سورة الحديد، لمناسبة قوله تعالى في القرآن المجيد . فضرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. قال بعض المفسرين هو سور بيت المقدس باطنه باب الرحمة وظاهره وادي جهنم. انتهى

والسور المذكور محيط ببيت المقدس وبالمسجد من جهة القبلة والشرق، والمسجد المذكور متسع جداً وطوله قبلة بشام من السور القبلي إلى صدر الرواق الشمالي ستمائة وستون ذراعاً، وعرضه شرقاً بغرب من السور الشرقي المطل على باب الرحمة إلى صدر الغربي أربعمائة وستة أذرع، والصخرة على سطح بوسط المسجد طوله قبلة بشام مائتان وخمسة وثلاثون ذراعاً، وعرضه مائة وتسعة وثمانون ذراعاً، والصخرة في وسطه عليها قبة عظيمة بأربعة أبواب، وللمسجد إحد عشر باباً وأربعة منابر، وبه سبعة وأربعون صهريجاً للماء وبركة كبيرة بوسطها كأس من المرمر تجاه باب الأقصى. وبالمسجد عدة أشجار من زيتون وغيره، ومآثر تنشرح بها الصدور، وتنجلي برؤيتها سحائب الهم عن القلب المصدور. ومظهر هذا المسجد مظهر جمال، كما أن الحرم المكي والمدني مظهر جلال وكمال. فلا يحيط بما في المسجد الأقصى من حسن الأوصاف، إلا من حل حماه أو

بأرحابه طاف. ولما ارتشفت من ثغر لمى الكأس زلالاً، وطاب لي مذاقه الجريال[189]، صبوت من حسن ذلك، وأنشدت بين هاتيك المسالك:

كأس به خمرة الإيناس حالية ... تحلو لمرتشف منه إذا ارتشفا

قد ارتوى قلبي الصادي بمورده ... لما روى ابن معين من حديث شفا

فعج على حانه القدسي إن به ... من الأماني لمن وافاه مزدلفا

وهذا المسجد أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، الوارد في فضله كثير من الآيات والأحاديث والآثار حسب ما روته الثقاة من الرجال، فمن الآيات قوله سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[190]، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾[191]، وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[192]. ومن الأحاديث ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا. وعن ابن عباس مرفوعاً، من أراد أن ينظر إلى بقعة من بقاع الجنة، فلينظر إلى بيت المقدس. وعن أنس بن مالك أن الجنة لتحن شوقاً إلى بيت المقدس.

ومن الآثار ما جاء عن خالد بن معدان، أن حذو بيت المقدس، باباً من السماء يهبط الله إليه كل يوم سبعين ألف ملك، يستغفرون لمن يجدونه يصلي فيه.

وعن وهب بن منبه: أهل بيت المقدس جيران الله حق على الله أن لا يعذب جيرانه. وقيل لنعمان بن عطا ما تقول في بيت المقدس؟ قال: ما فيه موضع إلا وقد سجد عليه ملك أو نبي، فَعَلَّ جبهتك أن توافي جبهة ملك أو نبي.

وأما ما يهدي لزائره من اللطائف، ويجبى[193] إليه من عوارف المعارف، فمنها ما روى النسائي بسنده إلى ابن عمر مرفوعاً، أن سليمان بن داوود عليهما السلام، لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالاً ثلاثاً، سأل الله حكماً يصادف حكمه فاوتيه، وسأل الله

---

(189) - الجريال والجريالة: الخمر شديدة الحمرة، وقيل جريال الخمر لونها. وزعم الأصمعي ان الجريال اسم اعجمي رومي عُرب كان اصله كريال

(190) - سورة الاسراء، الآية 1.

(191) - سورة يونس، الآية 93.

(192) سورة الأنبياء، الآية 71.

(193) - ب يحيى

ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله حين فراغه من المسجد أن لا يأتيه أحد إلاّ للصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه. زاد ابن ماجة في هذه الرواية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أما اثنتان فقد أعطيتهما وأرجو أن يكون قد أعطي الثالثة.

قال بعض الشراح ورجاه صلى الله عليه وسلم محقق. وعن أنس مرفوعاً، ومن زار بيت المقدس حرم الله جسده ولحمه على النار. وعن مجبول بن كعب رضي الله عنه، من خرج إلى بيت المقدس من غيرحاجة إلاّ للصلاة، فصلى فيه خمس صلوات صبحاً وظهراً وعصراً ومغرباً وعشاءً، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

وعن أنس من حديث، وصلاته في المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة وصلاته في مسجد الكعبة بمائة ألف صلاة وصلاته في مسجدي هذا بخمسين ألف صلاة. أخرجه البخاري والطبراني وابن ماجة.

وعن كعب[194] من صام يوماً ببيت المقدس أعطاه الله تعالى براءة من النار. إلى غير ذلك من الأخبار والآثار، الظاهرة ظهور الشمس رابعة النهار. وقد استوفينا جملة صالحة منها حسب التسهيل، في كتابنا الموسوم بـ(لطائف أنس الجليل في تحائف القدس والخليل). وقد اجتمعت الطوائف كلها على تعظيم بيت المقدس، ماعدا السامرية بزعمهم أن القدس هو جبل نابلس.

وقد كان في زمن بني إسرائيل، إذا نزل بهم خوف من عدو أو جدبوا، صوروا القدس وجعلوه هيكلاً، وصوروا أبوابه ومحاريبه واستقبلوا به العدو، فيهزم الله عدوهم، أو يستبقلون به السماء في الجدب فيمطرون.

ولقد سمعت من بعض السادة القادة، من لوحظوا بالحسنى وزيادة، أن هذا المسجد يجلي صدأ الهم عن القلوب، ويشرح الصدور ويذهب الكروب. وأي مكان جلس فيه الإنسان، يجد نفساً من نفس الرحمن، وكم وكم أخبرني الثقات، وعندي لدعواتهم بالشهود إثبات، وقد شاهدت هذا الشان، وليس الخبر كالعيان. فمن وافى[195] سحراً هاتيك الأكناف، والتزم كعبة صخرتها وطاف، أدرك جمالاً وكمالاً يبهران العقول، كما تظاهر بذلك صحيح النقول. ومن تجلت عليه واردات الطور، صعق من الهيبة والكتاب المسطور. فلما قضيت التفث من هاتيك المحال، أنشدت مترنماً بلسان المقال: [من الكامل]

---

(194) - هو كعب بن ماتع الحميري، أبو إسحاق، حبر يهودي أسلم في خلافة عمر، مخضرم كان من أهل اليمن، فسكن الشام، مات في آخر خلافة عثمان، وتنسب إليه الكثير من الإسرائيليات

(195) - ا و ب وافا.

وافيت أقصى مسجد أتنسك	وبذيل مسك عبيره أتمسك
وسلكت فيه للزيارة مسلكاً	لقبوله أرجو فنعم المسلك
فهناك حقاً يحمد القوم السرى	لمآثر إحياؤها لا يترك

استطراد جميل :

ذكره صاحب انس الجليل قال: قال تاج الدين أحمد بن الصاحب، في كتابه المسجد الوارد لهذه المشارب: وأما ما شاهدته عياناً وعاينت منه برهاناً، أني جلست يوماً ببقعة حوت أزاهر، مبتهجة بحلا محاسنها النواضر، وبقربي فقير وطمار، يبتسم ويعلن بالتسبيح والأذكار، ويقول: سبحان من جمع فيك المحاسن وكساك الحلل الفاخرة، وجعلك تحتوي على كنوز الدنيا والآخرة.

فقلت له سيدي أما بركة المسجد فقد تطابق فيه الخُبْرُ[196] والخَبَر، وأما كنوز الدنيا فلم ندرها فشنف السمع وحلّى النظر.

فقال: ما من زهرة به إلا ولها خواص، يعرفها أهل الذوق والاختصاص. فقلت أتحفني ببعض ذلك، وبصرني بحقيقة ما هنالك. فأخذ بيدي ومشى خطوات ووقف، وتناول مني خاتماً من لجين ثم انحرف، فعركه ببعض الكلأ فصار عسجداً، يطيب للناظرين مخبراً ومشهداً، ثم قال: هذه بعض الكنوز، وكم فيه من خبايا ورموز، ثم رجع إلى نهجه الجميل من التسبيح والتهليل. انتهى ما استطردته من المعاني وسبكته في قوالب هذه المباني.

تذييل :

أول من فتح القدس الشريف، أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ذو القدر المنيف، عام خمسة عشر افتتحها صلحاً، وامتلأت من نصرة المسلمين بها نجحا، وعلت لذلك كلمة الإسلام، ونكست بعد عن دما الكنائس والأصنام. فتفجع لذلك بعض شعراء النصارى، وكتب تحت صورة من دما الكنيسة أشعارا: [من الكامل]

آدما الكنائس إن تكن عبثت بكم	أيدي الحوادث أو تغير حال
فلطالما سجدت لكن شمامس	شم الأنوف ضراغم أبطال
بعداً على هذا المصاب فإنه	يوم بيوم والحروب سجال

---

[196] - ب الخير.

وقد كنت طلبت من الأخ المجيد، شقيق الروح السيد محمد السعيد، أن يشطر هذه الأبيات، ويجعل لها بمدحة الإسلام حسن التفات، فتوجها وشطرها، فأحببت أن أرقمها هاهنا[197] وأسطرها : [من الكامل]

وبيوم فتح القدس نُكّست الدما	في فتحة العُمري فصار يقال
أدما الكنائس إن تكن عبثت بكم	سطوات صحب المصطفى مذ جالوا
أو إن تكن نسخت لَكُنَّ مؤشّراً	أيدي الحوادث أو تغير حال
فلطالما سجدت لكن شمامس	سود القلانس شعّث أوعال
واليوم نكس راسكن فوارس	شم الأنوف ضراغم أبطال
بعداً على هذا المصاب فإنه	خزي لكنّ وذلة ووبال
فأعزة كنتن صرن أذلة	يوم بيوم والحروب سجال

فلعمري لقد طهرها بحسن التسبيع، حيث أخرجها بالشماتة بالكفار عن حيز التفجيع. انتهى

ثم في عصر هذا اليوم المبارك، الذي فيه الهنا للمسرة[198] شارك، توجهت مع بعض الرفقاء الأصحاب، اللابسين حلل اللطافة والآداب، إلى القلعة التي زاحمت بمناكبها الأفلاك، وكادت[199] سكانها تسمع بتسبيح الأملاك[200]. [من الكامل]

ولقلعة القدس الشريف تفاخر	إذ زاحمت شرفاتها الأفلاكا
ويكاد من يرقى سماء سمائها	لسموها أن يسمع الأملاكا

فصعدنا إلى محل بالزيارة مقصود، به محراب نبي الله داود، فتبركنا بآثاره السنية، وانشقنا عبير روائحه الزكية، وقرأنا سورة ص كما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عند فتحه، ودعونا الله تعالى راجين نفحة من نفحه، ثم ارتقينا إلى أعلى القلعة بشباك، كأنما هو لصيد النسيم أشباك[201] فتذكرت بيتين كجوهرتي العقد النضيد، لأخينا العمدة السيد محمد السعيد : [من الوافر]

---

(197) - ساقطة من ا.

(198) - ساقطة من ب.

(199) - كاد.

(200) - الملائكة.

(201) - ا شباك.

وشـــباك لرونـــق ازدهـــى[202] نـــصبناه شـــباكاً للريـــاح

إذا ملنـــا إلى الـــصهبا ســـحيرا نـصيد بـه الـصبا وقـت الـصباح

وبـأرض ذلـك الـشباك البـديع الإحكـام، حجـر غـاص فيـه ذراع داود عليـه الـسلام، فلثمت ذلك[203] الأثر بجفون العيون، وتلوت وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

تكميل:

ما أوتي نبي معجزة إلا وقد أعطي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مثلها أو أعظم منها، فمن مثل ما أعطي داود عليه السلام في غوص ذراعه في الحجر بل أبلغ، ما روى سمرة بن جندب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث[204] إني لأعرفه الآن. وجاء في بعض الروايات أن هذا الحجر هو الحجر الأسود وقيل غيره، وأنه الذي في زقاق بمكة يعرف بزقاق الحجر، ولعله غير الحجر الذي به أثر المرفق. ذكر أنه صلى الله عليه وسلم اتكأ عليه بمرفقه بمكة بمحل يقال له زقاق المرفق[205]. وغير الحجر الذي أثر فيه الأصابع.

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين أراد الله كرامته بالنبوة، كان إذا خرج لحاجة، أي لحاجة الإنسان، أبعد حتى لا يرى بيتاً، ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال الصلاة والسلام عليك يا رسول الله. وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً، وإلى ذلك يشير صاحب الهمزية[206] بقوله:

والجَمَادَاتُ أفصَحتْ بالّذي أخرسَ عنهُ لأحمد الفُصَحَاءُ.

وفي يوم الثلاثاء ختام ذي القعدة الشهر المذكور، المفتتح بالهناء والمختتم بالسرور، يممنا زيارة طور زيتا الأقدس، لنقتبس نور الضياء من مشكاة سناه المقدس، فطلعنا من باب الأسباط، ونحن والرفقاء الرفاق في غاية الانبساط.

وتواردت علينا عواطف المسرات الجمة، حين مررنا بمقبرة باب الرحمة، وزرنا من بها من السادة القادة، خصوصاً الصحابيين وهما، شداد بن أوس وعبادة رضي الله

---

(202) - ا و ب ازدها.

(203) - ا و ب تلك

(204) - ا يبعث

(205) - الجملة من ذكر . وحتى المرفق، ساقطة من ب

(206) - (الهمزية في مدح خير البرية) للإمام شرف الدين ابي عبدالله محمد بن سعيد البوصيري المتوفى في عام 694هـ

عنهما، وعن كل الصحابة أجمعين وعن التابعين وتابع التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، ولنورد ترجمتهما على وجه الاختصار، ولا بدع فإن فضلهما ظاهر كالشمس رابعة النهار.

وعبادة فهو ابن الصامت الأنصاري البدري، وجهه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام قاضياً ومعلماً، وأقام بحمص ثم انتقل إلى فلسطين، وهو أول من ولي قضاءها[207]، سكن بيت المقدس ومات بفلسطين سنة أربع وثلاثين من الهجرة، ودفن ببيت المقدس.

وأما شداد بن أوس رضي الله عنه، فهو ابن أخي حسان بن ثابت، نزل الشام ناحية فلسطين، وكان ممن أوتي العلم والحلم. روي أنه لما دنت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قام ثم جلس ثم قام ثم جلس. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سبب قلقك؟ فقال يا رسول[208] الله ضاقت بي الأرض، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألا إن الشام ستفتح وبيت المقدس سيفتح إن شاء الله تعالى، وتكون أنت وولدك من بعدك أئمتها إن شاء الله تعالى. فكان كما أخبره صلى الله عليه وسلم. وكان ذا عبادة واجتهاد، توفي سنة خمس وثمانين وخمسين عن خمس وسبعين سنة، وقبره ظاهر ببيت المقدس، يزار في مقبرة باب الرحمة تحت سور المسجد الأقصى. انتهى [من الكامل]

يمم مقام عبادة بن الصامت	والشهم شدادا بباب الرحمة
فهما الإمامان اللذان تفيآ	من صحبة المختار أينع دوحة
شهدا المشاهد والمواقف كلها	بشراهما فازا بأرفع رتبة
فإذا وصلت إلى الحمى فانزل به	متأدباً واجري سواكب عبرة
والثم ثرا أعتابه بتذلل	واهدي مع الرضوان حسن تحية
وارفع به كف الضراعة راجياً	منح السعادة فهي أعظم طلبة
فعسى يوافيك القبول مبشراً	بعواطف فيها لطائف منحة

ثم انعطفنا نحو الجهة الشمالية، ومررنا بذيل الجبل بالكنيسة الجثمانية[209]، المدفون فيها مريم ابنة عمران فوقفنا ببناها، وقرأنا ما تيسر من القرآن وأهديناه لجنابها: [من الطويل]

---

(207) - ا و ب قضاها.

(208) - ا يرسول

(209) - الصحيح الجسمانية

إذا جزت وادي القدس عرج ميمماً   لدى طوره تشهد مقاماً معظما

مقام به نور النبوة إذ حوى   كما قدر روينا بنت عمران مريما

فأعظم[210] بها صديقة قد تنبأت   كفاها اصطفاك من فخار تتمما

ربيبة محراب حليفة معبد   بقدس أبو يحيى تكفلها كما

ووافى إليها رزقها الصيف والشتا   ووافت ببشراها ملائكة السما

فجاءت بروح الله عيسى مباركاً   وبراً بها مادام حياً أما أما

فواف[211] حماها مستغيثاً مصلياً   عليها فإن الله صلى وسلما

ثم صعدنا إلى جبل الطور، والوقت يلحظنا بعين السرور، فلما ارتقيت ذروة ذراه، وشاهدت سين سناه، ودخلت مصعد عيسى، وحبيت بمرآه تأنيسا، سجدت لله شكراً، وأنشدت في ذلك شعراً: [من الكامل]

أمليت من لوح السرور سطورا   حين ارتقيت من المقدس طورا

وشممت من أرجائه عرف الشذا   أرجا بطي نسيمه منشورا

للأنبياء به مشاهد شوهدت   أهدت قلوب الزائرين سرورا

منه المسيح لقد سما نحو السما   فسما مقاماً في العلا مشهورا

وبآي والزيتون أقسم ربنا   قسماً بذلك لم يزل مبرورا

ولقد روى كعب بأن بسفحه   للأنبيا ألفا تعد قبورا

لاحت به الأنوار ساطعة السنا   ملأت نواحيه السنية نورا

فاكحل جفونك من سنا أنوارهم   واجر المدامع لؤلؤاً منثورا

وانزل هنالك لا ئذاً متوسلاً   تكسى بذلك بهجة وحبورا

فبهم نزلت مصلياً ومسلّماً   فلعل أحظى بالقبول أجورا

فوفى لأسعد بالقبول بشاير   إذ كان فيه سعيه مشكورا

فكيف لا يكون هذا الجبل أنيسا، وقد رفع منه روح الله عيسى، وهو أحد الجبال

---

(210) - ب واعظم

(211) - ا فوايد

التي أقسم الله بها في كتابه المبين، بقوله عز من قائل ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ﴾[212]، وقد روى صاحب أنيس الجليل ما فيه شفاء الغليل، عن أبي هريرة أقسم ربنا بأربعة أجبل فقال والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين، فالتين مسجد دمشق، والزيتون طور زيتاً مسجد بيت المقدس، وطور سينين حيث كلم الله موسى، وهذا البلد الأمين مكة. وقدمت صفية زوج النبي صلى الله عليه وسلم بيت المقدس فصلت وصعدت طور زيتا، فصلت وقامت على طرف الجبل وقالت: من هاهنا يتفرق الناس يوم القيامة إلى الجنة أو إلى النار. انتهى

وبجانب مصعد عيسى، زاوية تحيي برؤيتها نفوساً، وبأسفلها ضريح الشيخ العلمي وزوجته، وردنا لنستقي مناهل[213] حضرته. وقريب من مكان مأنوس[214] يقصده الزوار[215]، فيحوزون به حل الرموز وكشف الأسرار، لديه مغارة سنية بهية، بها قبر العارفة بالله رابعة العدوية، وكنيتها أم الخير من أعيان عصرها، أخبارها في الصلاح والعبادة مشهورة، كانت تقول في مناجاتها إلهي تحرق بالنار قلباً يحبك، فهتف بها مرة هاتف ما كنا نفعل هذا فلا تظني بنا الظن السوء. ومن وصاياها اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم. وأورد لها السهروردي[216] في عوارف المعارف: [من الكامل]

إني جعلتك في الفؤاد محدثي ... وأبحت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانسٌ ... وحبيب قلبي في الفؤاد جليسي

وبالجبل جماعة من الشهداء، بقبة عالية تجلو عن زائرها الصدا، وهناك قبر الصحابي الجليل الأسنى، من ورد في حقه سلمان منا، وقفنا بأعتابهم، ولذنا بجنابهم، وتملينا بدوح رحابهم، لعلنا نكتب من أحبابهم. مستمطرين من فيض راحاتهم مدداً، والمرء مع من أحب قد وردا، وهذا هو سلمان الفارسي ابن الإسلام رافع الولاية

---

[212] - سورة التين، الأيتان 1و2

[213] ا من

[214] - ساقطة من ب

[215] - مقصود للزوار.

[216] - هو عمر بن محمد بن عبد الله بن عمويه، ابو حفص شهاب الدين، القرشي التيمي البكري السهرودي، ينتهي نسبه إلى ابي بكر الصديق فقيه شافعي، واعظ من كبار رجال الصوفية ولد في سهرورد ووفاته ببغداد. كان شيخ الشيوخ في بغداد اوفده الخليفة إلى عدة جهات رسولا، واقعد في أخر عمره فكان يحمل في محفة إلى الجامع كتب كتبا منها: (عوارف المعارف) و(تفسير القران) و (رشف النصائح) و (جذب القلوب إلى مواصلة المحبوب) و (السير والطير) وغير ذلك

والأعلام، الحاكم الحكيم، والعابد الحليم، أحد الرقباء والنجباء، ومن إليه تشتاق الجنة من الغرباء.

كان من آكابر الزهاد، وأفاضل العباد، أصله من أصبهان، أسلم عند قدوم المصطفى صلى الله عليه وسلم المدينة، وكان عبداً لبني قريظة، أدى المصطفى صلى الله عليه وسلم كتابته وأعتقه، وهو عظيم المناقب، ولو لم يكن من مناقبه إلا قول النبي صلى الله عليه وسلم: (سلمان منّا أهل البيت)، وقوله: (إنه أحد الذين تشتاق إليهم الجنة)، وقوله: إن الله يحب من أصحابي أربعاً[217] وذكره منهم لكفى.

وكان إذا جن الليل صلى فإذا أعيا ذكر الله بلسانه، فإذا أعيا[218] بكى، فإذا أعيا تفكر في آيات الله وعظمته، ثم يقول لنفسه استرحت فقومي، فإذا صلى زماناً طويلاً قال للسانه استرحت فاذكر، وهكذا طول الليل.

وكان عطاؤه خمسة آلاف درهم وهو أمير بالمدائن على زهاء ثلاثين ألفاً، ومع ذلك يخطب الناس في عباة يفترش بعضها ويلبس بعضها، ولم يكن له بيت يظله، وإنما يدور مع الظل حيث دار، وكان إذا خرج عطاؤه فرّقه، ولا يأكل إلا من كد يده في عمل الياقوت.
ومن كراماته أنه خرج من المدائن ومعه ضيف، فإذا بظباء في الصحراء كثيرة وطيور في الهواء[219]، فقال ليأت[220] منكم طير وظبي فقد جاءني ضيف أحب إكرامه، فأتياه فقال الرجل: سبحان الله. فقال سلمان: أتعجب هل رأيت رجلاً عبداً أطاع الله فضيَّعه؟.

ومن كلامه: العلم كثير والعمر قصير، فخذ من العلم ما تحتاجه لدينك، ودع ما سواه. ومن وصاياه[221]: من استطاع منكم أن يموت حاجاً أو غازياً أو عابراً المسجد ربه فليفعل ولا يَمُتْ تاجراً ولا جابياً.

مات سنة ست وثلاثين[222]، عن مائتين وخمسين أو ثلاث مائة (!)[223]. انتهى

---

(217) الصحيح اربعة

(218) - ا و ب اعيى

(219) - ا و ب الهوى

(220) - ا و ب لياتي

(221) - ب كلامه ووصاياه

(222) - هجرية

(223) - نقل الحافظ الذهبي في كتاب سير اعلام النبلاء للحافظ الذهبي عن العباس بن يزيد البحراني ان سلمان عاش ثلاث مائة وخمسين سنة. وقد شكك الحافظ الذهبي في انه بلغ هذا العمر، ورجح ان عمره كان بضعاً وسبعين او فوق ذلك ولم يبلغ مائة سنة. فقال معقباً على الرواية المذكورة، وقد فتشت فما ظفرت في سنه بشيء سوى قول البحراني، وذلك منقطع لا إسناد له، ومجموع امره واحواله وغزوه وهمته وتصرفه وسفه الجريد وأشياء مما تقدم ينبئ بأنه ليس

وأنت خبير بما أسلفنا في هذه السطور، عن طبقات المناوي الإمام المشهور، بأن مقام سلمان الفارسي بسدود[224]، وعنده مقام سيدي إبراهيم المتبولي مشهود، هذا وقد ذكر شيخنا الصديقي في رحلته القدسية[225] في زيارة جبل الطور، وكنا بعدما نصلي الصبح والإشراق نذهب لزيارة سيدي سلمان الفارسي ذي الإشراق. وقال في رحلته العراقية بمناسبة، نقلاً عن الإمام الشعراني في ترجمة سيدي إبراهيم المتبولي أنه دفن عند سيدي سلمان الفارسي بسدود وقد خلع عليه شهرته. انتهى

وقال في الرحلة المذكورة في محل آخر: ثم سرنا إلى أن وصلنا إلى إيوان كسرى وتوجهنا لنرى الشق الذي أوجب للظهر كسرا، وعاينا الآية الكبرى وأنشدنا قول الأبوصيري منحه الله جبراً: [من البسيط]

وبات إيوان كسرى وهو منصدعٌ كشمل أصحاب كسرى غيرَ ملتئم

وقسنا عرض الإيوان فإذا هو سبعة عشر باعاً، وطوله حائطه الشمالي ثلاثون باعاً، وطوله في الهواء[226] يقارب عشرين باعاً، وتعديناه إلى مرقد الإمام الهمام سيدي سلمان الفارسي المقدام، وجلسنا عنده هنيهة يسيره، ودعونا الله لنا ولأحبابنا أن ينيلنا الآمال الخطيرة. انتهى

ولعمري ليس هذا باختلاف، لتمكن التوافق بين الأقوال والائتلاف، فمقامه بالمداين واضح الدليل لكونه كان أميراً بها ولما ذكره صاحب أنس الجليل، فيحمل المقامان الآخران على أنهما لجنابه مشهدان، بمراء منامية أو كشفية، أو ظهوره بهما بحكم البرزخية، فإن البرزخ حكم البحر الزاخر، كما روى عن ذلك بعض الأكابر. وعلى كل حال فمتى نسب لولي محل أو مكان صار يتعهده بروحانيته في بعض الأحيان، كما أخبر بذلك أهل المكاشفات، ودلت عليه الأنوار المشاهدات، فينبغي للإنسان إذا ورد أحد المقامات، أن

بمعمر ولا هرم، فقد فارق وطنه وهو حدث، ولعله قدم الحجاز وله اربعون سنة او اقل، فلم ينشب ان سمع بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم ثم هاجر، فلعله عاش بضعا وسبعين، وما اراه بلغ المائة وقد نقل طول عمره ابن الجوزي وغيره وما علمت في ذلك شيئا يركن إليه. ثم عزز ما ذهب إليه بحديث رواه ابن ابي حاتم في العلل فقال: لما مرض سلمان خرج سعد من الكوفة يعوده فقدم فوافقه وهو يبكي فسلم وجلس وقال: ما يبكيك يا اخي؟ الا تذكر صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ الا تذكر المشاهد الصالحة؟ قال: والله ما يبكيني واحدة من اثنتين، ما ابكي حبا للدنيا، ولا كراهية للقاء الله، قال سعد: ما يبكيك بعد ثمانين؟ قال، يبكيني ان خليلي عهد إلي عهدا قال :ليكن بلاغ احدكم من الدنيا كزاد الراكب، وإنا خشينا انا قد تعدينا. قال ابو حاتم، وهذا يوضح لك انه من ابناء الثمانين.

[224] - المقصود بأسدود المار ذكرها.

[225] المقصود (الخمرة المحسية في الرحلة القدسية) للشيخ مصطفى البكري الصديقي

[226] - ا و ب الهوى، والمقصود الارتفاع

يتحلى بالأدب بعد التخلي عن المخالفات. فقد قيل[227] إنّ من زار ولياً وهو مصر على ذنب من الذنوب، أدركه المقت في الوقت من علام الغيوب، فيمم بأدب وحسن استعداد، تحظَ منهم بالمدد وغاية الإسعاد . [من البسيط]

يمّم هُديت إلى مَنْ وإيمان	واقصد مقام الصحابي الشهم سلمان
الفارسيُّ بآل البيت ملتحق	بنص سلمان منا آل عدنان
الناسك العابد الصوفي من شهدت	له المشاهد في التقوى بعرفان
كل المشاهد وافاها على قدم	من الثبات للوغا ثاني[228]
تشتاقه جنة المأوى كما وردت	به الأحاديث يا بشراه من داني
وكم له من كرامات شهدن له	عن الثقات رويناها بايقان
أتاه طير وظبي إذا دعا بهما	من الفلاة ليَقري بعض ضيفان
فأعجب الضيف من هذا فقال له	إن المطيع مطاع الأمر والشان
مقامه حرم بالأمن محترم	وجاره لم ترعه صولة الجان
وقد نزلت حماه ابتغي مدداً	لعل يمنحني الحُسنى بإحسان

العاذرية [العيزرية]

ثم توجها إلى قرية العاذرية[229] في الساعة، وهي قريبة من الطور بنحو نصف ساعة، وزرنا بها نبي الله العزير عليه السلام، بمسجد سما بالمهابة والاحترام. هذا هو المشهور أنه العزير بلا دليل. لكن قال صاحب أنس الجليل: لعله العيذار بن هارون عليه السلام، وأما العزير فإنه بقرية عورتا من أعمال نابلس. انتهى

والعزير هو المراد بقوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى

---

(227) - ب ورد.

(228) هذا الشطر ناقص كلاماً.

(229) - العيزرية قرية فلسطينية تقع في الجنوب الشرقي على سفوح جبل الزيتون وعلى بعد نحو 2 كم للشرق من القدس، اقرب قرية لها أبو ديس وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى نبي الله العزير. ذكرت العيزرية في الإنجيل والتوراة باسم بيت عانيا ومعناه بيت البؤس وقد اكتسبت شهرتها الدينية والتاريخية بعد ان احيا السيد المسيح رجلا يدعى العازار بعد موته ودفنه بأربعة ايام

عُرُوشِهَا﴾[230] على ما ذهب إليه قتادة وعكرمة والضحاك. والقرية قيل أنها دير هرقل وذلك إنه لما خرب بخت نصر بيت المقدس ورجع إلى بابل بسبايا بني إسرائيل، كان فيهم عزير ودانيال وسبعة آلاف من بيت داود، فلما نجا عزير من بابل ارتحل على حمار حتى نزل دير هرقل علي شط دجلة، فطاف في القرية فلم ير فيها أحداً وعامة شجرها حامل، فأكل من الفاكهة واعتصر من العنب فشرب منه، وجعل فضل الفاكهة في سلة وفضل العصير في زق. فلما رأى خراب القرية وهلاكها قال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها تعجباً لا شكاً في البعث.

وقال وهب المار هو إرميا[231] والقرية بيت المقدس وهو أنه لما ارتحل بخت نصر راجعاً إلى بابل بسبايا بني إسرائيل، أقبل إرميا[232] على حمار له معه عصير عنب في ركوة وسلة تين، حتى غشي إيليا، فلما وقف عليها قال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها، ثم ربط حماره بحبل جديد فألقى الله عليه النوم فلما نام نزع الله منه الروح مائة عام، وأمات حماره وعصيره وتينه عنده، وأعمى الله عنه العيون ومنع الله السباع والطير عن لحمه. فلما مضى من موته سبعون سنة أمر الله ملكاً من ملوك فارس[233] أن يعمر بيت المقدس، فعمرها ورجعت سبايا بني إسرائيل إلى بيت المقدس وعمروها أحسن ما كانت في ثلاثين سنة، وكثروا حتى كانوا أكثر ما كانوا، فلما مضت مائة سنة أحيا الله منه عينه وسائر جسده ميت، ثم أحيا[234] الله جسده وهو ينظر إليه، ثم نظر إلى حماره فإذا عظامه متفرقة بيض تلوح، فسمع صوتاً من السماء أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي فاجتمع بعضها مع بعض واتصل بعضها ببعض ثم نودي إن الله يأمرك أن تجتمعي، فاجتمع بعضها مع بعض واتصل بعضها ببعض، ثم نودي إن الله يأمرك أن تجتمعي فاجتمع بعضها مع بعض تكتسي لحماً وجلداً. فكان كذلك، ثم نودي إن الله يأمرك أن تحيا، فقام بإذن الله ونهق. وبعث الله إليه ملكاً فقال كم لبثت قال يوماً أو بعض يوم وذلك إن الله تعالى أماته ضحى في أول النهار، وأحياه بعد مائة عام في آخر النهار قبل غيبوبة الشمس، فقال لبثت يوماً وهو يرى الشمس قد غربت، ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال أو بعض يوم، فقال له الملك بل لبثت مائة عام، وإذا التين كأنه

---

(230) - سورة البقرة، الآية 259

(231) - ا رامبا.

(232) - ا رامبا.

(233) - ناقصة من ا.

(234) - ب احيى

قطف من ساعته والعصير كأنه عصر من ساعته. وعمر الله إرميا فهو الذي يرى في الفلوات وهو الخضر. انتهى بغوي[235]

وفي جمع الفوائد لشيخ الإسلام شيخنا الإمام محمد بن سليمان المغربي محدث مكة، عن ابن عباس، لما بعث الله موسى وأنزل عليه التوراة قال: اللهم إنك رب عظيم ولو شئت أن تطاع لأطعْتَ ولو شئت أن لا تعصى ما عصيت، وأنت تحب أن تطاع وأنت في ذلك[236] تعصى، فكيف هذا يا رب؟

فأوحى الله إليه إني لا أُسأل[237] عما أفعل وهم يسألون.

فلما بعث الله عُزيراً وأنزل عليه التوراة بعدما كان رفعها عن بني إسرائيل حتى قال من قال منهم إنه ابن الله. فقال اللهم إنك رب عظيم مثل ذلك فأوحى الله إليه إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون. فأبت نفسه حتى سأل أيضاً، فقال: أتستطيع أن تصر صرة من الشمس؟ قال لا. قال: أفتستطيع أن تجيء بمثقال من نور؟ قال لا. قال: أفتستطيع أن تجيء بمكيال من ريح؟ قال لا. قال: فهكذا لا تقدر على الذي سألت عنه إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون، إني لأجعل عقوبتك الآن أمحو اسمك من الأنبياء فلا تذكر فيهم. فمحي اسمه من الأنبياء فليس يذكر فيهم وهو نبي.

فلما بعث الله عيسى ورأى منزلته من ربه وعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ويبري الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى وينبئهم[238] بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم. قال: اللهم إنك رب عظيم مثلهم. فأوحى الله إليه إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون، وأنت عبدي ورسولي وكلمتي ألقيتك إلى مريم وروح مني خلقتك من تراب ثم قلت كن فكنت، إن لم تنته لأفعلن بك كما فعلت بصاحبك بين يديك، إني لا أسألك عما أفعل وهم يسألون. فجمع عيسى من يتبعه فقال القدر سر الله فلا تكلفوه. انتهى وبالجملة.

فبالمسجد المذكور نبي إما العُزير والعذار، يشهد بذلك لواقح الأنوار، فلثمت ثرى[239] تلك الأعتاب، وتمسكت بذيل عبيره المستطاب، وقرأت ما تيسر من القرآن مع الخشية،

---

(235) - الاقتباس من البغوي

(236) - ناقصة في ب

(237) - ا و ب اسئل

(238) - ا تنبئهم

(239) - ا و ب ثرا.

لاسيما آي ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾[240] ودعوت الله لي ولأخواني، ثم طفق ينشد لساني: [من الوافر]

مقـــام منـــه لاح لنـــا الوقـــار	ففيـــه يـــرى العُزيِّـــرِ والعِـــذارُ
وأنـــوار النبـــوة منـــه لاحـــت	وعنـــه كـــاد ينكـــشف الـــستار
ودوحـــة روضـــه فاحـــت عـــبيراً	لهـــا داريـــن مـــسكنها غبـــار
نزلنـــا ســـوحهُ نبغـــي نـــوالا	ومرجعنـــا بـــلا مـــدد يعـــار
فجـد يـا سـيدي بـالفيض فـضلاً	فمـــن كفيـــك تمتـــد البحـــار
ونـــادى أســـعدٌ أهـــلاً وســـهلاً	لقـــد طـــاب القـــرا لـــك والجـــوار
لـــك الإمـــداد منـــا كـــل حـــين	كمـــا تبغـــي وإن شـــط المـــزار
فلـــي فخـــر إذا مـــا جئـــت ســـعياً	إلى عليـــاك حـــق لي الفخـــار
عليـــك الله صـــلى مـــا ريـــاض	علـــى أغـــصانها ســـجع الهـــزار

ولما أن وافت البشارة، بقبول الزيارة، وحصل بذلك الأنس والسرور، انثينا راجعين إلى جبل الطور. فأتممنا بقية ذلك اليوم نتسامر بذكر أخلاق القوم، وكان يصحبنا منهاج العابدين للإمام الغزالي، الذي هو في الحكم والطريق كنز اللآلي، فشنفنا الأسماع بدرر ألفاظه، والتقطنا الجواهر من سوق عكاظه. فمما أعجبني من حسن المعنى ولفظه، ما ذكره في الفصل الخامس في البطن وحفظه: [من الخفيف]

اغتـــنم ركعـــتين في ظلمـــة الليـــل	إذا كنـــت خاليـــاً مـــستريحا
وإذا مـــا هممـــت بـــالنطق في البـــا	طـــل فاجعـــل مكانـــه تـــسبيحا

وحسبك أن مقصودك العبادة، وإن الطعام والشراب بذر العمل وماؤه، منه يبدو وينبت، وإذا خبث[241] البذر، لا يطيب الزرع بل فيه خطر، يفسد عليك أرضك فلا تفلح أبداً. ومن ذلك ما بلغنا عن معروف الكرخي[242] أنه قال: إذا صمت فانظر على أي شيء

---

[240] - سورة البقرة، الآية 259

[241] . ا اخبث

[242] - معروف بن فيروز الكرخي ويكنى ابا محفوظ وهو احد اقطاب الصوفية، سكن بغداد ومات فيها ودفن سنة مائتين هجرية، الموافق عام815 م. في مقبرة الشونيزية او مقبرة باب الدير العتيقة على جانب الكرخ من بغداد، وسميت فيما بعد باسمه مقبرة الشيخ معروف.

تفطر، وعند من تفطر، وطعام من تأكل، فكم من يأكل أكلة فيقلب قلبه عما كان عليه، لا يعود إليه أبداً. و كم من أكلة حرمت قيام ليلة، وكم من نظرة منعت قراءة سورة، وإن العبد ليأكل الأكلة فيحرم بها قيام سنة، فعليك أيها الرجل بالنظر الدقيق، والاحتياط البالغ الشديد في قوتك، إن كان لك عناية بقلبك، وهمة في عبادة ربك، هذا في أصل القوت حتى يكون من وجهه، ثم عليك بالأدب فيه وإلا كنت حمالاً للطعام، مضيعاً للأيام، إذ قد علمنا يقيناً، بل قد رأينا عياناً أن العبادة لا يجيء منها شيء إذا امتلأ البطن، وإن أكرهت النفس على ذلك وجاهدت بضروب الحيل، فلا يكون لتلك العبادة لذة ولا حلاوة، ولذلك قيل لا مطمع بحلاوة في العبادة مع كثرة الأكل، وأي نور في نفس بلا عبادة، وفي عبادة بلا لذة ولا حلاوة.

وبهذا[243] المعنى قال إبراهيم بن أدهم[244] رحمه الله تعالى: صحبت أكثر رجال الله تعالى في جبل لبنان، فكانوا يوصونني إذا رجعت إلى أبناء الدنيا فعظهم بأربع، قل لهم: من يكثر الأكل لا يجد لذة العبادة، ومن ينم كثيراً لا يجد في عمره بركة، ومن طلب[245] رضاء الناس فلا ينتظر رضاء الرب، ومن يكثر من الكلام بفضول وغيبة فلا يخرج من الدنيا على دين الإسلام.

وعن سهل رحمه الله تعالى أنه قال: جماع الخير كله في هذه الخصال الأربع، وبها صارت الأبدال أبدالاً، أخماص البطون والصمت والاعتزال عن الخلق وسهر الليل.

وقال بعض العارفين: الجوع رأس مالنا، ومعناه أنه ما يحصل لنا من فراغ وسلامة وعبادة وحلاوة وعلم نافع بسبب الجوع والصبر عليه.

وقال في مبحث القلب فصل:

وجملة الأمر أنك إذا نظرت بعقلك أيها الرجل، فعلمت أن الدنيا لا بقاء لها، وأن نفعها لا يفي بضررها، وتبعاتها من كدّ البدن وشغل القلب في الدنيا والعذاب الأليم، والحساب الطويل في الآخرة، زهدت في فضولها، فلا تأخذ منها إلا ما لابد لك منه في عبادة ربك، وتدع التنعم والتلذذ إلى الجنة دار النعيم المقيم، في جوار رب العالمين، الملك القادر الغني الكريم، وعلمت أن الخلق لا وفاء لهم، وأن مؤونتهم أكثر من معونتهم، فيما

---

[243] - ا و ب لهذا.

[244] - إبراهيم بن ادهم بن منصور بن يزيد بن جابر ابو إسحاق العجلي، وقيل: التميمي، الخراساني البلخي، نزيل الشام مولده في حدود المائة هجرية، وتوفي سنة اثنتين وستين ومائة. وترجمته في (تاريخ دمشق) لابن عساكر في ثلاثة وثلاثين ورقة

[245] - ساقطة من بـ

يعنيك تركت مخالطتهم إلا فيما لابد لك منه تنتفع بخيرهم، وتجتنب ضرهم، وتجعل صحبتك لمن لا تخسر في صحبته، ولا تندم على خدمته وأنسك بكتابه، وملازمتك لبابه، فيكون لك بكل حال، وترى منه كل جميل وإفضال، وتجده عند كل نائبة في الدنيا والآخرة، كما قال عليه السلام: احفظ الله تجده حيث اتجهت. وعلمت أن الشيطان خبيث قد تجرد لمعاداتك فاستعذت بربك القادر القاهر من هذا الكلب اللعين، ولا تغفل عن مكائده ومصائده فتطرده بذكر الله تعالى. ولا تَعبَأنَّ بذلك فإنه يسير إذا ظهر منك عزيمة الرجال، وإنه كما قال تعالى إنه ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[246]. انتهى

وقد أتى في هذا الكتاب بالعجب العجاب، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[247]. ولما بلغت النفس بالتداني مَنح الإسعاف، أنشدت بلسان التهاني عند الانصراف: [من الكامل]

لله يـومٌ قـد نعمـت بأنسه	في طـور زيتـاء الأمـين بقدسه
أروي لنـهج العابـدين مـآثراً	تـنبي الملـون عـن حقيقـة نفسه

في بستان نور الله الجماعي

وفي يوم الأربعاء دعانا للنزهة الداعي، وهو رئيس الخطباء بالأقصى الشيخ نور الله الجماعي، فتوجهنا معه إلى بستان نفحت أزهاره، وخطبت على منابر أيكه أطياره، فبينما نحن في لذة الأنس نحتسي كأسه الرحيقي، وإذا السعد يبشرنا بوفود أستاذنا الصديقي، فتبسم لنا من الزهور الثغور، وبدا لنا قمر المسرة من وراء الستور. [من الكامل]

روض بـه وافـى الإمـام محـدثا	فيـه تَنَـزُّهَ كـالنواظر مـسمعي
اجـني زهـور العلـم مـن أدواحه	دانـي القطـاف بعَرفـه المتـضوِّعِ
والسعد قـال أقـم هنالـك مُسْعَداً	بالطـالع المـسعود غـير مـروع

فما أداره علينا من كؤوس خمره الرباني، نبذة من كرامات شيخنا سيدي عبد القادر الكيلاني، منها أنه كان وهو طفل لا يرضع في رمضان، فكان الناس إذا شكوا في الهلال رجعوا إليه، وكان الذباب لا يصيبه وراثة من جده المصطفى صلى الله عليه وسلم.

---

[246] - سورة النحل، الآية 99.

[247] - سورة ق الآية 37.

ومن كلامه من طابت نفسه أن يقرأ على أحد من أقرانه فتتلمذ له، وخرج من رعونات نفسه وذلك من أعلى رياضة النفس، بل أعلى من السهر والجوع والعزلة.

وقال: النعم واصلة إليك أجتليتها أم لا، والبلوى حالّة بك وإن كرهتها، فسلم لله في الكل يفعل ما يشاء، فإن أتتك نعمة فاشتغل بالذكر والشكر، أو بلوى، فالصبر والموافقة وأعلى منها الرضا والتلذذ بالقضا. ومن مناجاته رضي الله عنه: إلهي إنك أمرتنا بالوصية عند حلول المنية وقد تهجمت عليك، وجعلت وصيتي إليك بقدومي عليك، فأول ما تبتدي به من أمري، إذا نزلت في قبري وخلوت بوزري وأسلمني أهلي في غربتي، أن تؤنس وحشتي وتوسع حفرتي وتلهمني جواب مسألتي، ثم تكتب على صفحتي، بقلم عفوك اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين.

فإذا جمعت رفاتي وحشرتني يوم ميقاتي، ونشرت صحيفتي سيئاتي وحسناتي، فانظر في عملي، فما كان من حسن فاصرفه في زمرة أولائك، وما كان من قبيح فمل به إلى ساحل عتقائك، وأغرقه في بحر عفوك ووفائك، ثم أوقف عبدك بين يديك، فإذا لم يبق إلا افتقاده واعتماده عليك، فقس اللهم بين عفوك وذنبه، وبين غناك وفقره، وبين حلمك وجهله، وبين عزك وذله، ثم افعل به ما أنت أهله، فهذه وصيتي إليك تلطفاً بفضلك عليك. وأنا أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك، وأشهد أن الموت حق وأن الساعة لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، والحمد لله رب العالمين.

وقال ابن العربي[248]: وكان سيدي عبد القادر يقول قدمي على عنق كل ولي من باب التحدث بالنعمة، فلما احتضر قال يا ليت أمي لم تلدني، وكان تحت رأسه وسادة فقال: أنزلوا خدي عنها وضعوه على التراب، لعل الله يرحمني. ثم قال: هذا هو الحق الذي كنا عنه في حجاب. انتهى

وأطلعنا حضرة الأستاذ روضة النفوس على حكم للسيد العيدروس، أوردها في رحلته العراقية، الجامعة لكل فريدة سنية، فأحببتُ اندراجها في هذا المرقوم، تبركاً بها وبحسن درها المنظوم، وهي قوله رضي الله عنه: من أشغله حق ربه عن حقوق نفسه وحقوق أخوانه، فهو عبد الحضرة، ومن أشغله القيام بحقوق إخوانه عن القيام بحقوق ربه وحقوق نفسه، فهو عبد الرياسة، ومن أشغله القيام بحقوق ربه وحقوق إخوانه عن القيام

---

[248] - محمد العربي بن محمد العمري التجاني، صاحب كتاب (بغية المستفيد لشرح منية المريد) وهذا قول مشهور لأحمد التجاني مؤسس الفرقة التجانية الصوفية

بحقوق نفسه، فهو صاحب وراثة. ومن ذلك من تيسرت له الأخروية، وتعسرت عليه مطالبه الدنيوية، فهو من ورث النبيين، ومن تيسرت له مطالبه الأخروية والدنيوية فهو من أصحاب اليمين، ومن تيسرت له مطالبه الدنيوية وتعسرت عليه الأخروية فهو من المستدرجين، ومن تعسرت عليه الأخروية والدنيوية فهو من الممقوتين.

ومن ذلك العلم أربعة أجزاء: العلم به يعرف حق الله تعالى، والعمل بالعلم وهو القيام بأمر الله، والإخلاص في العلم وهو تصفية بالله، والبراءة من الحول والقوة وهو والاعتماد على الله، فمن عرف حق الله، وقام بأمر الله، وصفى ما لله، واعتمد على الله، فهو الإنسان المرتضى الولي لله المجتبي. وقال رضي الله عنه: السماع يشفي السقيم ويحيي الرميم، إذا وقع من أهله مع أهله في الوقت القابل لذلك والمحل اللائق به، وهو فتنة على المستمع بالخط والهوى، وعلى المسمع على هذا الوجه.

وقال رضي الله عنه ونفعنا به: الدنيا بمنزلة البادية المخوفة الكثيرة السراق والغصاب، والآخرة بمنزلة المدينة الخصيبة الآمنة، والإنسان خرج إلى الدنيا ليأخذ مما فيها فيقدمه للآخرة. فالعاقل كل ما حصل في يده شيء منها قدمه أمامه ليحتفظ له، ويأمن عليه، ويتنفع به إذا وصل لمحل استقراره وهي الآخرة. والجاهل يحتبس ما عنده معه بخلاً به، فإما أن يأخذه الغُصّاب من يده وهي في المثال آفات الدنيا، وإما أن يسافر من البادية التي لا قرار له بها على القهر منه، ويكلف ترك ما معه فيأخذه من يبقى في المحل الذي انتقل عنه. هذا مثال عجيب فليفهمه العاقل اللبيب.

قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[249]، ومن نظامه في ديوانه رضي الله تعالى عنه: [من الكامل]

لا تجــزعن إذا بليــت بــشدة	إن الــشدائد لا يــدوم مقامهــا
كــم شــدة نــام الفتــى لورودهــا	مــا هــبّ حتــى أدبــرت أيامهــا
فاصــبر علــى نــوب الزمــان فإنهــا	تمــضي ويبقــى بردهــا وســلامها

وأتممنا ذلك اليوم الهني، بهذا المجلس السني، نلتقط درّ الفوائد بذكر أهل الإشارات والتوفيق، فإن بذكرهم تنزل الرحمات الإلهية، وتتوارد العواطف الرحمانية، فتنشرح بذلك الصدور، وينجبر القلب المكسور. [من الكامل]

شــنف بــذكر ذوي المحبــة مــسمعي	فبــذكرهم تتنــزل الرحمــات

(249) - سورة العنكبوت، الآية 43.

فبحبـــهم ولــــصحبهم في قـــربهم وافـــى الـــسرور وطابـــت الأوقـــات

الخليل

وطال ما كنت بالشوق عليلاً بتزايد الغرام، تشوقاً لزيارة الخليل عليه من الله السلام والتحية والصلاة والسلام، لما ورد في ذلك من الأخبار وشهد بصحة ذلك الأئمة الأخيار، فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من لم يمكنه زيارتي فليزر قبر أبي الخليل عليه السلام. وعن وهب بن منبه، طوبى لمن زار قبر إبراهيم عليه السلام يمحو الله ذنوبه كلها ولو كانت مثل جبل أحد. وعنه أيضاً قال من زار قبر إبراهيم عليه السلام في عمره مرة لا يعنيه إلا ذلك، حشر يوم القيامة آمناً من الفزع الأكبر، ووقي فتاني القبر، وكان حقاً على الله أن يجمع بينه وبين إبراهيم في دار السلام.

وعن كعب الأحبار، من زار بيت المقدس وقصد إبراهيم وصلى فيه خمس صلوات، ثم سأل الله شيئاً أعطاه إياه وغفر ذنوبه كلها. وعنه من زار قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وسارة وربقة وليقة، أعطي بتلك الزيارة الكرامة الدائمة، والرزق الواسع، وبلغه من ذلك منازل الأبرار، ولا رجع إلى منزله إلا وقد غفر الله له ذنوبه كلها، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى إبراهيم عليه السلام يبشره أن الله تعالى غفر له.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم، ولن يتوسل به أحدٌ إلى الله جل ثناؤه في شيء، إلا لم يبرح حتى يرى الإجابة عاجلاً. قال صاحب أنس الجليل، قلت: وهذا مما لاشك فيه، فإني جربته بأمر وقع لي من أمور الدنيا كنت أتوقع الهلاك منه، فتوجهت إلى بيت المقدس إلى بلد سيدنا الخليل عليه السلام في ضرورة اقتضت سفري، فلما دخلت مسجده صلى الله عليه وسلم، دخلت إلى الضريح المشهور أنه قبر إبراهيم عليه السلام، وتعلقت بأستاره ودعوت الله تعالى، فما كان أسرع من أن فرج الله عني كربتي، ولطف بي وأزال عني ما أزعجني، فله الفضل سبحانه. انتهى [من الكامل]

الـــشوق حـــادٍ والغــــرام مقـــيم والحـــبُ بـــادٍ والفـــؤاد يهـــيم

فلـــي البـــشارة إن حللـــت بروضـــة فيهـــــا خليـــــل الله إبـــــراهيم

ففي ضحوة يوم الخميس ثاني الأيام، من ذي الحجة[250] شهر الله الحرام، ثنيت

---

(250) - يوم الخميس 7 حزيران عام 1731م يصادف الثاني من ذي الحجة وليس الأول منه

لزيارته عنان العزم، وبنيت همتي القاصرة على الجزم، فحدا بركابنا الحادي، وطفقت أطوي منشور ذلك الوادي، مع صحب من أعز الرفاق، ونحن سائرون على قدم الوفاق. نتدارس ما بيننا القرآن العظيم، فوصلنا عند دخول البلد إلى سورة إبراهيم، فما أحسن هذه الوقفة الظريفة، والمناسبة الشريفة اللطيفة. فلاحت لنا تلك القباب، وأشرفت أنوار ساكني هاتيك الرحاب، وفاح لنا من عرفها عبير الشمول، وبشّرنا حادي الركب بالوصول. [من الوافر]

جعلت الشوق في سيري دليلا	فأوصلني بمسراه الخليلا
وأشهدني به حرماً أميناً	جليلاً في مظاهره جميلا
سنا الأنوار تبدو من حماه	فتهدي الزائرين له سبيلا
بمنهله يروّي كل ظام	ويلقي عنده خبراً جزيلا
إذا ما الوافدون أتوا إليه	أصابوا بالحمى ظلاً ظليلا

فعندما وصلنا إلى الحرم، وشاهدنا الجناب المحترم، وقفنا على قدم الآداب، مقبلين ثرى تلك الأعتاب. فتذكرت أبياتاً لبعض أمراء الكلام، يليق بإنشادها في هذا المقام. [من الطويل]

وقفنا بأقدام الرعاية والهوى	على المقصد الأسنى فلاح لنا السنا
عشونا إليه كالفراش وكيف لا	تحن له الأرواح وهو لنا المنى
وحين رأينا النور طاشت عقولنا	وصرنا إلى حال يلذ لنا الفنا
قدمنا إليه باشتياقٍ وذلةٍ	وفقرٍ وتسليم فجاد وأحسنا

ثم دخلت الحرم بالخضوع والانكسار، ساكباً على الخدين دموعي الغزار، بعدما توشحت بالآداب، المطلوبة لزوار هذا الجناب، وابتدرت بزيارة السيد الخليل عليه السلام، ثم بزوجته السيدة سارة ذات الاحترام، ثم بابنه السيد إسحق الغيور، ثم بزوجته السيدة ربقة ذات الحبور، ثم بولده السيد يعقوب ثم بزوجته السيدة ليقا وقد لانت القلوب. ثم انعطفنا إلى جهة الكريم بن الكريم بن الكريم السيد يوسف الصديق ذي القلب الرحيم. ثم ما بدأنا به جعلناه ختاماً، وأهدينا الجميع صلاةً وسلاماً، واستمددنا[251] منهم عواطف الإمداد، وموانح الهداية والإسعاد، فنزيلهم حقاً لا يضام، وجارهم جدير بالإكرام، لأنهم

---

(251) أ و ب استمدينا.

أول من سن القرا للأضياف، وقابلوهم بحسن البشاشة والإسعاف، ولما سما سنا تلك القباب، وفاح عرف عبيرها وطاب، وسر القلب بذلك المشهد، وقف الصب وأنشد: [من الكامل]

هذا الحمى لي طاب منه المشهد ... فيه سنا سر النبوة يشهد

لاحت ضيا الأنوار من أرحابه ... فكأنما هو كوكب يتوقّد

وبدا العبير بعرفه متضوعاً ... نشر الكبا من طيبه يتصعد

ما مسك دارين العتيق وعطره ... عطراً إذا فاح الشذا المتصعد

يسمو به الغار الشريف كأنه ... فلك به كم لاح فيه فرقد

فيه الشموس مع البدور تقابلت ... ما مشهد إلا ثناه مشهد

إسحاق يعقوب الخليل نساؤهم ... ليقا وربقا وسارة إذا تشهد

ومشاهد منها الجمال مشاهد ... والحس يقضي والشواهد تشهد

بشرى لمن قصد الرحاب وزاره ... نعم الرحاب ونعم ذاك المقصد

فله بغفران الذنوب بشارة ... عظمى بها جاء الحديث المسند

فاركب لطرف العزم منك عزيمة ... نحو الحمى فلك البوارق ترشد

وإذا وصلت لسوح[252] دوحة روضة ... وبدت به أعلامه والمعهد

فأنزل عن الأكوار والتثم الثرى ... ورد الحمى فلنعم ذاك المورد

وادخل إلى الحرم الأمين وطفْ به ... حيث المنى في سوحه يتجدد

تلقى به حادي السرور منادياً ... أقبل لك البشرى تعز وتسعد

فارقى به فلك السعادة والعلا ... فعلى معارجه السعيدة يصعد

مازلت أحدو عيس[253] عزم تشوقي ... سيراً إلى أن لاح منه المشهد

وطفقت أنثر من كنوز نواظري ... درر المدامع لؤلؤا يتنضد

وحظيت من ذاك المقام بزورة ... تروي أحاديث القبول وتسند

---

(252) - ب سوحة

(253) - ب سير.

ووقفت فيه خائفاً مترجياً حسن النوال على البديهة أنشد
يا أيها المولى الخليل إغاثة من هول دهر بالحوادث يقصد
قصدي بهدي أولي الحقيقة أهتدي فيعوقني سوء الحظوظ ويقعد
والنفس تبدي لي زخارف نصحها ولكم تمنى بالسلوك وتوعد
أرجو الخلاص ولا ت حين تخلُصٍ وأنا بقيد أولي الهوى متقيد
أُمسي وأُصبح في البطالة رافلاً والعمر يفنى والشبيبة تنفد
فاسعف وجُدْ لي من علاك بلمحة فعسى على درج الهداية أصعد
بمقام خِلَّتكَ التي قد حزتها بتخصصٍ فلأنت فيها المفرد
وبجاه إسحاق الغيور وصنوه إسـ ـماعيل ذاك هو المفدى الأسعد
وكذاك يعقوب الصفيُّ ونجله فهو الكريم بن الكريم السيد
وبأحمد طه الأمين المجتبى فهو الذي يوم المخاوف يحمد
كن منجدي عند الحمام لعلني أحظى بحسن ختام عبد يسعد
روت الثقاة لنا حديث بشارةٍ عن كعبِ الأحبار تُرجم يُسنَد
من زار مولانا الخليل فإنه يأتيه عند الاحتضار ويشهد
وكما روينا في زيارة أحمدٍ من زار قبري بالشفاعة ينجد
فعليه صلى الله ما برق الضيا والآل مع صحب بهدي أيدوا
وعليك والآل الكرام تحية أبداً على طول المدى تتجدد
بالآي أنوار الرحاب وأنشدت هذا الحمى لي طاب منه المشهد

ثم صلينا العصر وانتظرنا مغربه، مشاهدين لتلك المقامات التي تعبر الأنوار مذهبه، وبتنا بالحرم ليلتان مع رفيق وصديق، نتلو بقية الختم بين الخليل وولده يوسف الصديق، فيسر الله لنا بتمامه، وفاح عبير مسك ختامه، ووافتنا من شرح صدورنا أعظم بشاره، ما يشير بقبول تلك الزيارة، فيا لها من ليلة بلغت فيها المنى، أذكرتني ليالي طيبة ومنى. [من البسيط]

ياليلة أذكرتني طيبة ومنى قد بت فيها قرير العين ذا أثر
نتيجة العمر إذ جات على قدر صح القياس بها ما الخُبْرُ كالخَبَر[254]

---

[254] - الخبر بضم الخاء وسكون الباء العلم بالشيء، والخبر بفتح الخاء والباء ما ينقل ويتحدث به

قال في أنس الجليل في ذكر سيدنا الخليل وأولاده الكرام:

سيدنا إبراهيم فهو الموصوف بالخلة والتعظيم، وأبو الأنبياء الأصفياء وأحد أولي العزم الأتقياء عليهم الصلاة والتسليم والجلالة والتكريم. [من الطويل]

من الرسل خمس هم أولو العزم فضلوا	بصبرهم فاصبر على الباس تغنم
محمد نوحٌ والخليل كليمهُ	وخامس روح الله عيسى بن مريم

أنزل الله على إبراهيم عشر صحف، وجعل له لسان صدق في الأخرين، أي ثناءً حسناً، فليس أحد من الأمم إلا يحبه، وأكرمه الله بالخلة، وأكثر النبيين من ذريته، وختم بذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قال أول من سمانا مسلمين إبراهيم عليه السلام وهو أول من ضرب بالسيف من الأنبياء، وكسر الأصنام، واختتن، ولبس السراويل والنعلين، ورفع يديه في الصلاة في كل خفض، ورفع وصلى أول النهار أربع ركعات جعلهن على نفسه، فسماه الله وفياً، فقال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾[255] وهو أول من أضاف الضيف، وثرد الثريد، وفرق الشعر، واستنجى بالماء، وقلم الظفر، وقص الشارب، ونتف الإبط، وأول من استاك وتمضمض، واستنشق بالماء وحلق العانة، وأول من صافح وعانق وقبل بين العينين موضع السجود، وأول من شاب. فقال ما هذا؟ فقال الله تعالى وقاراً. فقال: اللهم زدني وقاراً، فما برح حتى ابيضت لحيته. انتهى

ومن رأفته بهذه الأمة ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال مرحباً بالنبي الآدمي الذي بلغ رسالة ربه ونصح للأمة، يا نبي الله إنك لاق ربك الليلة وإن أمتك آخر الأمم وأضعفهم، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جلها في أمتك فافعل، وفي رواية فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. وفي رواية، فرأيت إبراهيم فرحب بي وسهل بي ثم قال: مر أمتك فليكثروا من غراس الجنة فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة. فقلت وما غراس الجنة؟ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. انتهى

والصحف المذكورة كانت أمثالاً ومواعظ، منها أيها الملك المبتلى المغرور إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض، ولكن بعثتك لترد دعوة المظلوم، فإني لا أردها وإن

---

[255] .. سورة النجم، الآية 37.

كانت من كافر. ومنها وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات، ساعة يناجي فيها ربه ويفكر في صنع الله، وساعة يحاسب فيها نفسه فيما قدم وأخر، وساعة يخلو فيها بحاجته من الحلال من المطعوم والمشروب وغيرهما، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شانه، حافظاً للسانه، ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه. انتهى

وابتلاه الله بعشر كلمات فأتمهن، أي أداهن تامات، وقام بها حق القيام، واختلف في الكلمات، فقال عكرمة عن ابن عباس هي ثلاثون من شرائع الإسلام، عَشْرٌ في براءة[256]: التائبون العابدون إلى آخره، وعشرٌ في الأحزاب إن المسلمين والمسلمات إلى آخرها، وعشرٌ في المؤمنين إلى قوله والذين هم على صلاتهم يحافظون، وفي سأل[257]: إلى قوله والذين هم بشهاداتهم قائمون.

وقال طاووس عن بن عباس ابتلاه الله بعشرة أشياء، وهي الفطرة خمس في الوجه قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس، وخمس في الجسد تقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة والختان والاستنجاء بالماء. انتهى

فكانت سنة حنيفية، في الملة السمحة المحمدية: [من الطويل]

وسن خليل الله للناس عشرة	وبالشرعة الغرا تسامت بفطرة
سواكٌ ختانٌ ثم نتفٌ لإبطه	وتاسعه استنجا فحلقٌ لعانة
بتلك ابتلاه الله مختبراً بها	وذلك نص الذكر ثاني سورة
فلا تك عن نهج الخليل مقصراً	وكن ناهجاً فيها بحسن طريقة

قال الخطيب[258]: وفي الخبر أن إبراهيم أول من قص الشارب، وأول من اختتن، وأول من قص الأظفار، وأول من رأى الشيب فقال: يا رب ما هذا؟ قال: الوقار، قال: يا رب زدني وقاراً. وقال قتادة[259]: هي مناسك الحج، أي فرائضه وسننه، كالطواف

---

[256] - يريد السورة التي أولها: براءة من الله ورسوله (التوبة) ويقصد الآية 112.

[257] - يريد السورة التي أولها: سأل سائل بعذاب واقع (المعارج) ويقصد الآيات من 23 إلى 33.

[258] - الخطيب ابو بكر احمد بن علي بن ثابت بن احمد بن مهدي البغدادي، محدث زمانه ولد سنة اثنتين وتسعين وثلاث مئة وكتب الكثير، وتقدم في هذا الشان، وجمع وصنف وصحح، وعلل وجرح، وعدل وارخ واوضح، وصار احفظ اهل عصره على الاطلاق ترجمته في سير اعلام النبلاء للذهبي جزء 18 صفحة 270 ترجمة 137.

[259] - قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، وقيل: قتادة بن دعامة بن عكابة، حافظ عصره، وواحد من كبار المفسرين والمحدثين ولد في سنة ستين وتوفي سنة ثماني عشرة ومائة للهجرة

والسعي والإحرام والتعريف وغيرهن. وقال الحسن[260]: ابتلاه بالكواكب والقمر والشمس فأحسن فيهما النظر، وعلم أن ربه دائم لا يزول، وبالنار فصبر عليها. وقال مجاهد[261]: هي الآيات التي بعدها في قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[262] إلى آخر القصة. انتهى

عاش إبراهيم مائة وخمساً وسبعين سنة، وقيل مائة وتسعين وقيل مائتين من السنين، ولم يمت صلى الله عليه وسلم حتى بعث الله ولده إسحاق إلى أرض الشام، ويعقوب إلى أرض كنعان، وإسماعيل إلى جرهم، ولوطاً ابن أخته إلى سدوم، فكانوا أنبياء على عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وأمّا إسماعيل الذبيح عليه الصلاة والسلام، فقد روي أن إبراهيم الخليل لما سار إلى مصر ومعه زوجه سارة، وهبها فرعون مصر هاجر. قدم إلى الشام وأقام بين الرملة وإيليا[263]، وكانت سارة لا تحبل، فوهبت هاجر لإبراهيم فواقعها، فولدت إسماعيل عليه السلام، وكان عمر إبراهيم إذ ذاك ستاً وثمانين سنة، فحزنت سارة لذلك فوهبها الله تعالى إسحاق، كما سيأتي، ثم غارت سارة من هاجر وابنها وطلبت من إبراهيم أن يخرجهما عنها، فسار بهما إلى الحجاز وتركهما بمكة بإذن الله تعالى، وليس يومئذ بمكة أحد ولا بها ماء، فوضع عندهما جراباً فيه تمر وسقا فيه ماء، ثم قفّى إبراهيم عليه السلام منطلقاً، فتبعته هاجر وقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء. وقالت له ذلك مراراً وهو لا يلتفت إليها، فقالت له الله أمرك بهذا؟ فقال: نعم. قالت: إذاً لا يضيعنا الله، ثم رجع فانطلق إبراهيم عليه السلام حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه. استقبل القبلة بوجهه ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم

---

(260) - الحسن بن يسار يكنى بأبي سعيد ولد قبل سنتين من نهايه خلافه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولد في المدينة عام واحد وعشرين من الهجرة، وفي سنه 37هـ انتقل إلى البصرة، فكانت مرحلة التلقي والتعلم، حيث استمع إلى الصحابه الذين استقروا في البصرة لمده ست سنوات وفي السنه 43هـ عمل كاتبا في غزوه لأمير خراسان الربيع بين زياد لمده عشر سنوات رجع من الغزو واستقر في البصرة حيث اصبح اشهر علماء عصره ومفتي البصرة حتى وفاته عشية يوم الخميس في أول رجب سنة عشر ومئة للهجرة وعاش ثمانياً وثمانين سنة

(261) - مجاهد بن جبر المكي التابعي، وقد نزل مصر، وروى عن مسلمة بن مخلد.

(262) - سورة البقرة، الآية رقم 124.

(263) - إيليا كابيتولينا اسم مدينة القدس الذي اكتسبته عام 135م على يد هدريان. وقد استخدم العرب المسلمون هذا الاسم عند فتح القدس في عهد عمر بن الخطاب

مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[264] وقد تقبل الله دعاءه وحقق رجاءه. انتهى. إلى آخر ما كان من ظهور زمزم وبناء الكعبة الشريفة وقصة الذبح كما هو مفصل في كتب التفسير والسير بأفضح إشارة وأوضح عبارة.

واختلف في أيهما الذبيح إسماعيل أم إسحاق؟ فالأول قول ابن عباس وسعيد بن المسيب والشعبي والحسن ومجاهد، والثاني قول علي وابن مسعود وكعب ومقاتل وقتادة وعكرمة والسدي.

فمن قال بالأول، قال إن موضع الذبح بمنى، ومن قال بالثاني قال موضع الذبح بالشام على ميلين من إيليا، وزعم اليهود إنه كان على صخرة بيت المقدس.

قال القرطبي سأل عمر بن عبد العزيز رجلاً كان من علماء اليهود أسلم وحسن إسلامه، أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل، ثم قال: يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم معاشر العرب على أن يكون أبوكم هو الذي أمر الله بذبحه، ويزعمون أنه إسحاق أبوهم.

عاش إسماعيل مائة وسبعاً وثلاثين سنة، ومات بمكة ودفن عند قبر أمه هاجر بالحجر، وكانت وفاته بعد وفاة أبيه إبراهيم بثمان وأربعين سنة تماماً، عليه وعلى أبيه الصلاة والسلام.

وأما إسحاق فهو ابن إبراهيم خليل الرحمن حملت به في ليلة خسف الله بقوم لوط، روي أن الله تعالى لما أراد هلاك قوم لوط، أمر رسله من الملائكة أن ينزلوا بإبراهيم فيبشروه وسارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب. فضحكت سارة وقالت: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾[265] وكان سن إبراهيم إذ ذاك مائة وعشرين سنة، وعمر سارة تسعين سنة، ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[266].

ومن ولد إسحاق الروم واليونان والأرمن ومن يجري مجراهم وبنو إسرائيل. عاش إسحاق مائة وثمانين سنة ومات بالأرض المقدسة، ودفن عند أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

وأما يعقوب فهو ابن إبراهيم نبيٌ بن نبيٌ بن نبي، وهو الذي يسمى إسرائيل، قيل

---

[264] - سورة إبراهيم، الآية 37.

[265] - سورة هود، الآية 72.

[266] - سورة هود، الآية 73.

معناه صفوة الله، مولده وعمر إسحاق ستون سنة، وقد روي أن والده إسحاق عليه الصلاة والسلام أوصى إليه أن لا ينكح امرأة من الكنعانيين، وأن ينكح من بنات خاله، وكان مسكن يعقوب القدس، فتوجه إلى خاله فأدركه الليل في بعض الطريق، وبات متوسداً حجراً فراى فيما يرى النائم، أن سلماً منصوباً إلى باب من أبواب السماء عند راسه والملائكة تنزل منه وتعرج عليه[267]، فأوحى الله إليه إني إلهك إله آبائك إبراهيم وإسحاق، وقد ورّثتك هذه الأرض المقدسة لك ولذريتك من بعدك، وباركت فيك وفيهم، وجعلت لكم الكتاب والحكم والنبوة، ثم إني معك أحفظك حتى أردك إلى هذا المكان، فاجعله بيتاً تعبدني فيه أنت وذريتك فهو بيت المقدس. انتهى

وقد تأول بعض العلماء معنى حديث أبي ذر حين قال، قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أولاً؟ قال المسجد الحرام، قال قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما قال أربعون سنة على بناء يعقوب المذكور، بعد بناء إبراهيم الكعبة الشريفة، فيكون بناء سليمان على أساس بناء يعقوب لا تجديد.

وتزوج يعقوب ليّا فرزق منها روبيل ثم شمعون ولاوي ويهودا، ثم تزوج أختها راحيل فرزق منها يوسف وبنيامين. وولد له من امرأتين ستة أولاد، فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلاً هم الأسباط الاثني عشر، وهم روبيل [رأوبين] وشمعون ولاوي ويهوذا ويساخر [يساكر] وريلون [زبولون] ويوسف وبنيامين ودان وتعتالى [نفتالي] وكاد [جاد] وابشر [أشير][268]. وسموا الأسباط لأنه ولد لكل منهم جماعة.

عاش يعقوب مائة وسبعاً وأربعين سنة، ومات بمصر، وأوصى أن يحمل إلى الأرض المقدسة ويدفن عند أبيه وجده، فحمله ابنه يوسف إلى حبرون، ودفنه عند أبيه إسحاق وقبره بحذاء قبر إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام من جهة الشمال، بداخل الغار، كما رويت بذلك الأخبار.

وأما يوسف الصديق فهو بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم فهو نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله وخليله صلوات الله عليهم أجمعين.

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم لله. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فأكرم الناس يوسف نبي

---

[267] - في ب تنزل عليه وتعرج منه

[268] - ابناء يعقوب كما ترد اسماؤهم في الكتاب المقدس: راوبين، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وزبولون، ويساكر، ودان، وجاد، واشير، ونفتالي، ويوسف، وبنيامين ومن الواضح خطأ الناسخ في النسختين ا و ب

الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله. وفي رواية قال، قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم جاءني الداعي لأجبت. انتهى

ولد يوسف وعمر يعقوب إحدى وتسعون سنة، وفارق أباه وعمره ثماني عشرة سنة، وبقيا متفرقين إحدى وعشرين سنة، وكان سبب افتراقهما واجتماعهما على ما ذكره الله تعالى في كتابه العزيز، وقد أعطي يوسف شطر الحسن، فكان إذا سار في أزقة مصر يتلألأ نور وجهه على الجدران، وأمّا حليته عليه الصلاة والسلام، فكان أبيض اللون حسن الوجه، جعد الشعر ضخم العينين، مستوي الخلق غليظ الساعدين والعضدين والساقين، أقنى الأنف صغير الصرة، بخده الأيمن خال أسود، وكان ذلك الخال يزين وجهه، وبين عينيه شامة تزيده حسناً كأنه القمر ليلة البدر، وكان إذا ابتسم رأيت النور يبدو من ضواحكه، وإذا تكلم رأيت شعاع النور يتفور من بين ثناياه، صلى الله عليه وسلم. وكان عمره لما توفي والده يعقوب ستاً وخمسين سنة، فلما دفنه عند أبيه كما تقدم عاد يوسف إلى مصر. وتوفي يوسف وعمره مائة وعشرون سنة، ونزل عليه جبريل أربع مرات، ولما توفي بمصر دفن بها، حتى كان زمان موسى عليه الصلاة والسلام، فبينه وبين موسى أربعمائة سنة.

رُوي أنه لما سار موسى من مصر ببني إسرائيل إلى التيه، أوحى الله إلى موسى عليه السلام أن احمل يوسف إلى بيت المقدس عند آبائه، فلم يدر أين، هو فسأل بني إسرائيل فلم يعرف أحد منهم أين هو، فقال له شيخ عمره ثلاثمائة سنة: يا نبي الله ما يعرف قبر يوسف إلأ والدتي، قال قم معي إلى والدتك، فقام معه ودخل منزله فأتاه بقفة فيها والدته، فقال لها موسى عليه السلام: ألك علم بقبر يوسف؟ قالت: نعم أدلك عليه على أن تدعو الله أن يرد لي شبابي إلى سبعة عشر سنة، ويزيد في عمري مثل ما مضى، فدعا الله موسى لها وقال لها: كم عشت قال تسعمائة سنة. فعاشت ألفاً وثمانمائة سنة. وأرته قبر يوسف عليه السلام، وكان في وسط نيل مصر في صندوق من رخام، وذلك أنه لما مات تشاجر عليه الناس كل يحبّ أن يدفنه في محلته لما يرجو من بركته عليه السلام، فاجتمعوا على ذلك حتى هموا أن يقتتلوا، فرأوا أن يدفن في النيل فيمر عليه الماء ثم يصل إلى مصر فيكونوا كلهم شركاء في بركته، ففعلوا ذلك، فلما علم موسى مكانه أخرجه منه وهو في التابوت، فحمله على عجل حديد إلى بيت المقدس، وقبره بالبقيع[269]، خلف الحيز السليماني حذاء قبر يعقوب، وجوار جديه إبراهيم وإسحاق عليهم السلام. انتهى

---

(269) - البقيع مقبرة المدينة المنورة وتسمى مقبرة القدس بقيع بيت المقدس ايضاً.

وبما تقدم، وبما سيأتي في قصة العيص، علم بالتواتر أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب وزوجاتهم من داخل الغار، وأن يوسف خارج الغار، كما روى الخلف عن السلف.

وقد قال مالك بن أنس[270] رضي الله عنه إن نقل الخلف عن السلف أصح الحديث، لأن الحديث ربما يقع فيه الخطأ، والنقل لا يقع فيه خطأ، ولا يطعن في ذلك إلا صاحب بدعة مخالف. انتهى

ويؤيد ذلك ما رواه ابن عساكر في قصة أبي بكر الإسكاف[271] والصعلوك، وبما رواه الحسن بن عبد الواحد عن أبي زرعة[272] قاضي فلسطين.

وبالحرم من المهابة والجلال، ما يحقق صدق هذه الأقوال: [من الكامل]

حرم الخليل من المهابة قد كسى	أعظم به حرماً شريفاً أقدسي
سر النبوة لاح من أستاره	وسما علاً فوق الأثير الأطلس
إذ حله الرسل الكرام وأهلهم	سبعاً رقوا هام الجواري الكنس
فبسرهم ضاء الوجود ونورهم	كالسبع إلا أنه لم يطمس
يعقوب إسحاق الخليل ويوسف	ليقا وريقا سارة المستأنس
من حانة التقديس فيه سلافة	تنشي النفوس فما سلاف الأكؤس
فاسعى إلى أدنانها مستنشقاً	عرف الكيا ولكأس معناها احتسى
كي تحتط بمعارف وعوارف	وبحلة العز المؤثل تكتسي
وبطور سينا القرب لاحت جذوة	أقبل كموسى لا تخف واستأنسس
واخلع لنعليك الذين يعوقا	ن عن المسير إلى الرحاب الأقدسي
وادخل إلى الحرم الأنيس وطف به	واشهد لكعبة حسن ذاك المجلس
ثم اقتبس نور الهداية راقيا	فلك العلا بمعارج من سندسي
ولك البشارة من ألست بربكم؟	بزيارة فيها حياة الأنفس

---

[270] - مالك بن انس إمام دار الهجرة، وصاحب احد المذاهب الفقهية الأربعة

[271] ابو بكر الإسكاف محمد بن احمد البلخي الحنفي المتوفى سنة 333 هجرية، وهو محدث مشهور باحاديث المهدي والأعور الدجال

[272] - عبيد الله بن عبد الكريم ابو زرعة الرازي، المتوفى سنة 264 هجرية، من اعلام ائمة الحديث والرواية، ترجم له الذهبي وابن حجر العسقلاني واليافعي والخطيب البغدادي

فيها احتظي وحوى المسرة أسعد بقبولها حلل العناية قد كسي

يهدي الصلاة مع السلام تحية منه لكسان المفار الأنْفَسِ

وليوسف الصديق لوط المجتبى والعيص مع موسى الكليم ويونس

وكذا لداود المنيب ونجله والأنبياء الطاهرين القدّسي

ما لاح بالأفلاك نجم زاهر يهدي حداة العيس جِنحُ الحَنْدَسِ

حسبي فقد وافيتهم مترجياً حسن الختام بسوح بيت المقدس

بني نعيم

ولما ارتفع الشمس، وقرت بمأمولها النفس، وصليت الضحى بذلك المقام، سارعت لزيارة سيدنا لوط عليه السلام، وهو بقرية كفر بريك، بعيدة عن الخليل نحو فرسخ، والآن مسماة بقرية بني نعيم[273]، والثاني للأول يفسخ، فوردنا رحابه الوسيع وشربنا من كأس مدده المريع ومرغنا على أعتابه الخدود، وفاضت العين بدمعها الموجود، وزرنا المغارة التي بصدر مسجده الجليل، وإذا بها سبعون نبياً[274] كما قيل، وما يلوح بها من لوائح الأنوار تشهد بصحبة هذه الآثار. [من البسيط]

تلك المعاهد قد لاحت لوائحها وفاح لي من عبير الند فائحها

تزهو بمضجع لوط والكرام بها مآثراً يبهج الزوار لائحها

تخالها من خلال الزائرين[275] لها رياض أنسٍ بها تشدو صوادحها

مشاهد بلسان الحال ناطقة أبدت نتائج يغني القول شارحها[276]

وافيتها فضو شوق ابتغى مددا لعل تمنحني فيضاً موانحها

---

[273] - بني نعيم الآن مدينة عربية تتبع محافظة الخليل تقع إلى شرق مدينة الخليل على بعد 7 كم تقريباً وتربطها بها عدة طرق معبدة عرفت بلدة بني نعيم في العهد الروماني باسم قرية كفار بروشا الحصينة وبعد الفتح العربي الإسلامي عرفت باسم كفر بريك .ولما نزلت قبيلة النعيميين جنوبي فلسطين واستقرت طائفة منها في ناحية كفر بريك نسبت القرية إليهم، وأصبحت تعرف منذئذ باسم بني نعيم، وينسبها البعض لنعيم الداري او لاسم كنعاني قديم بني عام.

[274] - ب ورسولاً.

[275] - في ا و ب لخلالها الزائرون

[276] - ب راجحها.

زيـارتي أبتغـي حـسن الختـام بهـا	عنـد التمـام كمـا طابـت فواتحهـا
أهــديهم صــلة التـسليم أجمعهــم	مـا إن شـدا بريـاض القـدس مادحهـا

ولوط عليه السلام هو ابن أخي إبراهيم عليه السلام، كان يحبه عمه حباً شديداً، وكان ممن آمن بعمه وهاجر معه إلى مصر وعاد إلى الشام، فأرسله الله إلى أهل سدوم وكانوا أهل كفر وفاحشة كما هو في القرآن العزيز، فلم يؤمنوا فأهلكم الله، وكانت قراهم خمس مدائن فيها أربعمائة ألف وقيل أربعة آلاف ألف، فرفع جبريل المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب، فلم يكفت لهم آنية، ولم ينتبه لهم نائم، فجعل أعاليها أسافلها . انتهى

ثم توجهت إلى مسجد اليقين وبه مرقد الخليل على التعيين. قال صاحب أنس الجليل: وعلى فرسخ من حبرون، بجبل صغير مشرف على بحيرة زغر موضع قريات لوط، وثم مسجد فيه مرقد إبراهيم عليه السلام، وغاص في الحجر نحواً من ذراع يقال إن إبراهيم عليه السلام لما رأى قريات لوط في الهواء[277] رقد ثم قال أشهد أن هذا لَهُو حق اليقين، فلذا سمي بمسجد اليقين، وبظاهر المسجد المذكور مغارة بها قبر فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم، مكتوب عند قبرها بالكوفي. [من البسيط]

أسكنت من كان في الأحشاء مسكنه	بـالرغم منّـي بـين الـترب والحجـر
أفـديك فاطمــة بنــت بــن فاطمــة	بنـت الأئمـة بنـت الأنجـم الزهـر

وحول مسجد اليقين قبور قوم صالحين يغني عن تفصيل شرحها، ما يشرق من ضياء سفحها، وقفت بأعتابهم، ولذت بجنابهم، وقد أكرمنا الشيخ صبيح التميمي الداري غاية الإكرام، وهو متشرف بخدمة سيدنا لوط عليه السلام، وهو من ذرية تميم الداري الصحابي المشهور، الذي وَصْفُهُ في الكتب المعتمدة مذكور، أسلم سنة تسع من الهجرة لما قدم هو وأخوته على النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وسألوا المصطفى أن يُقطعهم أرضاً من الشام، فأقطعهم حبرون[278] وما حولها، وكتب لهم ذلك في قطعة أديم من خف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وصورته[279]:

---

[277] - ا و ب في الهوى

[278] - الاسم التوراتي لمدينة الخليل

[279] تشيرالمصادر الإسلامية بالتواتر إلى ان تميماً الداري قدم إلى المدينة في عام الوفود [9هـ] مع وفد عشيرته

بسم الله الرحمن الرحيم[280]

هذا ما أنطى[281] محمد رسول الله لتميم

الداري وأخوته حبرون والمرطوم

وبيت عينون وبيت إبراهيم وما فيهن

نطية بت بذممهم ونفذت وسلمت ذلك[282]

لهم ولأعقابهم فمن آذاهم آذاه الله فمن

آذاهم لعنه الله شهد عتيق بن أبي

قحافة وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان

وكتب علي بن أبي طالب وشهد.

وهذا الإقطاع مستمر بيد ذرية تميم يأكلونه إلى يومنا هذا، وهم مقيمون ببلد الخليل ونواحيها، وهم طائفة كثيرة يقال لهم الدارية، وهذا بركة النبي صلى الله عليه وسلم. وتميم الداري رضي الله عنه، كان كثير التهجد يختم القرآن في ركعة، فنام ليلة لم يقم فيها، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع.

صلى ليلة بـ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً﴾[283] وجعل يرددها ويبكي حتى أصبح. وعن صفوان بن سليم أنه قال قام تميم الداري في المسجد بعد أن صلى العشاء فمر بهذه الآية ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾[284] فما خرج منها حتى سمع آذان الصبح. واشترى حلة بألف كان يقوم فيها الليل. ولقد قال

[الداريين]، و هم من قبيلة (لخم) القحطانية التي سكنت فلسطين و بلاد الشام و العراق بعد انهيار سد مأرب و هناك روايات ان وفد الداريين اللخميين قد وفد على النبي قبل الهجرة و قد أعطوا عهد إقطاع من النبي صلى الله عليه و سلم ثم أكده صلى الله عليه و سلم بالإنطاء المشهور الذي ورد بأكثر من صيغة في المصادر في عام الوفود.

ويرد نص (الانطاء) هذا في موسوعة (صبح الأعشى) للقلقشندي الذي قال إنه اطلع عليه وهذا نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما انطى محمد رسول الله لتميم الداري و إخوته حبرون و المرطوم و بيت عينون و بيت إبراهيم و ما فيهن نطية بت بذمتهم و نفذت و سلمت ذلك لهم و لأعقابهم فمن اذاهم اذاه الله، فمن اذاهم لعنه الله. شهد عتيق بن ابو قحافة، و عمر بن الخطاب، و عثمان بن عفان و كتب علي بن ابو طالب و شهد.) ومن الواضح أن اللقيمي نقله عن هذا المصدر.

(280) - البسملة ساقطة من ا .

(281) ا و ب انطا.

(282) - ساقطة من ا .

(283) - سورة الجاثية، الآية 21

(284) - سورة المؤمنون، الآية 104.

عمر لبعض من قدم عليه[285] اذهب وانزل على خير أهل المدينة، فنزل على تميم، قال: فبينما نتحدث إذ خرجت نار الحرة، فجاء عمر إلى تميم فقال يا تميم أخرج فصغر نفسه ثم قام فحاشها حتى أدخلها الباب الذي خرج منه، ثم اقتحم في أثرها ثم خرج فلم يضره[286]. وهو أول من قص في المسجد بإذن عمر، وأول من أسرج المساجد.

حديث الجساسة

وقد روى المصطفى صلى الله عليه وسلم عنه- أي عن تميم الداري- حديث الجساسة، وتلك منقبة شريفة لم يشاركه فيها غيره، وهي من رواية الأكابر عن الأصاغر.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن بنت قيس قالت: سمعت منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي الصلاة جامعة، فخرجت إلى المسجد فصليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قضى صلاته جلس على المنبر وهو يضحك، فقال: ليلزم كل إنسان مصلاه، ثم قال: أتدرون لم جمعتكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكن جمعتكم لأن تميماً الداري كان رجلا نصرانياً فجاء فبايع وأسلم، وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن المسيح الدجال، حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام، فلعب بهم الموج شهراً في البحر، ثم أرفئوا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس، فجلسوا في قرب السفينة -بضم الراء جمع قارب بكسرها سفينة صغيرة يقال لها سنبوك[287]- فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابة أهلب كثير الشعر، لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر، فقالوا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة.

قالوا: وما الجساسة؟ قالت: أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق، قال: لما سمت لنا رجلاً فرقنا منها أن تكون شيطانة.

قال: فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خَلْقاً،

---

[285] - ساقطة من ب.

[286] - رواه البيهقي والبغوي وغيرهم

[287] - السنبوك سفينه من السفن الشائعه في الخليج العربي مقدمتها زاويه حاده ومؤخرتها شبه مربعه، ويستخدم النوع المتوسط منها في الخليج للغوص، وفي اليمن يصنع نوع كبير منها يجتازون به المحيطات الى الهند وزنجبار، وتختلف احجام هذه السفينه حسب الحاجه ويقال ان السنبوك في الأصل يعتبر من سفن المصريين القدماء، وهناك قول بأن اصل التسمية فارسية وأشار الرحالة ابن بطوطة في إحدى رحلاته قائلاً: (ركبنا من ساحل البصرة في صنبوق إلى الأبلة، وبينها وبين البصرة عشرة أميال)

وأشده وثاقاً، مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد، قلنا: ويلك، ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري، فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية، فصادفنا البحر حين اغتلم، فلعب بنا الموج شهراً، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقربها، فدخلنا الجزيرة فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر لا يدرى ما قبله من دبره من كثرة الشعر، فقلنا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة، قلنا: وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير فإنه إلى خبركم بالأشواق، فأقبلنا إليك سراعاً وفزعنا منها، ولم نأمن أن تكون شيطانة، فقال: أخبروني عن نخل بيسان، قلنا: عن أي شأنها تستخبر، قال: أسألكم عن نخلها هل يثمر؟ قلنا له: نعم، قال: أما إنه يوشك أن لا تثمر، قال: أخبروني عن بحيرة الطبرية، قلنا: عن أي شأنها تستخبر، قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء، قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب، قال: أخبروني عن عين زغر، قالوا: عن أي شأنها تستخبر، قال: هل في العين ماء، وهل يزرع أهلها بماء العين، قلنا له: نعم، هي كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها، قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب، قال: أقاتله العرب؟ قلنا: نعم، قال: كيف صنع بهم، فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه، قال لهم: قد كان ذلك، قلنا: نعم، قال: أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه، وإني مخبركم عني، إني أنا المسيح، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج، فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة، فهما محرمتان علي كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحدا منهما استقبلني ملك بيده السيف صلتاً يصدني عنها، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها، قالت، أي فاطمة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعن بمخصرته في المنبر، هذه طيبة هذه طيبة هذه طيبة، يعني المدينة، ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟ فقال الناس: نعم، فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة، ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن، لا بل من قبل المشرق، ما هو من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق ما هو، وأومأ بيده إلى المشرق، قالت فحفظت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم[288]. انتهى، والنقب الطريق بين الجبلين.

---

[288] هذا الحديث من أكثر الأحاديث التي اثير الجدل حولها وحول تميم الداري ورواياته، وهو حديث اخرجه الإمام مسلم، وقد جعل الأئمة والحفاظ رواية النبي صلى الله عليه وسلم لهذه القصة من مناقب تميم رضي الله عنه، ومن رواية الأكابر عن الأصاغر، كما فعل الحافظ ابن حجر في ترجمته في الإصابة [1/368]، وفتح الباري [46/12]، والإمام النووي في شرح مسلم، وقد طعن فيه الكاتب الشيخ محمود ابو رية في كتابه (اضواء على السنة المحمدية) وعقد فصلاً تحت عنوان (المسيحيات في الإسلام) اعتبر فيه أن حديث الجساسة من مسيحيات الصحابي تميم الداري

وسكن تميم بيت المقدس بعد قتل عثمان، ومات سنة أربعين ودفن ببيت جبريل[289] من أرض فلسطين، رضي الله عنه وعن كل الصحابة أجمعين. [من الكامل]

رَوت الألى في مسند الآثار	لمناقب خصت تميم الداري
فالمصطفى عنه حديثاً قد روى	يعزى إلى جساسة الأخبار
أنطاه أرضاً مع ذويه نطية	بحما الخليل لآخر الأعصار
والنار لما أوهجت في حرة	وافا لها فأعادها للغار
بإجازة الفاروق ثم بمسجد	أضحى يقص مناقب الأبرار
واستن مبتدئاً سراج مساجد	في الليل فهو مطالع الأنوار
كم ليلة أمسى يردد آية	من ركعة في ظلمة الأسحار
وبطيبة الغراء طاب مقامه	بالمصطفى والصحب والأنصار
فطُوي بساط القرب عنها عندما	سيف الردى أردى شهيد الدار
وانحاز للقدس الشريف تحولاً	واختاره عن سائر الأمصار
وأقام فيه للعبادة سالكاً	نهج الهدى في فتية الأخيار
وببيت جبريل السني ضريحه	عبق الشذا من عرفه المعطار
فاقصد جناب رحابه وانزل به	وارو الظما من بحره الزخار
تلقى شموس معارف وعوارف	لاحت له من صحبة المختار
لا زال مخضل الثرا عصر السنا	سحت عليه رحمة الغفار

ثم رجعنا إلى الحرم بسرعة، حرصاً على إدراك صلاة الجمعة، فأدركنا الخطيب قبل صعود المنبر، والمؤذن على المنارة قائلاً الله أكبر، فصلينا في ذلك المشهد العظيم، وحصل لنا من الأنس الحظ الجسيم. ولم نزل في تلك الرحاب إلى العصر معتكفين، نصلي ونسلم على جميع الأنبياء والمرسلين، فألهمت صلوات سنية، ووسمتها بالفيوضات الإبراهيمية، فأحببت إيداعها ضمن هذه السطور، عسى أن تكون ذخيرة لي يوم النشور.

الذي اراد ان يلوث الدين الإسلامي بإدخال المسيحيات فيه

[289] اسمها بيت جبرين، وهي قرية عربية كبيرة تقع في جنوب الضفة الغربية، جرى تدميرها وإجلاء سكانها بعد نكبة عام 1948. ولا تزال بعض آثارها ماثلة للعيان تقع في الشمال الغربي من مدينة الخليل، وترتفع 287 م عن سطح البحر، وهي اكبر قرى الخليل مساحة اسمها آرامي مشتق من القوة

وهـي: بـسم الله الـرحمن الـرحيم الحمـد لله ذي المواهـب الـسنية، والـصلاة علـى صاحب المراتـب الـسنية وبعـد. فهـذه صـلاة قدسـية، علـى الـذوات الأقدسـية، تتلـى عقـب الصلوات المرضيّة، تحصيلاً للأخلاق الرضية، يتحلى الظمآن من كؤوسها الشهية، ويتملى ذوو[290] العرفان بشموسها البهية، وردت الإشارات الربانية مـن خـزائن الغيـوب الرحمانيـة، بإبراز هذه الدرّة النورانية في الروضة الشريفة الخليلية، ومقام الخلة الإبراهيمية. فعليهم من فيوض الحضرة العلية، أو في صلاة وتسليمات زكية، تتوالى بفتوحات مكيـة، ونفحـات خواتمها مسكية، ما سرت نسمة يمانية مدنية.

مولاي صل وسلم على سيدنا ومولانـا محمـد صـلاةً وسـلاماً توصلني بهـا إلى أرفـع مقام يحمد.

وصـل وسـلم علـى سـيدنا ومولانـا آدم صـلاةً وسـلاماً أُقْدَمُ بهمـا علـى الله أحسن مقدم.

وصـل وسـلم علـى سـيدنا ومولانـا شـيث صـلاةً وسـلاماً أسـير بهمـا إلى الله الـسير الحثيث.

وصل سلم على سيدنا ومولانا نوح صلاةً وسلاماً يبتهج بها القلب والسر والروح.

وصل سلم على سـيدنا ومولانـا إبـراهيم صـلاةً وسـلاماً تكسو بهمـا حلـل التكـريم والتعظيم.

وصـل وسـلم علـى سـيدنا ومولانـا إسمـاعيـل صـلاةً وسـلاماً تتخفـى بهـا بمظـاهـر التبجيل والتكميل.

وصل سلم على سيدنا ومولانا إسحاق صلاةً وسـلاماً تـورثني بهمـا الفـردوس أوفـى استحقاق.

وصل سلم علـى سـيدنا ومولانـا العيص صـلاةً وسـلاماً تخلصني بهمـا مـن الأغيـار حسن تلخيص.

وصل سلم علـى سـيدنا ومولانـا يعقـوب صـلاةً وسـلاماً تكشف بهمـا عـن بـصيرتي أستار الغيوب.

وصل سلم على سيدنا ومولانا يوسـف الصديق صلاةً وسلاماً تـدخلني بهمـا ميـادين التحقيق والتصديق.

---

[290] - ا ذو

وصل وسلم على سيدنا ومولانا لوط صلاةً وسلاماً تزيل بهما عن القلب اليأس والقنوط.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا موسى الكليم صلاةً وسلاماً تشفى بهما القلب المُعَنَّى الكليم.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا شعيب صلاةً وسلاماً ينهاني بهما عن موارد الغيب.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا إدريس صلاةً وسلاماً ترفعني بهما إلى مقام التقديس.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا أيوب صلاةً وسلاماً تُجلّي بهما عنا غمام الهموم والكروب.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا يونس صلاةً وسلاماً تجعلهما في القلب مؤنس.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا داود صلاةً وسلاماً تورثني بهما كل خلق محمود.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا سليمان صلاةً وسلاماً تشهدني بهما مقام الإيمان والإحسان.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا إلياس صلاةً وسلاماً تحفظ بهما على الأوقات والأنفاس.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا صالح صلاةً وسلاماً يلوح بهما بمرآه قلبي اللوائح.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا هود صلاةً وسلاماً توردني موارد الشهود.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا يُوشع صلاةً وسلاماً بهما غيم الران عن القلب يتقشع.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا اليسع صلاةً وسلاماً تجعل بهما القلب للحق متسع.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا ذي الكفل صلاةً وسلاماً يكون بهما لخلاصي أوثق كفل.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا العزير صلاةً وتسليماً تكشف بهما عني كل هم وضير.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا زكريا صلاةً وسلاماً تسقي بها من الحب كأساً رويا .

وصل وسلم على سيدنا ومولانا يحيى صلاةً وسلاماً نسعد بهما مماتاً ومحيا .

وصل وسلم على سيدنا ومولانا آشعيا صلاةً وسلاماً اسعي بهما إلى الحق حيا .

وصل وسلم على سيدنا ومولانا أرميا صلاةً وسلاماً تفتح لي بهما البصيرة العميا .

وصل وسلم على سيدنا ومولانا حاموتا (!) صلاةً وسلاماً تحبوني بهما من المعارف قوتا .

وصل وسلم على سيدنا ومولانا جربيس (!) صلاةً وسلاماً تحبوني بهما التطهير والتقديس

وصل وسلم على سيدنا ومولانا بنيامين صلاةً وسلاماً يكونان سبباً للسعادة والتأمين.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا خالد بن سنان[291] صلاةً وسلاماً تكشف لي بهما عن الغيب العيان.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا روبيل صلاةً وسلاماً تشهدني بهما معرفة الإجمال والتفصيل.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا زريق (!) صلاةً وسلاماً يبرق لي بهما من سنا القريب بريق.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا الصفيا صلاةً وسلاماً ترفعني بهما إلى مراتب الأصفيا .

وصل وسلم على سيدنا ومولانا يهودا صلاةً وسلاماً توردني بهما العهد المشهودا .

وصل وسلم على سيدنا ومولانا شمعون صلاةً وسلاماً تجلعني بهما من أهل الولاية والاصطفا .

---

[291] - خالد بن سنان قديس مسيحي من بني عبس ذكرت الروايات انه كان يأتي بالمعجزات فنقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله عنه: ذاك نبي ضيعه قومه، وقال عنه ابن الأثير: من معجزاته ان ناراً ظهرت بين العرب فافتتنوا بها وكادوا يدينون بالمجوسية من اجلها فاطفأها وهو في وسطها تتاجج وقد جاء في بعض الأحاديث ان ابنة خالد بن سنان وتدعى محياة وفدت على رسول الله فبسط لها رداءه واجلسها عليه وقال: ابنة نبي ضيعه أهله وفي رواية اخرى مرحباً بابنة اخي، كما جاء في كتاب الإصابة للعسقلاني، وتاريخ الخميس للبكري، والأعلام للزركلي، وزاد المعاد لابن قيم الجوزية

وصل وسلم على سيدنا ومولانا حزقيل صلاةً وسلاماً أتحلى بهما بكل خلق حسن جميل.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا لوقيا صلاةً وسلاماً ترفعني بهما في المعارف تراقيا.

وصل وسلم على سيدتنا ومولاتنا الصديقة مريم صلاةً وسلاماً أحوز بهما من السعادة أوفر مقسم.

وصل وسلم على سائر الأنبياء والمرسلين صلاةً وسلاماً يطمئن بهما القلب القاسي ويلين.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا جبرائيل صلاةً وسلاماً تكسوني بهما خلع المهابة والتبجيل.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا عزرائيل صلاةً وسلاماً تروي بهما ظمأ فؤادي العليل.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا مالك صلاةً وسلاماً تنجيني بهما في الدارين من نار المهالك.

وصل وسلم على سيدنا ومولانا رضوان صلاةً وسلاماً أحظى بهما في الفردوس بالرضوان.

وصل وسلم على بقية الملائكة والصحابة الكرام صلاةً وسلاماً تمنحني بهما عند الوفاة حسن الختام.

ثم بعد صلاة العصر مع الجماعة، قصدنا زيارة ما بالمشاهد لاسيما الولي بن رفاعة، وكذلك الشيخ الجعبري[292] والشيخ البكا[293]، ومآثر عليها يناح ويبكى. وزرنا الأربعين الشهداء بمغارة في الجبل، الذين كانوا شهدوا للخليل بشرى الغار، ولهم الملك ظلما قتل.

---

[292] - الشيخ عمر الجعبري المتوفى سنة 785هـ، 1383م، ولي مشيخة المسجد الإبراهيمي بعد وفاة والده محمد بن إبراهيم اخذ عمر طريقة التصوف البكائية عن خاله علي بن عمر، ثم اصبح شيخاً لزاوية الشيخ علي البكاء والناظر عليها.

[293] - الشيخ علي البكاء المتوفى سنة 670هـ، 1271م، له زاوية في مدينة الخليل باسمه، وقد توفي ودفن فيها. وكان مقصوداً بالزيارة

وجلسنا تحت شجرة البطم في غاية البسط والإيناس، وقد قيل إن لها أربعة آلاف سنة من الفراس، وكم جلس تحتها من نبي ورسول وولي جليل، ولا سيما أبو الأنبياء إبراهيم الخليل، كما هو في الكتب مذكور، وعند أهل تلك الناحية مشهور. وزرنا بقربها في الجبل غار عفرون[294]، وفيه كما قيل جمع أنبياء ومرسلين، ومررنا على عين سارة[295] وعين، وشربنا من مائها المعين، وأطلقنا النظر في تلك المآثر التي هي بهجة للناظرين. [من البسيط]

تلك المآثر يجلو العين منظرها	فكم صبوت إليها سالف الزمن
حتى بدت ولسان الحال ينشدني	بشراك بشرى بهذا المنزل الحسن

وبعد صلاتنا العصر بالحرم الشريف، دعانا إلى البيت عنده ذو القدر المنيف، الشيخ سليمان الذر، وأحد خدام ذلك المقام الكريم. وسامرنا تلك الليلة بمسامرة مع الإجلال والتكريم، وأتحفنا بكرامة عن الخليل وأولاده الكرام الأبرار، ولا بدع، إذ هم بيت النبوة ومعدن الأسرار، فيا لها من ليلة ما كان أهناها مع حسن ذلك السمر، وأويقات ما أحلاها لو لم يشنها القصر. [من البسيط]

يا طول ليل الجفا إذ كنت أسهره	وليلة الوصل مبناها على القصر
فحال دهري على الإغراء منتصب	كما علمت وهذا مبتدا خبري

العودة إلى القدس

فلما أن هزم الصبح جيش الليل، نادى أمير الركب أسرعوا يا خيل، فودعنا ذلك المقام بالسلام، وقد وهج في الحشا نار الغرام، وسرنا في الحال مسرعين، ولبيت المقدس طالبين، فمازلنا نقطع المهامة وكلَّ وادٍ غير مارين، على سيدنا يونس بجلجولة[296]،

---

[294] - ا و ب كلمة غير واضحة تنهي بحرفي الواو والنون، ونرجح أنها عفرون وهو اسم مالك غار المكفيلة الذي اشتراه منه إبراهيم الخليل، ودفن فيه مع عائلته، حسب رواية الكتاب المقدس

[295] - الآن يوجد شارع في مدينة الخليل اسمه شارع عين سارة

[296] - من الواضح ان ناسخ المخطوطة اخطأ في الاسم فجلجولية تقع في شمال الضفة الغربية وجميع المواصفات المذكورة مثل قبر النبي يونس وغير ذلك تدل على ان حلحول هي المقصودة وتقع بلدة حلحول على الكيلو متر 30 من طريق القدس . الخليل، على بعد7كم من شمال الخليل، كما تبتعد نحو 25كم عن البحر الميت و60كم عن البحر المتوسط و30كم عن القدس. ورد ذكر قرية حلحول في كثير من كتابات المؤرخين والرحالة القدماء، وكان سبب اشتهارها وجود قبر النبي يونس بن متى عليه السلام فيها. فقد ذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان (قرية بين بيت المقدس وقبر إبراهيم الخليل، وبها قبر يونس بن متى عليهما السلام). و قال السائح الهروي في كتابه الاشارات: (حلحول قرية

والعيص بسعير[297]، ومتّى ببيت أُمّر[298]، فقرأنا ما تيسر من القرآن العظيم، وأهديناه لجنابهم السامي الكريم، وتوجهنا بجاههم لدى الملك العلام أن يبلغنا المنى وحسن الختام، ولم نتمكن من الولوج إلى رحابهم السامية خوفاً من قطاع الطريق الفئة الباغية[299]، واعتذرنا لهم من عدم الوصول والعذر عندهم لا شك مقبول: [من الكامل]

عذراً فما لي للحماء وصول	من خوف أحراب هناك تصول
سلكت على نهج الغواية منهجاً	وغدت بميدان الصيال تجول
وقفت بأفواه الطريق فمن يرم	فيها السلوك فما إليه سبيل
أضحت تصدُّ الزائرين حن الحمى	ولهم ظُباء أرهفت ونصول
منعت شهود مشاهد قد حلها العيـ	ـص النبي ويونس المرسول
ذو النون وهو المجتبى والمرتضى	وبمدحه قد أنبأ التنزيل
ناهيك دعوته المجابة جُرِّبت	وبها لتفريج الكروب دليل
والعيص إن أمدحه أنشد خاطري	حسبي فماذا بالمديح أقول
هم آل بيت أشرقت أنوارهم	وبهم لعمري يحسن التوسيل
فيهم توسل أسعد مترجياً	فعسى يوافي للرجاء قبول
شملتهم صلة الصلاة تحية	ما هب في جنح الظلام شمول

استطراد يحسن بهذا المقام، يشير إلى قصة يونس عليه السلام هو ابن متّى ومتى أبوه بدليل قولهم أن متى كان رجلاً صالحاً من أهل بيت النبوة وعليه الأكثرون.

بها قبر يونس وفي عام623 هـ الموافق 1226م بنى الملك المعظم عيسى بن الملك العادل الأيوبي منارة على المسجد الذي اقيم على قبر النبي يونس)

(297) - سعير بلدة عربية في جنوب الضفة الغربية تقع إلى الشمال الشرقي من الخليل، وتبعد عنها 8 كم، وترتفع 870م عن سطح البحر، وتحيط بها عده جبال عالية منها (راس طورة) في الشمال الذي يرتفع 1012 م عن سطح البحر. وتقع في موقع (صعير او سيعور) بمعنى صغير في الكنعانية، وتحيط بأراضيها اراضي بيت فجار، وبيت امر وحلحول والخليل وبني نعيم والشيوخ وعرب الرشايده وعرب التعامرة وفيها مسجد العيص.

(298) - بيت امّر بضم الألف وتشديد الميم المفتوحة، هي قرية عربية فلسطينية تقع في جنوب الضفة الغربية إلى الشمال من مدينة الخليل، وهي تابعة لمحافظة الخليل، ترتفع اكثر من 950 متر عن مستوى سطح البحر ويرى البحر من مشارفها.

(299) - إشارة مهمة لانعدام الأمن في تلك النواحي وتسلط الأعراب نتيجة ضعف السلطة المركزية العثمانية التي كانت تعاني من ازمات كثيرة

وقيل أمه بدليل ما نقله صاحب حماة لم يشتهر نبي بأمه غير عيسى ويونس عليهما السلام[300].

أرسل الله تعالى يونس إلى أهل نينوى قرية قبال الموصل، فنهاهم عن عبادة الأصنام وأوعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا ويتوبوا، فلما أظلهم العذاب، آمنوا فكشف الله عنهم، وجاء يونس ذلك اليوم فلم ير العذاب حل فيهم ولا علم بإيمانهم، فذهب مغاضباً فدخل في سفينة من سفن دجلة، فوقفت السفينة ولم تتحرك فقال رئيسها أفيكم من له ذنب؟ فتساهموا على من يلقونه في البحر، فوقعت المساهمة على يونس، فرموه في البحر فالتقمه الحوت وسار به إلى الأيكة، فكان يونس يسجد على قلب الحوت، والحوت يقول يا يونس أسمعني تسبيح المغمومين، وهو يقول أن ﴿لا إِلَهَ إلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنْ الظَّالِمِينَ﴾[301]، قال تعالى: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾[302] يعني ظلمة الليلة وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ ۞ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[303] فقالت الملائكة إلهنا نسمع تسبيح مكروب كان لك شاكراً، اللهم فارحمه من كربته وغربته إنه ما قرأ الآية مكروب إلا أزال الله كربه. ومكث في بطن الحوت أربعين يوماً، وقيل ثلاثة أيام، ونبذه بالعراء، أي بالساحل، فخرج مثل الفرخ المنتوف، لا يقدر على القيام، فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين، لها أربعة آلاف غصن، فكانت فراشه وغطاءه. وأمر الله تعالى الظبية فجاءته فأرضعته حتى قوي، وأوحى الله تعالى إليه بإيمان قومه حين رأوا العذاب، وأهبط الله تعالى له حليتين مع ملك، وقال له: سر إلى قومك فإنهم يتمنوك، فأتزر بواحدة وارتدي بالأخرى، فلما بلغ ملك قومه الخبر، نزل عن سريره وخرج هو وقومه إلى يونس عليه السلام، وسلموا عليه وفرحوا به وحملوه إلى المدينة، وأقام يونس فيهم يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر إلى أن مات الملك ومات يونس بعد ذلك سنة 815 من وفاة موسى عليه السلام، ودفن بقرية جلجولة [حلحول]، قريباً من بلد الخليل في طريق بيت المقدس، بمسجد بناه الملك المعظم عيسى، والناس يقصدونه بالزيارة صلى الله عليه وسلم.

---

[300] - يرد لدى أبي الفداء الملك المؤيد إسماعيل في تاريخه (المختصر في أخبار البشر) هذا التعريف بالنبي يونس

[301] سورة الأنبياء، الآية 87.

[302] - سورة الأنبياء، الآية 87.

[303] - سورة الصافات، الآية 143- 144.

وأما العيص عليه السلام، وهو أخو يعقوب عليه السلام، كان هو وأخوه توأمين، وجثة العيص مدفونة بقرية سعير. وأما رأسه فبالمغارة التي فيها إبراهيم وإسحاق ويعقوب وزوجاتهم الكرام، عليهم السلام، وسبب ذلك أن جبرائيل وميكائيل لما أتيا إبراهيم في صفة ضيف، وأراد أن يذبح لهما العجل، انفلت منه ولم يزل حتى دخل مغارة حبرون، فنودي يا إبراهيم سلم على عظام أبيك آدم، فوقع ذلك في نفسه، ثم ذبح العجل وقربه إليهم، وكان من أمرهم ما ذكره الله تعالى في القرآن العظيم، ثم اشترى إبراهيم عليه السلام المغارة من عفرون[304] الملك، فلما ماتت سارة دفنها فيها، ثم مات إبراهيم عليه السلام فدفن بحيالها ثم ربقة زوجة إسحاق فدفنت بحذا سارة من جهة القبلة، ثم توفي إسحاق عليه السلام فدفن بحيال زوجته من جهة المغرب، ثم يعقوب عليه السلام فدفن عند باب المغارة بحيال قبر إبراهيم الخليل من جهة الشمال، ثم ليقا زوجته فدفنت بحياله من جهة الشرق. فاجتمع أولاد يعقوب والعيص وأخوه وقالوا ندع باب المغارة مفتوحاً، وكل من مات منا دفناه فيها، فتشاجروا فرفع أحد أخوة العيص، أو أحد أولاد يعقوب يده ولطم العيص لطمة فسقط رأسه في المغارة، فحملوا جثته ودفن بغير رأسه بقرية سعير، وبقي الرأس في المغارة فحوطوا على المغارة وعلموا عليها علامات القبور في كل موضع. انتهى [من البسيط]

تلك الربوع[305] من القدس الشريف بدت	تبدي سنا الضيا كالصبح إذ وضحا
كم ذا أردد طرفي في مراتعها	من الغرام الذي في القلب ما برحا
فلي بها لوعة الشاكي صبابته	ودمعة الناظر الباكي إذا سفحا
أبغي الوصول إلى من حل ساحتها	من النبيين كي أحظى بذا منحا
مستمطراً من علي عليائهم مدداً	فبابهم لذوي الحاجات قد فتحا

بيت لحم

ثم سرنا فوصلنا بيت لحم وقت الزوال، ولنا بدوحة الأنس اتصال، فنزلنا بيت الضيافة المعد للخاص والعام، فأسرعوا بإحضار الفاكهة والطعام، وبعد الانتباه من النوم، وصلاتنا الظهر نحن والقوم، توجهنا لمحل مولد عيسى عليه السلام بلا توان، ومهده

---

(304) حسب (الكتاب المقدس) فإن إبراهيم اشترى مغارة المكفيلة من عفرون الحثي [تكوين 23: 10-18]

(305) - ب القبور.

ومحل النخلة المذكور في محكم القرآن، فيا له محل صدق من مآثر البررة، إلا أنه في أيدي المشركين الكفرة، وإن الشرك فيه باد وظاهر للعيان، بما اجتمع فيه من الناقوس والتصاوير والشمامشة والرهبان، فحصل للقلب من رؤية ذلك ما أقلقه وأدهاه فلا حول ولا قوة إلا بالله.

أسفي على تلك المعاهد حيثما ... أضحى لها بيد اللئام ذمام

سترت لوامع نورها وضياءها ... مذ حل في عرصاتها الأصنام

فاجر المدامع من عيونك حسرة ... فعلى المكان تحية وسلام

تذييل بتهذيب :

لما وضعت مريم عيسى عليه السلام، وظهرت براءتها بنص الملك العلام، وسارت بولدها عيسى إلى مصر مع ابن عمها يوسف بن يعقوب بن ماهان النجار، وأقاموا هناك اثنتي عشرة سنة، وعيسى عليه السلام من جملة من دخل مصر من الأنبياء كما أشار إليه السيوطي في قوله: [من البسيط]

قد حل في مصر فيما قد رووا زمرٌ ... من النبيين زادوا مصر تأنيسا

فهاك يوسف والأسباط مع أبهم ... يعقوب ثم خليل الله إدريسا

لوطاً وأيوب ذا القرنين مع خضرٍ ... فأرميا يوشعا هارون مع موسى

وأمه سارة لقمان آسية ... ودانيال شعيباً مريماً عيسى

شيثاً ونوحا وإسماعيل قد ذكروا ... لازال من أجلهم ذا المصر محروساً

ثم عاد عيسى وأمه إلى الشام ونزلا بالناصرة، وبها سميت النصارى، فلما بلغ ثلاثين سنة أرسله الله تعالى إلى الناس، وظهرت على يديه المعجزات، من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، والمشي على الماء، وجعله من الطين طائراً قيل هو الخفاش. وكان الحواريون اثني عشر رجلاً، وهم الذين سألوه نزول المائدة فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين، غمامة فوقها وغمامة تحتها وهم ينظرون، مغطاة بمنديل، فكشفها عيسى عليه السلام، فإذا فيها سمكة مشوية ليس فيها فلوس تسيل دسماً، وقد نصب حولها البقول ما خلا الكراث، وإذا عند رأسها خل، وعند ذنبها ملح وخمسة أرغفة، على كل رغيف منها زيتون وخمس رمانات، وخمس تمرات، فامتنعوا من أكلها خوفاً من أن تكون عقوبة، فدعا

لها عيسى أهل الفاقة والزمنى من العميان والمجذومين والبرص والمقعدين وأصحاب الماء الأصفر، فقال كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم، واذكروا اسم ربكم ففعلوا، فصدر عنها ألف وثلاثماية ما بين رجل وامرأة كل إنسان منهم شبعان يتجشأ، فنظر عيسى إلى المائدة فإذا ما عليها كهيئته حين نزوله، ورفع السفرة إلى السماء وهم ينظرون إليها، واستغنى كل فقير أكل منها يومئذ، وبرؤ كل ذي عاهة، فلم يزل بريئاً حتى مات، وندم الحواريون وشابت شعورهم حسرة، فكانت إذا نزلت عليهم بعد ذلك يتزاحم الناس عليها، ويركب بعضهم بعضاً، فلما رأى ذلك عيسى جعلها نوباً بينهم، وكانت تنزل غباً يوماً بعد يوم، فلبثت كذلك أربعين صباحاً حتى إذا فاء الفيء طارت صعداً ينظرون إليها حتى تتوارى عنهم.

وأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أن اجعل مائدتي رزقاً لليتامى والزمناء[306] دون الأغنياء، فلما فعل ذلك عظم على الأغنياء وادعوا القبيح حتى شكوا وشكوا الناس، فوقعت الفتنة في قلوب المدبرين، فمسخ الله منهم ثلاثمائة وثلاثين خنازير من ليلتهم، فأصبحوا يأكلون القذرات في الحشوش، وكانوا باتوا أول الليل على الفرش عند نسائهم في أحسن صورة وأوسع رزق، ثم دعا الله عيسى فماتوا بعد ثلاثة أيام، ثم أعلمه الله بخروجه من الدنيا فجمع الحواريين ليلة وصنع لهم طعاماً، وقام يخدمهم بنفسه قائلاً لهم لا يرد أحدكم عليّ من صنعي شيئاً، إنما فعلت ذلك ليكون لكم أسوة بي في خدمة بعضكم بعضاً، وإن لي إليكم حاجة فادعوا الله أن يؤخر في أجلي، فلما أرادوا ذلك ألقى الله عليهم النوم حتى لم يستطيعوا الدعاء، وجعل المسيح يوقظهم فلم يزدادوا إلا نوماً وتكسلاً، وعلم أنهم مغلوبون عن ذلك، فقال المسيح سبحان الله، يذهب الراعي وتتفرق الغنم، ثم قال لهم: الحق أقول لكم ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك، وليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة ويأكلن ثمني، وكان اليهود في طلبه، فذهب بعض الحواريين إليهم وقال ما تجعلون لي إن أدلكم على المسيح، فدفعوا له ثلاثين درهماً، فدلهم عليه فرفع الله المسيح إليه وألقى الشبه على الذي دلهم، وأظلمت الدنيا وظهرت الكواكب، فلذلك لم يتحققوا المشبه من شدة الظلمة، وانشقت الصخور وحصل الإرجاف واختلفت العلماء في موته قبل رفعه، فقيل رفع ولم يمت، وقيل توفاه الله ثلاث ساعات، وقيل سبع ساعات ثم أحياه الله بعد سبعة أيام، وذلك أحد تأويل قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ

(306) ـ الزمنى والزمناء: أصحاب الأمراض المستعصية

إلَـيّ﴾[307] أي مستوفي أجلك، والمعنى أني عاصمك أن يقتلك الكفار ومؤخرك إلى أجل كتبته لك، ومميتك حتف أنفك لا قتيلاً بأيديهم أو قابضك من الأرض من توفيت مالي، أي قبضته، أو متوفيك نائماً كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾[308] أي ينيمكم، إذ روي أنه رفع نائماً أو ممسكاً عن الشهوات العائقة عن العروج إلى الملكوت، وقال محمد بن إسحاق الأول من زعم النصارى، وقال الضحاك إن في الآيات تقديماً وتأخيراً.

ثم أنزل الله تعالى المسيح إلى أمه وهي تبكي عليه، فقال لها: إن الله رفعني إليه ولم يصبني إلاّ خيرٌ، وأمرها فجمعت الحواريين فبثهم في الأرض رسلاً عن الله، وأمرهم أن يبلغوا عنه ما أمره الله تعالى به، ثم رفعه، ثم إن أربعة من الحواريين متّى وثلاثة معه اجتمعوا وجعل كل واحد منهم إنجيلاً وخاتمته إنجيل متى. إن المسيح قال أرسلتكم إلى الأمم كما أرسلني ربي إليكم فاذهبوا وادعوا الأمم، وكان رفع عيسى قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بخمسائة وخمسة وأربعين سنة من طور زيتا جبل شرقي بيت المقدس، وعمره إذ ذاك ثلاث وثلاثون سنة، وعاشت أمه ستة سنين وماتت وعمرها ثلاث وخمسون سنة، ودفنت بكنيسة الجثمانية بذيل جبل الطور عند أبيها عمران، وهي من أفضل نساء العالمين، لما روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير نساء العالمين أربع، مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون. انتهى

وللاختلاف في نبوءتها قال القسطلاني: قال القرطبي: الصحيح أن مريم نبية أوحى إليها بوساطة الملك، واستدل المانعون بقوله تعالى وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً يوحى إليهم، وأجيب بأنه لا حجة فيه لأن أحداً لم يدع فيهن الرسالة وإنما الكلام في النبوءة فقط. وقال الأشعري: إن من النساء من نبيّ وهنّ ستة حوى وسارة وأم موسى وهاجر وآسيا ومريم. انتهى [من البسيط]

من أغرب النقل ما يرويه من أثر	القرطبيُ إمام العصر ذو الشأن
تنبيء ستُ نساء بالخصوص فخذ	أسماءهنَّ ببيت مفرد ثان
فمريمَ سارةٌ حوّى وآسيةٌ	فهاجرٌ أمُ موسى إبن عمران

---

[307] - سورة آل عمران، الآية 55.

[308] - سورة الأنعام، الآية 60.

عودة إلى القدس

ثم قصدنا القدس الشريف، لنجدد عهداً قديماً بالحرم المنيف، فمررنا بضريح راحيل أم يوسف الصديق، قريباً من بيت جالية[309] على قارعة الطريق، فأهديت لها من القرآن ما تيسر، ورجوت منها المدد الأوفر، فوصلت القدس وقت الصلاة الوسطى، وقد حزت من وافر الأنس قسطاً. [من الطويل]

ولما وصلنا والرفاق عشيةً ... إلى المسجد الأقصى أصبنا مغانماً

فيوض غيوب أمطرت سحب رحمة ... فأحيت فؤاداً بالتشوق طالما

وفي يوم الأحد حركني داعي الغرام، لزيارة خليفة الله داوود عليه السلام، فسميت إلى وادي حماه الرحيب، ونزلت بسوح ربعه الزاهي الخصيب، ثم لثمت أعتاب تلك السدة المنيعة، ودخلت إلى روض تلك الحضرة الرفيعة. ووقفت منادياً خاضعاً، مذ شاهدت نور النبوة لامعاً. وحصل لي مزيد الأنس والإيناس، فتلوت ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ﴾[310]. وختمت ما تيسر من القرآن بالسبع المثاني، ودعوت الله لي ولإخواني، واجتمعت بخدمة ذلك الجناب، فإذا هم من الموالي السادة الأنجاب، ثم لما أورد عليَّ البسط هذا المقام، امتدحت جنابه عليه الصلاة والسلام: [من البسيط]

مقامُ صدق الوفا بالقدس مشهود ... مَنْ أمَّهُ فهو بالتحقيق مسعود

فاحت به نفحات الطيب عابقةً ... فما الغوالي إذا فاحت وما العود

وأشرقت من سنا مشكاة بهجته ... بوارق البشر حيث الأنس مشهود

ناهيكه مشهداً تزهو بوارقه ... إذ حل فيه نبي الله داوود

خليفة الله في أحكامه وله ... فيها كما نطق القرآن تسديد

كذا الزبور عليه الله أنزله ... وملكه بانتصار الحق مشدود

قد أوتي الحكمة الغراء معجزةً ... فكان منها لدين الله تأييد

فصل الخطاب وتسبيح الجبال كما ... لان الحديد وما في ذاك ترديد

---

(309) - الصحيح بيت جالا، وهي مدينة عربية يعني اسمها بالسريانية كومة حجارة، وتقع إلى الشمال الغربي من مدينة بيت لحم، وتبعد عنها 2 كم، وترتفع عن سطح البحر 825 م اما قبر راحيل فيقع اليوم قرب بيت لحم عند مدخل المدينة ويعود شكل القبر الحالي إلى نهاية القرن الثامن عشر.

(310) - سورة ص، الآية 26.

وجـدد المسـجد الأقـصى وكملـه	عنـه سـليمان والتكميـل محمـود
فـانزل بـساحته العليـاء مغتنمـاً	عواطـف الجـود فالإمـداد موجـود
أهـدى الـسلام لـه أوفـى تحيتـه	مـادام في كعبـة التقـديس توحيـد

تكميل بتلخيص :

هو داوود عليه الصلاة والسلام، من ذرية يهودا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام، وقد أتاهُ الله تعالى ما نص عليه في كتابه من النبوة والكتاب، أي الزبور، والملك والحكمة وفصل الخطاب وتليين الحديد وتسخير الطير والجبال.

روى وهب بن منبه، أنه لما تاب الله عليه قسم دهره أربعة أقسام: يوماً للقضاء بين الناس، ويوماً لنسائه، ويوماً يخلو في دار له فيها أربعة آلاف محراب فيجتمع إليه الرهبان فينوح معهم على نفسه فيساعدونه على ذلك، ويوماً يسوح في الفيافي والجبال والساحل، وإذا كان يوم سياحته فيخرج إلى الفيافي فيرفع صوته بالمزامير فيبكي فتبكي معه الجبال والحجارة والدواب، حتى تسيل الأودية من بكائهم، ثم يجيء إلى الساحل فتبكي معه الحيتان ودواب البحر وطير الماء، فإذا أمسى رجع، وإذا كان يوم نوحه على نفسه نادى منادي أن اليوم نوح داوود على نفسه فليحضر من يساعده، فيدخل الدار التي فيها المحاريب، فيبسط له ثلاث فرش من مسوح حشوها ليف، فيجلس عليها ويجلس أربعة آلاف راهب عليهم البرانس، بأيديهم العصي، فيجلسون في تلك المحاريب، ثم يرفع داوود صوته بالبكاء والنوح على نفسه، ويرفع الرهبان معه أصواتهم، فلا يزال يبكي حتى تغرق الفرش من دموعه، ويقع داوود مثل الفرخ يضطرب، فيجيء ابنه سليمان عليه السلام فيحمله، فيأخذ داود من تلك الدموع بكفيه ثم يمسح بها وجهه ويقول: رب اغفر لي. فلو عدل بكاء داوود ببكاء أهل الأرض لرجحهم لعدله. ومكث بقية عمره لا يشرب ماء ولا يأكل طعاماً إلا ممزوجاً بدموعه.

وعن الأوزاعي[311] مرفوعاً، أن مثل عيني داوود كالقِرْبَتَين تنطفان ماء، ولقد أخذت

---

[311] - ابو عمرو عبد الرحمن بن محمد الأوزاعي، ولد بمدينة بعلبك سنة 88 هـ، وعاش في ظلّ العهدين الأموي و العبّاسي، فقد عاصر تسعة خلفاء امويين وخليفتين عبّاسيين وتلقّى العلم عن علماء الشام و العراق و مكّة و المدينة، اشتهر الأوزاعي بأنّه كان واحد زمانه و إمام عصره وأوانه، وفي سنة 157 هـ توفي وهو ابن تسع وستين في خلافة ابي جعفر المنصور العبّاسي، تاركا مجموعة مصنّفات منها كتابين في الحديث هما: المسند والسّنن في الفقه و كتابا في

الدموع بخديه كخرير الماء في الأرض. وأمره الله ببناء بيت المقدس، فشرع في بنائه وأدار عليه سوراً، فلما تم السور سقط ثلاثاً فشكا ذلك إلى الله عز وجل، فأوحى الله إليه إنك لا تصلح أن تبني لي بيتاً، قال: يا رب ولم؟ قال: لما جرى على يديك من الدماء. قال: يا رب أو لم يكن ذاك في هواك ومحبتك؟ قال: بلى ولكنهم عبادي وأنا أرحم بهم منك، فشق ذلك على داوود، فأوحى الله إليه لا تحزن فإني سأقضي بناءه على يد ابنك سليمان، فأوصى قبل موته بالملك لولده سليمان عليه السلام، وأوصاه ببناء بيت المقدس، وعين لذلك عدة بيوت أموال من الذهب، فلما مات داوود ملك ابنه سليمان وعمره ثنتا عشرة سنة، وابتدأ في عمارة بيت المقدس بعد مضي أربع سنين من ملكه، وكان من أمره ما هو مشهور، وفي تاريخ القدس مسطور.

وعن ابن عباس، أوحى الله إلى داوود عليه السلام أن قل للظَّلَمة لا يذكروني فإني أذكر من يذكرني وذكري إياهم أن ألعنهم فأقول ألا لعنة الله على الظالمين.

وعن عبد الله بن الحارث، أوحى الله إلى داوود عليه السلام أن اذكرني وأحبني وأحب أحبابي وحببّني إلى عبادي، قال: يا رب كيف أحببك إلى عبادك. قال اذكرني عندهم فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن.

وتوفي داوود وعمره سبعون سنة ودفن بالكنيسة الجثمانية شرقي بيت المقدس في الوادي، وقيل إن قبره بكنيسة صهيون بظاهر البلد، كما في جهة القبلة كما هو الآن معروف، وفي الكتب المعتبرة موصوف، قيل إن ولده سليمان عنده في القبر الشريف بصهيون، وقيل بالمسجد الأقصى تجاه الباب الأوسط مدفون، وقيل تحت البلاطة الخضراء التي بداخل قبة الصخرة تجاه باب الجنة، والله أعلم بحقيقة ما هنالك: [من الطويل]

ضريح سليمان النبيُّ تعارضت	بتعيينه الأقوال والوقف أجمل
فقيل بصهيونٍ ضجيعٍ لوالدٍ	أو المسجد الأقصى إذا أنت تدخل
وثالثها في قبة الصخرة التي	بضوئها سنا أنوارها تتهلل
فلم يلف بالتحقيق قبرٌ لمرسل	سوى قبر طه والخليل المفضل
فأهدى صلاةً مع سلام ورحمة	إلى روحهم طول المدى تتوصل

الانتظام في الطريقة الخلوتية

وفي يوم الاثنين المفتتح بالسعد والمختتم بالسعادة، بشرت بنيل الحسنى وزيادة. وحصلت لي العواطف الرحمانية، بانتظامي في عقد أهل الطريقة الخلوتية[312]، فلقنني حضرة الأستاذ الاسم الأول وقت الغروب عند باب الرحمة، وأمرني بالاشتغال به وبالاستعداد لدخول الخلوة لتتم لي النعمة، فأدخلني الخلوة بمنزله ليلة الثلاثاء وقت العشاء، راجياً من الله الفتح وكشف الغشا، فمكثت بها إلى غروب يوم الخميس، وطلعت منها ليلة عيد الله الأكبر الأنفس النفيس، لأشهد الجمع في هذا المقام، فياحبذا تلك الليالي العظام، حيث كنت بالمسجد الشريف الأقصى، وعواطف الرحمة تترادف بروادف أنس لا يحصى، فاحييتها وجمع الإخوان، بالذكر وتلاوة القرآن، وجلسنا نكبر بعد صلاة الصبح إلى أن طلعت الشمس وارتفعت مقدار رمح، وامتلأ المسجد بالخاص والعام، مستمنحين من موائد الفضل والإنعام، وصلى الإمام صلاة العيد وبمنبر الصخرة خطب، فتحققت النفوس هنالك ببلوغ الأرب، وقد قرت بذلك العيون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون: [من الكامل]

وردت علـي مـوارد الإسـعاد	وصـفت لـدي مواسـم الأعيـاد
بالمسجد الأقصى المبارك حوله	المحتظـي بتـوارد الـورّاد
مـن فاتـه تلـك المشاهد مـن منى	فلـه المنـى[313] البـادي بهـذا النـادي

وفي يوم السبت ثاني العيد، الذي صار فيه الهم خلقاً والأنس جديد، سرت إلى بئر أيوب وعين سلوان[314]، مع أصدقاءٍ يرتوي بحديثهم الظمآن، فانجلت عنا سحائب

---

[312] - لم يعرف مؤسس الطريقة الخلوتية، وقد تضاربت الأقوال في ان اول من تراسها الشيخ الكردي إبراهيم بن روشان السنجاني، الذي قيل إنه من الصوفية المتجولة، وكان يدعي أنه يرجع إلى السلسلة السهروردية . لقب إبراهيم بالزاهد الجيلاني وتوفي عام 690هـ وبعد وفاة إبراهيم خلفه الشيخ محمد نور الخلوتي، المعروف باسم كريم الدين الذي خلفه بعد وفاته ظاهر الدين عمر الخلوتي، والذي يعتبرالمؤسس الحقيقي للطريقة الخلوتية، كونه اول من نادى بها كطريقة صوفية . والآن هناك الكثير من الطرق الصوفية التي تنتسب للخلوتية ولكنها تتفق جميعاً على مجموعة من المبادئ، إذ يقوم منهاج الطرق الخلوتية على صحبه الشيخ الوارث المربي الذي لا يكتفي بتعليم مريده امور دينه بصورة نظرية بحتة، وإنما يأخذ بيده لتطبيق إحكام الشرع عملياً، يثني عليه إذا احسن، وينبهه إذا زلّ، ويتفقده إذا غاب، ويذكّره إذا نسي، ويزكّي قلبه إذا قسا، ويحفزه إذا فتر، ويحنو عليه، ويحبه محبة الوالد لولده، قاصداً بذلك وجه الله تعالى، وبذلك يكتسب المريد الصفات الحميدة وللطرق الخلوتية أركان سبعة هي: الحب والامتثال والذكر والفكر والصمت والعزلة (الخلوة) والصوم (الجوع) . كما أن لها أوراداً يومية يتم تلقيها وتلقينها من الشيخ المرشد.

[313] ا و ب المنا.

[314] - تشتهر بلدة سلوان المحاذية لمدينة القدس بينابيعها وعيونها ونقل عن أبي العلاء المعري قوله:

الكروب، مذ أشرفنا على بئر أيوب، المشار إليه في محكم الكتاب بقوله تعالى اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، فشربنا من مائه المعين. وغدونا بآثار أيوب عليه السلام متبركين، ثم وردنا عين سلوان، والقلب من فرط السرور نشوان، ونزلنا بدوح ظلها، نروي القلب من نهلها وعلها، واغتسلنا فيها مطهرين من الأوزار، ممتثلين لما وردت به الآثار. فعن أبي هريرة مرفوعاً أن الله اختار من المدائن أربعاً: مكة وهي البلدة، والمدينة وهي النخلة، وبيت المقدس وهي الزيتونة، ودمشق وهي التين. واختار من الثغور أربعة: إسكندرية مصر، وقزوين خراسان، وعبدان العراق، وعسقلان الشام. واختار من العيون أربعاً: عين بيسان، وعين سلوان، وعين زمزم، وعين عكا. واختار من الأنهار أربعة: سيحان، وجيحان، والنيل، والفرات.

وعن ابن سعد، زمزم وعين سلوان التي ببيت المقدس من عيون الجنة، فمن أتى بيت المقدس فليأت محراب داود المشرف على عين سلوان، وليصل فيه، وليسبح في عين سلوان فإنها من الجنة.

وأنشدني بعض الرفاق، بدوحها موجهاً بها مع حسن الطباق:[من الطويل]

أيا قدس آمالي وأقصى مآربي ... ويا حطتي في حال سري وإعلاني

فؤادك صخر ما فيه باب رحمة ... كما أن قلبي ما به عين سلوان

ثم أنشدني الثاني من حفظه مع حسن صوته ورقة لفظه، بيتين رفيقي المعاني، يزريان بالمثالث والمثاني. [من البسيط]

إن غاب شخصك عن عيني فمسكنه ... على الدوام بقلبي الواله العاني

وهو المقدس لما أن حللت به ... لكنه ليس فيه عين سلوان

فقلت للرفاق لست أحفظ شيئاً في هذا المعنى ولكن أرتجز حسن الإمكان بدون مغنى: [من البسيط]

ظن العذول بأن اللوم ألواني ... وأن بالقلب مني عين سلوان

شربت بالمهد كأس الحب منزعه ... فتوبتي منه ليست ذات إمكان

وبعين سلوان التي في قدسها ... طعم يوهم انه من زمزم

ومن اشهر ينابيع سلوان بئر ايوب، وهي بئر كبيرة، لها من العمق 125 قدماً. ياتيها الماء رشحاً من عين ام الدرج وغيرها. جدد عمارة البئر السلطان صلاح الدين الايوبي، وهنالك عين اللوزة التي يجري فيها الماء الفائض من بئر ايوب اوقفها عثمان بن عفان رضي الله عنه على ضعفاء البلد.

فطـور قلـبي بـه نـار الخليـل زكـت فليتـه مثـل موسـى القـرب أدنـاني

كـأن قلـب عـذولي صـخرة نـصبت فمـا بـه رحمـة للوالـه العـاني

هـلا تخلـص بالتقـديس مأملـه أقـصاه ربـي مـن تعـذيب نـيران

ولما حصل الأنس بهذا المقام، وحان من ذلك اليوم التمام، سرنا فمررنا على قبري زكريا ويحيى عليهما السلام، بذيل جبل الطور بقبتين بديعتي الإحكام، المقول فيهما طرطور فرعون وكوفية زوجته كما هو مشهور، وذلك خلاف ما هو في الكتب مسطور، فقد حكى صاحب أنس الجليل، بأن بهما زكريا ويحيى وأقام على ذلك الدليل. وزرنا الزاوية الأدهمية[315] البديعة الإتقان، وإنها من العجائب وليس الخبر كالعيان. ووردنا ضريح الشيخ جراح[316]، فالتأم بزورته من القلب الجراح، وقرأنا الفاتحة لسيديْ سعد وسعيد[317]، ودخلنا مغارة الكتاب إذ كانت غير بعيد، ثم رجعنا إلى الخلوة لنجتلي بها حسن الجلوة. [من الطويل]

ويوم بوادي القدس شاهدت حسنه علـى عـين سـلوان وبئـر لأيـوب

وقد نفحت من جانب الطور نسمةً فأهدت لي البشرى بتيسير مطلوبي

وقد كنت يوماً بالحرم السني والمعبد السامي الهني، إذ ورد علي بعض الظرفا الذي راق مشرب وده وصفا، فرأيت صحبته مجموعاً، قد طاب مرأىً ومسموعاً، فمما أعجبني من مستحسناته، وأطربني من مستظرفاته، مقدمتان إحداهما في التوحيد، والثانية مختصرة في المنطق الحميد، أحببت إثباتهما في هذه الطروس، لترتاح بمعانيهما النواظر والنفوس. [من البسيط]

بسم الله الرحمن الرحيم

شـهدت معتقـداً جزمـاً بغـير مـرا أن لا إلـه سـوى الله الـذي قهـرا

ربّ غـني عـن الأشـياء أجمعهـا وكـل شـيء إلى إحـسانه افتقـرا

---

(315) تقع هذه الزاوية الآن إلى الشمال خارج سور القدس على بعد مائتي متر منه بين باب العمود وباب الساهرة

(316) - يقع ضريح الشيخ جراح شمالي القدس في حي الشيخ جراح، بالقرب من جامع الشيخ جراح الذي شيد في العام 1313هـ ويعود الضريح إلى الأمير حسام الدين الجراحي، احد امراء صلاح الدين الأيوبي وطبيبه الذي توفي عام 598هـ ودفن في زاويته

(317) - لا يوجد ضريح او مقام باسم سعد وسعيد في القدس ولكن ثمة ضريح للمجاهد سعد الدين الرصافي داخل تكية (خاصكي سلطان) ولا نعلم في اي زمن عاش هذا المجاهد، وإن كان معاصراً للقيمي

موجود باق قديم ذو مخالفة لخلقه ولما بالبال قد خطرا
بنفسه قائم أعني بذاك غنا عن فاعل ومحل ليس مفتقرا
وواحد ماله ثانٍ يشاركه في الملك كلا ولا عون ولا وزرا
له الحياة دواماً والإرادة مع علم أحاط بما يخفى وما ظهرا
وقدرة وتعم الممكنات فلا تشهد إذا لسوى خلاقنا أبرا
رب بإيجاد جمع الخلق منفرد لولاه ما كان شيء قل أو كثرا
ثم الكلام له والسمع مع بصرٍ من غير كيف وكون الله مقتدرا
حيا سميعاً بصيراً عالماً متكلماً مريداً تعالى ما أراد جرى
فتلك عشرون للرحمن واجبة ويستحيل عليه ضدّ ما ذكرا
في حقه جاز فعل الممكنات كذا ترك لما كان خيراً ذاك أو ضررا
كذا شهدت بأن الله منه أتى كتب ورسل كرام للورى سفرا
واجب لجميع الرسل عصمتهم صدق وتبليغ ما للولي به أمرا
ويستحيل عليهم ضد ذا واجبٌ في حقهم غير نقص ما اعترى البشرا
من نحو كالكلّ والأمراض ثم همو خير الورى وخيار الكل دون مرا
نبينا أحمد المختار خاتمهم صلى عليه إله العرش ما ذكرا

أما الرسالة المنطقية المختصرة السنية فهي:

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده على آلائه، ونصلي على محمد وآله، الدلالات ثلاث: مطابقة وتضمن والتزام. ثم اللفظ، إما مفرد أو مؤلف، والمفرد إما كلي أو جزئي، والكلي إما ذاتي أو عرضي، والكلي ثلاثة أقسام: جنس، ونوع، وفصل. والعرضي قسمان: عرض خاص، وعرض عام. القول الشارح أربعة أقسام: حد تام، وناقص، ورسم تام، وناقص. القضية إما حملية أو شرطية، وكل منهما موجبة أو سالبة، والحملية أما مخصوصة أو محصورة، كلية أو جزئية أو مهملة، والشرطية متصلة ومنفصلة، والأولى لزومية أو اتفاقية، والثانية مانعة جمع أو خلوا [؟]، وهما التناقض: اختلاف قضيتين بالكيف بحيث تصدق إحداهما

وتكـذب الأخـرى، ففـي المخـصوصتين يـشترط اتفاقهمـا في الواحـدات الثمـان، وفي المحصورتين لابد أيضاً من اختلافهما في الكمية، فنقيض الموجبة الكلية سالبة جزئية، والسالبة الكلية موجبة جزئية، العكس تصير المحمول موضوعاً والموضوع محمولاً، مع بقاء الكيف والصدق. والكذب فعكس كل من الموجبة الكلية والجزئية[318] جزئية والسالبة الكلية كلية، والجزئية لا عكس لها لزوماً القياس، إما اقترانيٌ أو استثنائيٌ والمكرر بين طرفيه حد أوسط وموضوع المطلوب حد أصغر، ومحموله حدٌ أكبر، وما فيه الأصغر صغراً والأكبر كبراً، وهيئة التأليف يسمى شكلاً، والأشكال أربعة، لأن الحد إن كان محمولاً في الصغرى، أو موضوعاً في الكبرى، فالأول أو بالعكس، فالرابع أو محمولهما، فالثالث أو موضوعهما، فالثاني.

والأول معيار العلوم وضروبه المنتخبة أربعة لاشتراطهم إيجاب صغراه وكلية كبراه، والاقتراني أما من جملتين أو شرطيتين متصلتين أو منفصلتين، أو حملية ومتصلة أو حملية ومنفصلة، أو متصلة ومنفصلة، والاستثنائي فالمتصلة اللزومية استثناء عين مقدمها ينتج عين تاليها، ونقيض تاليها ينتج نقيض مقدمها، والمنفصلة فاستثناء أحد الجزئين ينتج نقيض الآخر، ونقيضه ينتج عين الآخر، البرهان مقدماته يقينية وهي أوليات ومشاهدات ومجريات وحدسيات ومتواتر، وقضايا قياسها معها.

والجدل مقدماته مشهورة، والخطابة مقدماته من شخص معتقد فيه، والشعر مقدماته تبسط النفس أو تقبضها، والمغالطة مقدماته كاذبة شبيهة بالحق أو بالمشهور، أو مقدماته وهمية كاذبة والعمدة البرهان لا غير، وختمت بخير.

ومما نقلته من هذا المجموع الظريف، الحاوي لكل معنى لطيف، ما أنشده الحافظ الحميدي[319] الإمام، عليه رحمة الملك العلام: [من الوافر]

لقـاء النـاس لـيس يفيـد شـيئاً سـوى الهـذيان مـن قيـل وقـال

فاقلـل مـن لقـاء النـاس إلا لأخـذ العلـم أو إصـلاح حـال

---

[318] - أ الكلية

[319] - هو الإمام الحافظ المحدث الفقيه، ابو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبد الله بن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد بن عبدالعزى الحميدي القرشي الأسدي المكي لم تشر التراجم إلى سنة ولادته غير انه ولد بمكة المكرمة ونشأ فيها وتتلمذ على حافظ عصره وإمام زمانه: سفيان بن عيينة، ثم إنه بعد ذلك لازم الإمام الشافعي ملازمة الظل، وصحبه في حله و ترحاله, رحل مع الشافعي إلى مصر وبقي له مصاحبا حتى فارق الحياة سنة 204هـ. ثم عاد بعد موت الشافعي إلى مكة إلى ان توفي سنة 219هـ اشتهر بالمسند كما ذكره المترجمون له، وهو منسوب إليه

وفي يوم الخميس ختام العام، ذهبت بعد العصر بصحبة أعزة كرام، إلى مقبرة ماملا[320] مدفن الخلاصة الأبرار، الوارد في فضلها الأخبار والآثار، فعن الحسن أن أصلها مأمن الله، وإن من دفن فيها فكأنما دفن في السماء، فزرنا من بها من السادات ووقفنا بأعتاب تلك القادات، كالشيخ عبد الله القرشي وابن رسلان[321]، وابن الهمام[322]، وابن جماعة[323] الكبير الشأن، والشيخ الدجاني والكمال بن أبي شريف[324]، كما ذكره الحنبلي صاحب تاريخ القدس الشريف، وغيرهم ممن محيت من قبورهم الآثار، ولم تزل تتلى في الكتب لهم الأخبار. فقرأت لهم ما تيسر من القرآن وختمت بالسبع المثاني، ودعوت الله ببلوغ المنى وحصول التهاني، فانشرح بتلك الزيارة صدري، واستبشرت بنجاح قصدي وأمري. [من الطويل]

رعى[325] الله وادينا المقدس إنه ... حوى روضة الفردوس أجداث ماملا

مآثر رضوان ومهبط رحمة ... أصبت به من عالم الغيب مأملا

قبر موسى في أريحا

وفي يوم الاثنين الحادي عشر من محرم الحرام عزمت على زيارة السيد الكليم[326]، عليه الصلاة والتسليم، فخرجت بعد صلاة الظهر مع رفاق رقاق، وأخوان ود لهم بنا مزيد اعتلاق، فوصلنا رحابه الوسيع، وروضة واديه الخصب المريع، حين أذنت شمس النهار بالاحتجاب، وكادت أن تلثم الأرض من شدة الاقتراب، إذ المسافة إليه من بيت المقدس

---

[320] - وتسمى الآن ايضاً باسم مقبرة الشهداء، وهي اكبر مقابر القدس تقع بظاهر المدينة من جهة الغرب

[321] - شهاب الدين ابو العباس احمد بن حسين بن علي بن ارسلان المقدسي الرملي الشافعي الصوفي ويعرف بابن رسلان وقال السخاوي في الضوء اللامع [1/181]؛ ويقال إنهم من عرب نمير، وقال بعضهم من كنانة ولد في سنة [773هـ]، وقيل سنة [775هـ]، في الرملة بفلسطين، ونشا بها. مؤلفاته: شرح سنن ابي داود صفوة الزبد: شرح للأربعين النووية وله شرح على البخاري، وصل فيه إلى آخر الحج شرح جمع الجوامع في مجلد. توفي سنة اربع واربعين وثمانمائة هجرية

[322] - كمال الدين بن الهمام الحنفي، وهو محمد عبد الواحد بن عبدالحميد المتوفى سنة 861هـ وهو صاحب (فتح القدير شرح الهداية).

[323] - ثمة اكثر من ابن جماعة لم نتحقق من هو المقصود في هذا المقام

[324] - الكمال ابن ابي الشريف، كمال الدين ابو المعالي محمد بن محمد بن ابي بكر بن علي المقدسي [822 906 هـ] له كتاب (اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى).

[325] - أ رعا.

[326] - النبي موسى

خمس ساعات، في جبال وأوديته عقبات، فمرغنا الخد بأعتابه واكتحلنا بعبير ذلك الثرا، ورجونا منه الإمداد وحسن القرى[327]، ووقفنا تجاه ذاك المقام، معلنين بالصلاة والسلام، ولما شاهدت جمال جماله، وورد علي البسط بكماله، تذكرت ما به شيخنا الخليلي أتحفني، أنَّ بالمقام سرٌ وألقيت عليك محبة مني، وأنشدت في تلك الرحاب، مشوقاً ومادحاً لذلك الجناب: [من الوافر]

إذا القلب المشوق غدا كليما ... فيمم وادياً يحوي الكليما

وعج نحو الكثيب لعل تشفى ... فطيب نسيمه يبرى السقيما

وشاهد روضة فيها مقام ... على هام السماك لقد أقيما

مقام بالجلالة ذو جمال ... به التقسيم أضحى مستقيما

فمن ألقيت إذ تتلى المثاني ... به سر المحبة قد أديما

وقبته بها الأملاك طافت ... كوفد طاف كعبةً والحطيما

فمن وافى المقام رأى ابتهاجاً ... كما يلقى بساحته النعيما

فمرغ في ثرا الأعتاب خداً ... وسحب الدمع أرسلها سجيما

وناديه فكم لبّى المنادي ... بناديه وكان به رحيما

أمالك عند ربك معجزات ... بها تتلو الكتاب المستقيما

فمنها تسع آياتٍ عظامٍ ... آتت بالنّص قرآنا حكيما

مناجاة الجليل بطور سينا ... بها اللّه اصطفاك له كليما

يد بيضا بدت من غير سوءٍ ... وضرب بالعصى حجراً صميما

تفجر أعيناً بعداد سبطٍ ... وكم عين روت جيشاً أويما

وإلقاء العصا في يوم جمع ... لدى السحراء ثعباناً عظيما

ضفادع قمل ودم جراد ... عليهم أرسلت رجز أليما

وفلق البحر إغراقاً لقوم ... لقد وردوا بكفرهم الجحيما

فويح الكافرين به وبشرى ... لقوم قد هدوا الدين القويما

---

(327) أ و ب القرا.

وموسمه الشريف له اشتهار	على مر الزمان قد استديما
فكم تسعى الوفود إلى حماه	تصيب بسوحه الفيض العميما
فإن أبدا الإساءة زائروه	أثار عليهم الريح العقيما
وإن[328] وافوه بالآداب صدقاً	أفاض عليهم البر الجسيما
وقد وافاه أسعد نضو شوقٍ	برحب جنابه أمسى سقيما
له حق القرا إذ صار ضيفاً	فيا بشراه إذ وافى الكريما
يرجّي من ضنا الاهوا شفاءً	ولا بدعاً إذا أضحى سليما
خدمت جنابه ببديع مدحٍ	لأكتب عند حضرته خديما
وأرجو بالزيارة نجح أمرٍ	به يوم الجزا أكفي الخصيما
وحاشا أن أرد بدون نجح	وفيض نواله أضحى عميما
فأهديه صلاة مع سلام	يبادي عرفه المسك الشميما

تكميل :

موسى عليه السلام نبي الله وكليمه، وهو ابن عمران بن قاهب بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن عليهم الصلاة والسلام، ولد في ألف وخمسمائة وستة وستين سنة من الطوفان، أرسله الله تعالى وأخاه هارون إلى فرعون كما هو مذكور في القرآن، في عدة مواطن ما بين إيجاز ومساواتهوأطناب على مقتضى الحال، وآتاه الله تسع آيات بينات آي دلالات واضحات، وهي العصا واليد البيضاء والعقدة التي كانت بلسانه فحلها، وفلق البحر والجراد والطوفان والقمل والضفادع والدم كما قاله ابن عباس والضحاك.

وقال عكرمة هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنون ونقص من الثمرات.

وروي مرفوعاً أن يهودياً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الآيات التسع فقال ألا يشركوا بالله شيئاً، ولا يقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا يزنوا، ولا يأكلوا الربا،

---

(328) أ و ب وقد.

ولا يسخروا، ولا يمشوا بالبريء إلى السلطان، ولا يقذفوا المحصنة، ولا يفروا من الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعتدوا في السبت: [من البسيط]

آيات موسى الكليم التسع قد وردت	على اختلاف بها جاءت روايات
فاخترت منها الذي يرويه عكرمة	تضمنتها بهذا النظم أبيات
عصاته واليد البيضاء يخرجها	من غير سوءٍ لها بالضو لمعات
طوفانهم وهو طاعون أحاط بهم	ومحكم الذكر كم فيه كنايات
ضفادع وسنون قمل ودم	نقص الثمار جرادهن آيات

وكان موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهم بمصر، أن الله تعالى إذا أهلك عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون. فلما فعل الله ذلك بهم، سأل موسى ربه الكتاب، فأمره الله عز وجل أن يصوم ثلاثين يوماً. فلما تمت الثلاثون أنكر خلوف فمه، فتسوك بعود خروب، وقال أبو العالية أكل من لحاء شجرة. فقالت له الملائكة: كنا نشم من فيك ريح المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذي الحجة، وقال ما علمت أن خلوف الصايم أطيب عندي من ريح المسك، وكان فتنتهم في العشرة التي زادها فلما جاء للميقات للذي ضرب الله له أن يكلمه فيه، تطهر موسى وطهر ثيابه وأتى طور سيناء، فأنزل الله تعالى ظله على سبعة فراسخ وطرد عنه الشيطان وطرد هوام الأرض ونحى عنه الملكين، وكشط له السماء فرأى الملائكة قياماً في الهواء، ورأى العرش بارزاً. وكلمه الله تعالى وناجاه حتى أسمعه، وكان جبريل معه فلم يسمع ما كلمه ربه، وأدناه على صرير الأقلام، فاستحلى موسى كلام ربه واشتاق إلى رؤيته، فقال: رب أرني أنظر إليك، قال: لن تراني وليس لبشر أن يطيق النظر إلي في الدنيا، من نظر إلي في الدنيا مات. فقال: إلهي سمعت كلامك فاشتقت إلى النظر إليك ولئن أنظر إليك ثم أمُت أحبُ إلي من أن أعيش ولا أراك. فقال الله تعالى له: انظر إلى الجبل وهو أعظم جبل بمدين يقال له زبيرة، فإن استقر مكانه فسوف تراني.

قال وهب [بن منبه]: لما سأل موسى ربه الرؤية أرسل إليه الضباب والصواعق والظلمة والرعد والبرق، وأحاطت بالجبل الذي عليه موسى أربع فراسخ من كل جانب، وأمر الله ملائكة السموات أن يعترضوا على موسى، فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيران البقر، تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد، ثم أمر الله ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا إلى موسى فاعترضوا عليه، فهبطوا عليه كأمثال

الأسود لهم زجل بالتسبيح والتقديس، ففزع العبد الضعيف ابن عمران مما رأى وسمع، واقشعرت كل شعرة في رأسه وجسده، ثم قال: قد[329] ندمت على مسألتي فهل ينجيني من مكاني الذي أنا فيه شيء؟ فقال له خير الملائكة ورأسهم: يا موسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت، ثم أمر الله ملائكة السماء الثالثة أن اهبطوا إلى موسى فاعترضوا عليه، فهبطوا أمثال النسور لهم زجل وصف ورجف ووجيب شديد، وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس، كجلب الجيش العظيم، ألوانهم كلهب النار، ففزع موسى وآيس من الحياة. فقال له خير الملائكة: مكانك يا بن عمران حتى ترى ما لا تصبر عليه، ثم أمر الله ملائكة السماء الرابعة أن اهبطوا فاعترضوا على موسى بن عمران، فهبطوا عليه لا يشبههم شيء من الذين مروا قبلهم، ألوانهم كلهب النار، وسائر خلقهم كالثلج الأبيض، أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس، لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مروا قبلهم، فاصطكت ركبتاه وارتعد قلبه واشتد بكاؤه. فقال له خير الملائكة ورأسهم: يا بن عمران اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت. ثم أمر الله ملائكة السماء الخامسة أن اهبطوا فاعترضوا على موسى، فهبطوا عليه لهم سبعة ألوان، فلم يستطع موسى أن يتبعهم، بصره لم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم، فامتلأ جوفه خوفاً، واشتد حزنه وكثر بكاؤه. فقال خير الملائكة ورأسهم: يا بن عمران مكانك حتى ترى بعض ما لا تصبر عليه. ثم أمر الله تعالى ملائكة السادسة أن اهبطوا على عبدي الذي طلب ليراني فاعترضوا عليه، فهبطوا عليه في يد كل واحد منهم مثل النخلة الطويلة نار أشد ضوء من الشمس، ولباسهم كلهب النار إذا سبحوا وقدسوا جاوبهم من كان قبلهم من ملائكة السموات، كلهم يقولون بشدة أصواتهم سبوح قدوس، رب العزة والروح، الذي لا يموت، في رأس كل ملك منهم أربعة أوجه. فلما رآهم موسى رفع صوته يسبح معهم حين يسبحوا وهو يبكي ويقول: ربْ اذكرني ولا تنس عبدك لا أدري أنفلت مما أنا فيه أم لا؟ إن خرجت احترقت وإن مكثت مت. فقال له كبير الملائكة ورأسهم: قد أوشكت يا بن عمران أن يشتد خوفك وينخلع قلبك فاصبر للذي سألت. ثم أمر الله تعالى أن يحمل عرشه في ملائكة السماء السابعة فلما بدا نور العرش انفرج الجبل من عظمة الرب عز وجل، ورفعت الملائكة أصواتهم جميعاً يقولون سبحان القدوس رب العزة لا يموت بشدة أصواتهم، فارتج الجبل واندك، وكل شجرة كانت فيه، وخر العبد الضعيف موسى على وجهه ليس معه روحه، فأرسل الله تعالى برحمته الروح فتغشاه، وقلب عليه الحجر الذي كان عليه موسى، وجعله كهيئة القبة لئلا يحترق موسى، فأقامه الروح مثل الأم،

---

(329) - ساقطة من ا.

فقام موسى يسبح الله تعالى ويقول آمنت بك ربي وصدقت أنه لا يراك أحد فيحيى، من نظر إلى ملائكتك ينخلع قلبه فما أعظمك وأعظم ملائكتك أنت رب الأرباب، وإله الآلهة، وملك الملوك، لا يعدلك شيء، رب تبت إليك، الحمد لك، لا شريك لك، ما أعظمك، وما أجلك رب العالمين، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾[330].

قال ابن عباس: ظهر نور ربه للجبل جبل زبير. قال الضحاك: أظهر الله من نور الحجب مثل منخر ثور. وقال كعب: ما تجلى من عظمة الله للجبل إلا مثل سم الخياط. وقال السدي: ما تجلى إلا قدر الخنصر يدل عليه.

وما روي ثابت عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال: هكذا. ووضع الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل.

وعن سهل بن سعد أن الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نوراً قدر الدرهم، فجعل الجبل دكاً أي مستوياً بالأرض، وقيل دكاً أي فتته، وقيل جعله تراباً، وقيل رملاً هائلاً، وقيل جعل جبالاً صغاراً. يدل لهذا ما وقع في بعض التفاسير، صار لعظمته ستة أجبل، ثلاثة في المدينة أحد وورقان ورضوى، وثلاثة بمكة ثور وثبير وحراء. وخر موسى صعقاً، أي مغشياً عليه أو متياً، خرّ يوم الخميس يوم عرفة، وأعطي التوراة يوم النحر.

قال الواقدي[331]: لما خر موسى صعقاً قالت ملائكة السماء ما لابن عمران وسؤال الرؤية، وفي بعض الكتب أن ملائكة السماء أتوا موسى وهو مغشي، عليه فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ويقولون يا ابن نساء الحيض، أطمعت في رؤية رب العزة، فلما أفاق من صعقته وثاب إليه عقله وعرف أنه سأل أمراً لا ينبغي له قال: سبحانك تبت إليك عن سؤال الرؤية وأنا أول المؤمنين بأنك لا ترى في الدنيا. انتهى بغوي.

أخرج الطبراني والأصبهاني عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى ناجى موسى بمائة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام، فكان بما ناجاه به أن قال: يا موسى إنه لم يَتَقنع إلى المتقنعون بمثل الزهد في الدنيا، ولم يتقرب إليَّ المتقربون بمثل الورع عما حرمت عليهم، ولم يتعبد لي المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي. قال موسى[332]: يا رب فماذا أعددت لهم؟ قال أما الزهاد في الدنيا فإني أبحت

---

(330) - سورة الأعراف، الآية 143.

(331) - ابو عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي ولد سنة 130 هجرية وتوفي سنة 207 هجرية عالم مدني سكن في بغداد . واشهر كتبه التاريخ والمغازي وفتوح الشام المفقود.

(332) - ساقطة من ا.

لهم جنتي يقيلون منها حيث شاؤوا، وأما الورعون عما حرمت عليهم، فإنه إذا كان يوم القيامة فإنه لم يبق عبد إلا ناقشته وفتشته إلا الورعون فإني أستَحْليهم وأجلهم وأُكْرِمُهم وأُدخلهم الجنة بغير حساب. وأما الباكون من خشيتي، فأولئك لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه. انتهى من البدور السافرة للسيوطي[333].

ومن غريب المنقول، في صحيح النقول، انه لما تجلى الله لموسى بن عمران، كما ذكره في محكم القرآن، انطبقت صورته الشريفة بما بالوادي من المعاني اللطيفة، مواجهاً لشجرة العليق ممتثلاً، رافعاً يديه بالدعاء مبتهلاً، وقد شهدت على حجر صورة ذلك قبل اطّلاعي من النقل على ما هنالك.

فقلت فيه من غير تمويه: [من البسيط]

غريبة من عجيب[334] النقل ما نقلت	لنا الثقات وفي تفصيله جمل
موسى بن عمران حيث الله كلمه	وخرصعقاً ومنه دكدك الجبل
تصورت باطن الأحجار صورته	مواجهاً شجر العليق يبتهل
وقد شهدت لفصٍ فيه منطبع	هذا المثال حقيقاً ما به خلل

وتوفي موسى بن عمران[335] عليه السلام لأحد عشر شهراً في سابع آذار، لمضي ألف وستمائة وستٌ وعشرين سنة من الطوفان، قبل الهجرة بألفين وثلاثمائة وثمانية وأربعين سنة، عن مائة وعشرين سنة، واختلف في قبره فقيل بالتيه، وقيل بباب لد، وقيل ببيت المقدس أو بدمشق، أو بواد بين بصرى وبلقا، أو بمدين بين المدينة وبيت المقدس، أو بأريحا، وهي من الأرض المقدسة.

والمشهور الآن أن مقامه عليه الصلاة والسلام بالقرب من آريحا، وعنده كثيب أحمر إلى جانب الطريق، يشهد لصحة ذلك ما ورد في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ به ليلة الإسراء وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر. ويشهد لذلك ما يرى بداخل القبة من الأشباح التي ألوانهم مختلفة فيهم الراكب ومنهم الماشي. منهم من على كتفه رمح، ومنهم لابس أبيض، ومنهم لابس أخضر يصافح بعضهم بعضاً، وغير ذلك من الصفات، ينظرهم كل الناس من الرجال والنساء والأطفال، ولا يخفون على أحد. وللناس

---

(333) - البدور السافرة في أمور الآخرة للشيخ جلال الدين السيوطي

(334) ... ا غريب

(335) - ساقطة من ب

فيهم أقوال مختلفة، قال شيخنا صاحب النفس القدسي، مولانا الشيخ عبد الغني النابلسي، في رحلته: قد دخلنا إلى قبالة القبر الشريف، ووقفنا نقرأ الفاتحة مع الجماعة في ذلك القبر المنيف، وإذا بالخيالات تلمع في داخل القبة، بحيث تتحير فيها عيون الأحبة، وهناك من الحضور ما يشهد أنها خيالات الملائكة تصعد وتنزل من حضرة الملكوت على هاتيك التربة المباركة، وكان الملائكة عليهم الصلاة والسلام هم الذين ينشرون الأرياح والعجاج الشديدة إذا وقع فساد في مولده الشريف، كما أنهم يتصورون في الصور الجثمانية فتظهر خيالاتهم في القبة، وإنما يفعلون ذلك تصديقاً للنبي صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به عن موسى عليه السلام، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال وإليه المرجع والمآل. انتهى

ثم لما غربت الشمس من تلك الآفاق، وصلينا المغرب نحن وأولئك الرفاق، طلعنا نشرح الصدور برؤية هذا الوادي البهيج، ونروح النفس بانتشاق عبيره الأريج، وإلى حسن محاسنه السنية نراعي، إلى أن وردنا مقام الراعي[336]، فإنه قريب من المقام المذكور، وبه تلوح بوارق السنا والنور، وللناس فيه اختلاف في التعيين، وليس هناك دليل يرجع إليه بيقين، فيقال إنه راعي صاحب المقام، ويقال إنه مرقده حين كان يرعى لشعيب عليه السلام.

وبعد إهداء الفاتحة إليه، توسلت بجنابه وحاشا أن أرد، وقد وقفت بأعتابه وقد، كنت ابتدأت حال طلوعي من القدس، في ختمة شريفة هدية للحضرة الكليمية المنيفة، فيسر الله ختمها في تلك الليلة بالمقام وقد حصل لي من الأنس، ما أذكرني ليالي منى والمشعر الحرام. ولما كاد أن يبدو الصباح، عزمت على المسير مستبشراً بحصول النجاح، فوقفت تجاه ضريحه ودعوت الله بمكنّى القول وصريحه، وورد على القلب أنس انعش الفؤاد، فأيقنت بحصول المنى ووفق المراد. ثم انثنينا بالمسرة راجعين، مصلين عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، فوصلنا القدس عندما زالت الشمس، بعدما زرنا نبي الله العاذر [أليعازر]وقد بلغت مرامها النفس، فيا لها من زيارة ما أهناها، وأويقات ما كان أصفاها، فليس يحسب من العمر هاتيك الأوقات، وما عدا ذلك فهو لهو وخيالات. [من الكامل]

لحمى الكليم أتيت للإسعاف ... فمنحت من علياه بالاتحاف

ورجعت منه للقبول متوجاً ... ومشرّفاً فالتاج للأشراف

---

(336) - يقع مقام الراعي قرب قبر النبي موسى على بعد كيلو متر واحد، كما يبعد عن طريق القدس اريحا حوالي كيلو متر واحد. وهو بناء يضم قبر حسن احمد خليل الراعي الذي خدم المقام وتوفي قبل نحو 300 عام

وحظيت من ذاك الجناب بزورة	فيها شهدت عواطف الألطاف
فاصرف زمانك في الزيارة غانماً	متحلياً بمحاسن الأوصاف
هذا هو العمر النفيس وغيره	يمضي هباءً في هوى وتلاف

قرية أبي ثور

وفي يوم الأربعاء العشرين شهر المحرَّم، دعانا الشيخ الخليلي الأكرم، لزيارة ولي الله المجاهد أبي ثور، فسرنا قاصدين جنابه على الفور، فوصلنا إلى قريته المعمورة، التي هي[337] بأندية فيض إمداده مغمورة، فوقفنا بسوحه تجاه رحابه، وأهدينا ما تيسر من القرآن لعلياء جنابه.

قال صاحب أنس الجليل: هو الشيخ الإمام الزاهد العابد المجاهد شهاب الدين أبو العباس أحمد بن جمال الدين أبو عبد الله بن عبد الجبار المعروف بالقرشي والمشهور بأبي ثور، كان من عباد الله الصالحين، وسبب تسميته بأبي ثور أنه حضر فتح بيت المقدس وكان يركب ثوراً، ويقاتل عليه في الغزاة فسمي به. وأوقف عليه الملك العزيز أبو الفتح عثمان بن الملك صلاح الدين بن أيوب القرية التي بالقرب من باب الخليل، أحد أبواب مدينة القدس، قرية صغيرة من بناء الروم قديماً، تعرف الآن بدير أبي ثور[338]، توفي ودفن بالقرية في القرن السادس، وقبره بها ظاهر يزار وله ذرية مقيمون بها.

ومما يحكى عنه أنه كان مقيماً بالقرية المذكورة، وإذا قصد ابتياع شيء من المأكول كان يكتب ورقة بما يريد ويضعها في رقبة ثوره، فيحضر الثور إلى القدس إلى أن يأتي حانوت رجل يتعاطى حوائج الشيخ، فيقف الثور عنده فيأخذ ذلك الرجل الورقة ويقرأها ويأخذ للشيخ ما طلب، ويحمله الثور، فيرجع به الثور، وهي من جملة كراماته.

ثم توجهنا إلى أرض البقعة بعد ذلك، وأقمنا بقية يومنا هنالك، نحتسي كاسات الأنس والسرور، ونجتلي من روض رياض شيخنا المذكور، ما رق من ثمرات الفوائد ويانعات الزهور.

وهذا الوادي هو الذي رأى فيه النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج الآيات، كما أخبر به شيخنا المذكور، وهو من ثقاة الرواة ورواة الثقاة، وقد كان بهذا الوادي قصور

---

(337) - ساقطة من ا.

(338) - دير ابي ثور: قرية مقدسية صغيرة مقابل باب الخليل، كانت تعرف بدير مرقص او ماركوس، ثم نسبت إلى الشيخ احمد الشهير بأبي ثور، وهو احد الذين جاهدوا مع صلاح الدين الأيوبي

وبساتين، محتها توالي الأيام وتعاقب السنين، فلم يبق سوى أخبارها، والتأسف على حسنها ورؤية آثارها : [من الطويل]

قفا بي على الوادي المقدس برهةً ... لأندب أطلالاً وهت وقصورا

ولا تعذلاني إن بكيت تأسفاً ... فقد أورثتني قبل ذاك سرورا

سقى الله منها معهداً قد نزلته ... قرأت به للعارفين سطورا

وقرأت على شيخنا المذكور ذلك اليوم بقصره المأنوس كتاب ابن عطاء الله المسمى بتاج العروس[339]، الذي اشتمل على حكم عجيبة وأمثال غريبة، فمنها :

من أكثر من مجالسة أهل هذا الزمان، فقد تعرض لمعصية الله تعالى، مثاله كمن جعل الحطب اليابس في النار ويريد أن لا ينفد، فقد أراد محالاً لأنه قد ورد خُصّ بالبلاء من عرف الناس وعاشر فيهم من لم يعرفهم، فربما جالست غير متقٍ وكنت أنت متقياً فجرك إلى الغيبة، وقهرك في نفسك. ما خرّب القلوب إلاّ قلة الخوف. القلب الحسن هو الذي لا يشغله حسن. إن أردت شفاء قلبك فاخرج إلى صحراء التوبة، وحوّل حالك من الغيبة إلى الحضور، والبس ثياب الذلة والمسكنة فإن القلب يشفى، ولكنك تحشو بطنك وتتفاخر بالسمن، فمثالك كالخروف الذي يسمن للذبح، ألا فقد ذبحت نفسك وأنت لا تشعر.

ومنها في مبحث المناجاة:

إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار، فارجعني إليك بكسوة الأنوار، وهداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها، مصون السر عن النظر إليها، ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها، إنك على كل شيء قدير. انتهى

ثم وصلنا سرور ذلك اليوم المشهود، بالمبيت بسوح خليفة الله داوود، عليه وعلى جميع الأنبياء صلوات وتحية، فواتحها مكية وخواتمها مسكية. وجلسنا تجاه مقامه الكريم، نتدارس القرآن العظيم، إلى أن برق ضياء الفجر ولاح، وحيعل المؤذن بالفلاح، فوجدنا لوامع برق القبول لائحة، وعواطف الإمدادات بعطر رياض دوحه فائحة: [من الكامل]

---

[339] - احمد بن محمد بن عبد الكريم، المعروف بابن عطاء الله السكندري، كنيته: ابو الفضل، وابو العباس لقبه: تاج الدين، هو من اهل الإسكندرية، ونسب إليها. ونسب في بعض المصادر من جهة اصله فقيل: الجذامي اهم مؤلفاته: التنوير في إسقاط التدبير، ولطائف المنن، تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس، ومفتاح الفلاح، وغيرها. وقد كانت وفاته: في العقد الأول من القرن الثامن الهجري سنة تسع وسبعمائة[709هجرية]

بمقـــام داوود الـــنبي تـــواردت نحـوي العواطـف مـن فـسيح رحابـه
وتعطـــرت روحـــي بفـــائح دوحـــه لـمـــاَ وقفـــت تأدبـــاً في بابـــه

وقد أطلعت في تلك الليلة على كتاب (الإعلان في تفسير ما انبهم من القرآن) للعالم العلامة النبيل أبي القاسم السهيلي[340] الجليل. فذكر في آخر سورة الكهف أنه لما حان للخضر وموسى عليهما السلام أن يفترقا، قال له الخضر: لو صبرت لآتيت على ألف عجب كلها أعجب مما رأيت، قال فبكى موسى على فراقه، فقال موسى للخضر: أوصني يا نبي الله. قال: يا موسى اجعل همك في معادك، ولا تخض فيما لا يعنيك، ولا تأمن الخوف في أمنك، ولا تيأس من الأمن في خوفك، وتدبر الأمور في علانيتك، ولا تذر الإحسان في قدرتك. قال له موسى: زدني يرحمك الله. فقال له: يا موسى إياك والإعجاب بنفسك، والتفريط فيما بقي من عمرك. فقال له موسى: زدني رحمك الله. فقال له: يا موسى إياك واللجاجة، ولا تمشِ في غير حاجة، ولا تضحك من غير عجب، ولا تعيّر أحداً من الخطائين بخطئهم بعد الندم، وابك على خطيئتك يا بن عمران. قال له موسى: قد أبلغت في الوصية فأتم الله عليك نعمته وعمرك في رحمته وكلأك من عدوه. وقال له الخضر: أوصني أنت يا موسى. فقال له موسى: إياك والغضب إلاّ في الله، ولا ترض عن أحد إلاّ في الله، ولا تحب لدنيا ولا تبغض لدنيا فإنها تخرجك من الإيمان وتدخلك في الكفر. فقال له الخضر: قد أبلغت في الوصية فأعانك الله على طاعته، وأراك السرور في أمرك وحببك إلى خلقه، وأوسع عليك من فضله. قال له موسى آمين. انتهى [من الكامل]

الخـضر مـع موسـى الكليم تواصيا حكمـاً تـرق لهـا القلـوب وتخـشع
فاصرف أمورك في المعاد ولا تخض في غـير مـا يعنيـك فهـو المقنـع
والعجـب دعـه فـلا تكـون مفرّطـاً فيمـا بقـي فـالعمر فيـه مـضيع
واحـرص علـى الإحـسان مقتـدراً بـه فهـو الـذي يـوم القيامـة ينفـع

[340] - (التعريف والإعلام فيما ابهم في القرآن من الأسماء الأعلام) لعبد الرحمن ابو القاسم بن عبد الله السهيلي المولود سنة 508 هجرية بمدينة مالقة الاسبانية فقد بصره وهو في سن السابعة عشرة بسبب رمد الم بعينيه نشأ فقيرا معوزا لكن عاهته لم تحد من طموحه ورغبته في المجدف. فسافرفي رحلات علمية الى قرطبة وغرناطة واشبيلية واشتغل بالتدريس في مالقة استدعاه يوسف بن عبد المؤمن الموحدي ليكون من رجالاته فاستجاب للدعوة وانتقل لمراكش في احتفال كبير. وبعد وفاته خلد من اعظم رجالات مراكش السبعة

أبغض وحب لوجه مولاك الذي الـ ... حسنى لـه وبـه المضرة تـدفع

وارج وخفْ من غير أمن عذابه ... واليأس دع في خوفه إذ تفـزع

فالق[341] إليها السمع لا متغافلاً ... واعمل بها إن كنت ممن يسمع

الاسم الثاني للخلوتية

وفي يوم الخميس بعد صلاة العصر مع الجماعة، دعاني الأستاذ إلى باب الرحمة فأجبت بالسمع والطاعة، ولقنني الاسم الثاني للسادة الخلوتية، فكان لي بذلك أوفى نعمة سنية، وأمرني المداومة عليه مكاناً وزماناً، مع ذكري الاسم الأول أحياناً، فتواردت علي[342] بذلك المبشرات، وأيقنت بحصول المبرات والمسرات، ثم أمرني بالخلوة بالحرم المقدس الأنيس، فدخلتها ليلة الاثنين وطلعت ليلة الخميس، وكان حضرة الأستاذ يحضر عندي في بعض الأحيان، ويسألني عما حدث لي بهذا الشأن، فأخبره بما يرد علي من الموارد، وما أشاهد في تلك الخلوة من المشاهد، فيبشرني تارة وينذر أخرى، لأنه أعلم بذلك وصاحب البيت أدرى. [من الطويل]

ظفرت بليل في اجتهادي وخلوتي ... ولم أك مشغولاً ببهجة جلوتي

لبست لها ثوب الخلاعة راضياً ... بذلي لديها فهي أبهج حلتي

ثم لم أزل في البيت المقدس، أرتع في روض حماه الأقدس، إلى غاية شهر المحرم الحرام، وأنا في غاية الأنس وترادف الإنعام، أطوي الليالي بمسامرة الأفكار، وأنشر الأيام بمصاحبة الأخيار، وكنت غالب الأوقات أعتكف بالمسجد الأقصى، أجتني من رياضه ثمار عواطف لا تعد ولا تحصى، ومتى سئمت النفس مقامها بمعهد، أروّحها بالانتقال من معهد إلى مشهد، وبين العشائين أجلس في قبة السلسلة محكمة داوود، لوارد أنس ألفيه بذاك المقام مشهود، وفي بعض الليالي أنزل تحت الصخرة بذلة وخضوع، فأجد هنالك خشية تجري من العيون الدموع، فأرفع كفي بالطلب، وأرجو من الله بلوغ الأرب، وجدير أن الإنسان لا يستطيع أن يجلس بها بحالة الانفراد، لما يجد فيها من شدة جلال الوراد. ولقد حدثتني نفسي فيها ليلة بالمقام، لأجتلي الأنس من وارد هذا المقام، فاستأذنت في ذلك من بها من الخدم، الذي ثبت له في صحبتي أوثق قدم، فأجابني هنالك قائلاً: لا قدرة لك على ذلك.

---

[341] - تكتب وارجْ والقِ بحذف حرفي العلة من آخرهما ولكن عند القراءة نشبع كل حرف منهما بالحرف المحذوف

[342] - ساقطة من أ.

فبعد صلاة العشاء بهذه الرحاب، نزلت إليها وقد قفلت من قبة الصخرة الأبواب، وجلست تجاه القبلة مستقبلاً، ولفيض فضل الله الكريم متأملاً، ثم استفتحت بتلاوة القرآن العظيم، راجياً ختمة في هذا المقام الكريم، فلما أن وصلت إلى سورة آل عمران، ورد عليّ وارد فكاد أن يطيش مني الجنان، فصعدت على السرعة من شدة الجزع، وكدت أن أسقط من توالي الفزع، فجلست ساعة حتى ثابت لي النفس، واجتمعت لدي الحواس الخمس، وأقبل الخادم نحوي مسرعاً، ولما رأى من حالتي علي فزعاً، فسألته عن ذلك السبب، فقال ولهذا جلال من يرد إلى هذا المقام من أهل الرتب، فقضيت بقية ليلتي بقبة الصخرة السنية، مستبشراً بحصول المواهب اللدنية، فيا لها من ليلة تحيى بها موات القلوب، وينجلي ببوارقها سحائب الكروب. [من البسيط]

لله ليلة أنس طاب واردها	بكعبة القرب للأركان نستلم
أضاء نحوي بروق من لوامعها	فكدت أصعق حيث العقل ينثلم
وأغدقت من سحاب الفيض غادقةً	غنمتها ففيوض الغيب تُغْتَنَمُ

تحفة لطيفة في حقيقة الصخرة الشريفة

فإنها صخرة في وسط المسجد قد انقطعت من كل جهة[343]، لا يمسكها إلاّ الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه، وهي مائلة من جهة الجنوب، وفي الجهة الثانية أثر أصابع الملائكة التي أمسكتها حين مالت حين ركب النبي صلى الله عليه وسلم البراق، وقد بنى تحتها بناءً تطميناً لمن ينزل تحتها، وعليها قبة في غاية الحسن والإتقان لا يدرك وصفها إلاّ من شاهدها بالعيان، وهي من الأماكن المأنوسة اللطيفة، والمحلات المأثورة المنيفة، وقد ورد في فضلها أحاديث وآثار، وقد شاع ذكرها في جميع الأقطار.

فعن علي بن أبي طالب مرفوعاً، سيد البقاع بيت المقدس، وسيد الصخور صخرة بيت المقدس.

وعن ابن عباس مرفوعاً صخرة بيت المقدس من صخور الجنة.

---

[343] - في ب مقطوعة الجهات وفي أ على الهامش الأيسر من المخطوطة توضيح من الناسخ يشكك بموضوع قطع الصخرة هذا نصه: (تأمل هذه الجملة، فإن الذي يظهر ان ذلك ليس بكائن، لأن الذي يشاهد من الصخرة الأن إنما هو سطح صخرة كبيرة تزيد على ثلاثين ذراعاً في مثلها، وقوله قد انقطعت إلخ ليس بظاهر في بادئ الراي والنقل وإنما هو كلام العامة)

وعن كعب [الأحبار]، الجنة في السماء بإزاء الصخرة، لو وقع منها حجر لوقع على الصخرة.

وعن عبادة بن الصامت ورافع بن خديج قال: إن الله عز وجل لما استوى إلى السماء قال لصخرة بيت المقدس: هذا مقامي وموضع عرشي يوم القيامة، ومحشر عبادي، وهذا موضع جنتي عن يمينها، وموضع ناري عن يسارها، وفيه أنصب ميزاني أمامها، وأنا الله ديان يوم الدين، ثم استوي إلى عليين.

وعن الزهري عن وهب [ابن منبه] مرفوعاً، قال الله تعالى لصخرة بيت المقدس فيك جنتي وناري، وفيك جزائي وعقابي، وطوبى لمن زارك، أو قال طوبى لمن رآك.

وعن أبي هريرة مرفوعاً، المياه العذبة والرياح اللواقع من تحت صخرة بيت المقدس.

وعن عبادة بن الصامت مرفوعاً، الصخرة صخرة بيت المقدس على نخلة، والنخلة على نهر من أنهار الجنة، وتحت النخلة آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران ينظمان سموط أهل الجنة إلى يوم القيامة.

وعن ابن عباس مرفوعاً، الأنهار أربعة سيحان وجيحان والفراة [الفرات] والنيل. فأما سيحان فنهر بلخ، وأما جيحان فدجلة، وأما النيل فنيل مصر، وأما الفرات ففرات الكوفة، وكل ما يشربه ابن آدم من هذه الأربعة يخرج من تحت الصخرة.

وعن كعب أنه قال ما من نقطة من غير عذبة إلاّ ومخرجها من تحت صخرة بيت المقدس.

وعن مكحول قال: من أتى بيت المقدس فصلى عن يمين الصخرة وعن شمالها، ودعا عند موضع السلسلة، وتصدق بما قل أو كَثر، استجيب له دعاؤه، وكشف الله حزنه، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فينبغي لمن أراد الدخول إليها أن يبدأ بالرجل اليمين قائلاً: اللهم اغفر لي وافتح لي أبواب رحمتك، اللهم من أتاك من ذي ذنب فاغفر ذنبه، أو ذي ضُرٍّ فاكشف ضُرَّهُ. اللهم بنورك اهتديت وبفضلك استغنيت، وبك أصبحت وأمسيت، ذنوبي بين يديك، أستغفرك وأتوب إليك، يا حنان يا منان، ثم يدعو بعد ذلك بما يشاء من الدعوات فإنه من مواطن الإجابات: [من الكامل]

ولصخرة الأقصى الرفيع فضائل ... فبمدحها ورد الحديث المسند

ولها افتخار حيث كانت قبلة ... وبها لأرباب المعارف معبد

وبليلة الإسرا الشريفة خصصت	بمزية حيث ارتقاها أحمد
نروي من الأخبار نصاً أنها	خير الصخور بها المآثر تشهد
من زارها تُمحى جميع ذنوبه	وكفى بذاك فضيلة لا تجحد
فيها الحبور مع الأجور مضاعفٌ	وكذا القبول لمن بها يتعبد
فإذا وصلت إلى حماها فاغتنم	قصد الأجور فنعم ذاك المقصد

وكم بهذا المشهد النفيس، من مشهد ومعهد أنيس، فمنها قبة المعراج، ذات الضياء والنور الوهاج، ومحل رؤيته صلى الله عليه وسلم الحور العين، عن أيمن الصخرة الشريفة بيقين، وموضع ما صلى بالنبيين والملائكة، في تلك البقعة المباركة، ومحكمة داوود عليه السلام، وهي قبة السلسلة ذات الإحكام، ومهد عيسى ابن مريم الذي نور سناه قد عم، والصخرة التي وقف عليها سيدنا سليمان، حين أتمّ بناء المسجد ودعا فاستجاب له الرحمن، ومحراب نبي الله داوود، ذو الجلال المشهود، ومحراب نبي الله زكريا، إذ دعا الله به دعاءً خفياً، وبين الورقة المشهور، وسوق المعرفة غير المنكور، وموضع مصلى الخضر عليه السلام، كما شاهد بذلك بعض الأئمة الأعلام، فلعمري لو شاهدت تلك المشاهد، ورأيت أنوار هاتيك المعاهد، لبكيت حسرة وتأسفاً، حيث كنت عنها في سالف الزمن متخلفاً، ولقرعت سن الندم، حيث فاتك ذلك المغتنم، فلقد قال بشر الحافي[344] الوليْ الهمام، لم يبق عندي من لذات الدنيا إلا أن أكون بالمسجد الأقصى والسلام. [من الكامل]

للأنبياء مشاهد مشهودة	بالمسجد الأقصى الرفيع المعهد
بيمين صخرته شهود المصطفى	للحور ربات الجمال المفرد
ومحلّ ما صلّى بأملاك السما	والأنبيا أعظم به من مشهد
ومحلّ بدء عروجه نحو العلا	رفعاً فنعم المبتدا والمبتدي
محراب داوود وقبة حكمه	ومحل مهدٍ للمسيح الأزهد
ومآثر مشهورة بشرى لمن	وافى لها من متهم أو منجد
لو شاهدت عيناك منها مشهداً	لوقفت مندهشاً بذاك المشهد

---

[344] - ابو نصر بشر بن الحارث الحافي اصله من مرو، وقد سكن بغداد ومات فيها، وكان كبير الشان، من اغنى اغنياء بغداد، وقد كان قمّاراً خمّاراً زمّاراً وكان لا يتورع عن فعل المنكرات والمحرمات الكبيرة، غير انه تاب على يد الامام موسى الكاظم كما هو مأثور في مصادر الشيعة، واصبح من اشهر التائبين

فعسى تسير بك العناية نحوه وتحل من علياه أفضل معبد

وإذا وصلت إلي حماه فاغتنم صفو الزمان وفرصة المتعبد

واكحل جفونك من ثرى أعتابه فهو الشفاء لكل طرف أرمد

وانظر له ببصيرة مجلوة لترى الحقائق من علاه تبتدي

واشرب من الكأس المروّق مشرباً كالسلسبيل الصِّرف عذبَ المورد

الشيخ مصطفى البكري الصديقي

ولقد اجتمعت حال مقامي بالقدس بأئمة سادة، فحصل لي بصحبتهم الحسنى وزيادة.

فمنهم الإمام الكامل صاحب النسب الباذخ والحسب العالي الشامخ، فرع الشجرة العلوية، وثمرة الشجرة الشريقة البكرية، صاحب الذات اللطيفة القدسية، وكنز الخصال الحميدة السنية، أستاذنا الأعظم، وملاذنا الأكرم، مولانا السيد مصطفى البكري الصديقي الشارب من كؤوس المحبة الشراب الحقيقي، فطال ما اقتبست من مشكاة بهجته أنواراً، واجتنيت من حدائق روضه أسراراً، ومنحني من موانحه إمداداً، وأتحفني من سوانحه أوراداً، فمن ذلك ورد السحر والإشراق، وورد الضحى الذي عمّ سرّه الآفاق، وأفادني من غرر معارفه فوائد، هي في عقد جيد الزمان فرائد، منها أن الإنسان إذا خاف من عدو فليأخذ قبضة من تراب ويجلس، ثم يقول ساهو باهو تاهو الملجم النجّاد الله، اللهم يا من ألجمت لسان كل متكبر بلسان قدرتك، سلم سلم سلم، ثم يرشد تجاه العدو، فإنه يكفاه.

قال ولقد جربت ذلك فوجدته صحيحاً في الاختفاء من الأعداء، ومنها أنّ الإنسان بعد صلاة الصبح والمغرب، يضع يده اليمنى على قلبه ويقول: يا فتاح، إحدى وسبعين مرة، فإنه مجرب للفتوح. ومنها أن الإنسان إذا خاف شر إنسان أو غيره، أن يقرأ آية ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾[345] يكررها مراراً فإن الله يصرف عنه شر من أراده[346] بسوء. [من البسيط]

روض من الفضل قد سحت غوادقه وفاح من عَرفه كالنَّد عاطرُهُ

---

(345) سورة القصص، الآية 85.

(346) - أ قصده

حاولت أحصي الذي أبداه من حلم فما استطعت وهل شهم يناظره

وكيف أحصي الذي أملاه سيدنا والروض إن جلَّ لا تحصى أزاهره

الشيخ محمد الخليلي

ومنهم من جمع بحر الشريعة والحقيقة، ومصدر أهل السلوك والطريقة، خلاصة أصحاب العلوم، مختار أهل الحدود والرسوم، العمدة الكامل الهمام، والعلامة الجهبذ الإمام، مولانا الشيخ محمد الخليلي الشافعي المذهب، من له في كل فن اجتهاد ومذهب.

فكنت أرد لمجلسه كل يوم بين العصرين، فأسمع منه فوائد تقرّ بها العين، وأجلس معه في حلقة الذكر ليلة الجمعة بسطح الصخرة السنيّة، استشراقاً لتنزيلات الفيوضات الربانية. فكانت تلوح علينا من هنالك مشارق الأنوار، وتبدو لنا بوارق لوامع الأسرار، وقد كتب لي إجازة بجميع مروياته بخطه الكريم، وبدأها بخطبة وبحث عظيم، يشهدان له بفضله الجسيم، وفوق كل ذي علم عليم.

وأفادني صلوات نبوية على أشرف خير البَريَّة. وهي الذي أهداها الفخر الرازي[347] عمدة أهل العرفان، إلى ابن العراقي عليهما الرحمة والرضوان، وذكر أن من قرأها كل يوم مرة كان تحت نظر القطب النافذ في الحقيقة أمره، الذي هو الكعبة الحقيقية، ومحل نظر الله من هذا العالم أعظم بذلك مزية وهي:

اللهم جدد وجرد من صلواتك التامات، وتحياتك الزاكيات، ورضوانك الأكبر الأتم الأدوم، على أكمل عبد لك في هذا العالم من بني آدم، الذي أقمته لك ظلاً وجعلته لحوائج خلقك قبلة ومحلاً، واصطفيته لنفسك، واقمته بحجتك، وأظهرته بصورتك[348]، واخترته مستوى لتجليك، ومنزلاً لتنفيذ أوامرك ونواهيك، في أرضك وسماواتك، وواسطة بينك وبين مكوناتك، وبلغ سلام عبدك هذا إليه، فعليه منك الآن أفضل الصلوات، وأشرف التحيات، وأزكى التسليمات، اللهم ذكره بي ليذكرني عندك، بما أنت تعلم أنه نافع لي عاجلاً وآجلاً، على قدر معرفته بك، ومنزلته لديك، لا على قدر علمي ومنتهى فهمي إنك، بكل فضل جدير، وعلى كل شيء قدير، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليماً كثيراً.

---

[347] . محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي التميمي البكري الرازي المعروف بفخر الدين الرازي أو ابن خطيب الري وهو عالم موسوعي امتدت بحوثه ودراساته ومؤلفاته من العلوم الإنسانية اللغوية والعقلية إلى العلوم البحتة في: الفيزياء، الرياضيات، الطب، الفلك . ولد فخر الدين الرازي بمدينة الري عام 543هـ

[348] - قوله، وأظهرته بصورتك، هذا شطحٌ مخالف لمنطوق القرآن (ليس كمثله شيء وهو السميع العليم)

وحضرت مولانا الشيخ المذكور، وفضله في جميع الأقطار مشهور، وهو مقصد لذوي الحاجات، وموصوف بإجابة الدعوات، فلو صليت خلفه وسمعت قراءته في المحراب، لأدركك من الخشوع ما لا مزيد عليه، ولظننته أنه نبي الله داوود الأواب، ومن كراماته أنه كلمه موسى من قبره[349] عليه السلام، كما هو مستفاض ذلك بين الخاص والعام، أمدنا الله تعالى من إمداده ولحظنا من عواطف إسعاده. [من الكامل]

مولى تولته العناية قبل أن ... يبدو إلى هذا الوجود ممجّدا

فبدا على سنن الهداية سالكاً ... ومُسلكاً أهل الطريقة بالهدى

سمع الكلام من الكليم كرامة ... بمقامه أعظم بذلك مشهدا

الشيخ أحمد الموقت

ومنهم صاحب الطبع السليم والحال المستقيم، والفهم الذي يسبق هبوب النسيم، جامع الأخلاق السنيّة. وحاوي الفضائل السنيّة، المتحلّي بمحاسن العفاف والشيم، ومن له في حل المشكلات أثبت قدم، مولانا الشيخ أحمد الموقت بحرم القدس، المالكي المذهب المحيط ببقية المذاهب بلا لبس، فطال ما كنت أجتمع بحضرته الشريفة، وتجري ما بيننا مباحث علمية لطيفة. وإنه يذعن للحق حيث ما دار، ويعترف به ويرجع إليه بلا إنكار. وقد اتفق لي معه أنه صدر ذكر[350] بناء سيدنا داوود عليه السلام للبيت المقدس البديع الإحكام، فقلت إنه بناه سنة خمس وسبعين وأربعماية لوفاة موسى عليه السلام، فقال لي لا يصح هذا الكلام، وأجرى قصة سيدنا موسى عليه السلام مع بني إسرائيل لما أمرهم الله تعالى بدخول الأرض المقدسة، كما هو في محكم التنزيل، وأنه دخل من باب حطة مع المؤمنين، وإنه مكتوب عليه الاسم الأعظم بيقين. فقلت له أنا ناقل عن صاحب أنس الجليل. وإني على يقين من هذا النقل وعلى الدليل، فقال لعل ذلك تحريف من الكتاب، أو أن الناقل نقل خلاف الصواب. ثم إنه فكر ساعة وقال: أنت على الحق اليقين، ولك دليل على ذلك بنص الكتاب المبين. وهو قوله تعالى ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾[351] وذلك في زمن داوود

---

[349] - لا احد يعلم مكان قبر موسى

[350] - أ ذلك

[351] - سورة البقرة، الآية 248

حين قتل طالوت جالوت، فانظر إلى قراره في الحال خلافاً لما عليه بعض المتعصبين الجهال.

استطراد :

الشيء بالشيء يذكر، والمناسبة لا تنكر، اعلم أن حقيقة التابوت قد كثرت فيه الأقاويل والنعوت.

قال البغوي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾[352] وكأن قصة التابوت أن الله تعالى أنزل تابوتاً على آدم فيه صور الأنبياء، وكان من عود الشمشاد نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين، فكان عند آدم إلى أن مات، ثم بعد ذلك عند شيث، ثم توارثه أولاد آدم إلى أن بلغ إبراهيم، ثم عند إسمعيل، لأنه كان أكبر ولده ثم عند يعقوب، ثم كان في بني إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى عليه الصلاة والسلام، فكان يضع فيه التوراة ومتاعاً من متاعه، وكان عنده إلى أن مات، ثم تداولته أنبياء بني إسرائيل إلى وقت اشماويل[353]، وكان فيه ما ذكر الله تعالى فيه سكينة من ربكم وبقية. واختلفوا في السكينة ما هي.

قال علي بن أبي طالب: ريح حجوج هفافة لها رأسان ووجه كوجه الإنسان.

وعن مجاهد شيء يشبه الهرة، له رأس كرأس الهرة، وذنب كذنب الهرة، وله جناحان وقيل له عينان لهما شعاع وجناحان من زمرد أخضر وزبرجد، وكانوا إذا سمعوا صوته يقنوا بالنصرة وكانوا إذا خرجوا وضعوا التابوت أمامهم فإذا سار ساروا وإذا وقف وقفوا.

وعن ابن عباس قال: هي طست من ذهب من الجنة كان يغسل فيه قلوب الأنبياء.

وعن وهب بن منبه قال: هي روح من الله تتكلم، إذا اختلفوا في شيء تخبرهم ببيان ما يريدون.

وقال عطا بن أبي رباح: هي ما يعرفون من الآيات فيسكنون إليها.

وقال قتادة والكلبي: السكينة فعلية من السكون، أي طمأنينة من ربكم، ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون، يعني موسى وهارون أنفسهما، كان فيه لوحان من التوراة ورضاض الألواح التي تكسرت، وكان فيه

---

[352] - راجع الهامش السابق

[353] - هو النبي صموئيل كما يرد في الكتاب المقدس، غير أن ابن قتيبة قال في المعارف هو شماويل بن هلقانا وهو اسماعيل بالعربية، واسم امه حنة لم يكن بينه وبين يوشع بن نون نبي وهو الذي ذكره الله عزوجل في القران

عصى موسى ونعلاه وعمامة هارون وعصاه، وقفيز من المن الذي كان ينزل بالحق على بني إسرائيل، فكان التابوت عند بني إسرائيل، وكانوا إذا اختلفوا في شيء تكلم وحكم بينهم، وإذا حضروا القتال قدموه بين أيديهم يستفتحون على عدوهم، فلما عصوا وأفسدوا، سلّط الله عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت، إلى أن كان منهم ما كان وملك عليهم طالوت، وكان آية ملكه الإتيان بالتابوت تحمله الملائكة.

قال ابن عباس جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض، وهم ينظرون إليه حتى وضعوه عند طالوت إلى آخر ما قصه الله تعالى في كتابه العزيز. انتهى

الشيخ علي الداغستاني

ومنهم المتجرد عما سوى الله في التوجه إلى المناهج السنية اللابس من لباس التقوى أشرف حلة بهيّة حاوي علم الشريعة والحقيقة والآداب. السالك من طرقها مسالك الصواب، الإمام العالم الأوحد الرباني العارف بالله، مولانا الشيخ علي الدغستاني الشافعي، طالعت عليه جملة من الرسالة القشيرية، بالمسجد المقدس[354] بالمدرسة السلطانية، وهو من له قدم في العبادة والزهد والصلاة والصوم، و معرفة تامة بآداب التصوف واصطلاح القوم، فلا يخلو مجلسه من حكمة يبديها، ووصية من وصايا القوم يرويها. فمن حكمه:

ثلاثة من الشدايد لا يجوز للعاقل نسيانها، فناء الدنيا وانقضاؤها، وتقلب أحوال الزمان، ومحن الدهور والأيام. قيل لحاتم الأصم علام بنيت أمرك؟ قال على أربع خصال: علمت أن رزقي لا يأكله غيري فلم أهتم به، وعلمت أن عملي لا يهتم به غيري فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتيني بغتة فأنا مبادره، وعلمت أني بعين الله تعالى في كل حال. وأنشدني لابن العربي الهمام وصيّة من بديع النظام. [من الخفيف]

اختر الموت تنج من كل همٍّ	ودع الافتكار في كل فاني
والزم الصمت ما استطعت وخذ بـ	ـالصدق واصبر في سائر الأحيان
وإذا عزّ أو تشابه أمرٌ	فتمسك بمحكم القرآن

من سوس النفس أنك كلما قتلتها بسيف المجاهد، أحياها الله تعالى ونازعتك وطلبت منك الشهوات، فتقتلها ثانياً ثم تعود حيّة فيكتب لك ثواب دائم، وهذا هو الجهاد

[354] - ب الأقصى

الأكبر، ومعنى قوله عليه الصلاة والسلام (الدنيا مزرعة الآخرة، ودار جهاد الجوع، وغاية جهادها مخالفة الهوى).

ومن وصايا ابن العربي قدس الله سره: اعلم أن جماع الخيرات وأس السعادات في التقوى، والتقوى هي عبارة عن ترك المخالفة، فالمتقي من اتقى مخالفة مولاه في أمر أونهي، ولهذا ضرب الله المثل بإبليس وآدم، فأمر إبلس ونهى آدم، فافهم هذا جيداً وابسط في نفسك هذا المختصر، وطالعه طول أيام حياتك واعلم أنك لا تقوى إلا بالصبر، فعليك به في كل أمر، واسأل الله إعانتك بالصبر على ما تكرهه، وعمّا تهواه، واصبر وما صبرك إلا بالله. [من المتقارب]

سبيل النجاة وأقصى المرام	يكون بصبر على المتعب
فأين النجاة وأين المرام	وكل يميل إلى الطيِّب

الشيخ أبو بكر العلمي

ومنهم فخر المدرسين الأنجاد، السالك سبيل الاسعاف والامداد[355]، الفاضل البارع، والكامل المتواضع وارث الفضل والمجد، عن أب وجد، العلامة أبو بكر العلمي مفتي السادة الحنفية، بالديار الشريفة القدسية، بيننا وبينه وصلة أرحام من الجدّ الأعلى العز بن عبد السلام[356]، وقد حصل ما بيننا وبينه من الصحبة، كمال الألفة ومزيد المحبة، وأفادني أن العلامة الشبرخيتي[357] روى في شرحه للأربعين، أنه من كتب أسماء تسعة من التابعين ووضعهم في كفن الميت أمن من فتنة القبر. وهم أويس القرني ومعروف الكرخي وربيع وهازم والحسن وعامر وأبو مسلم الخولاني ومسروق وأسود، فنظمت أسماءهم الشريفة على الترتيب في الذكر، ليكون أقرب في استحضارهم وثبوتهم في الفكر. [من الطويل]

أويس ومعروف ربيع وهازم	كذا الحسن البصري يتلوه عامر

---

[355] - ا السداد.

[356] - عبد العزيز بن عبد السلام السُلمي، المغربي اصلاً، الدمشقي مولداً، المصري داراً ووفاة، ابو محمد، الملقب بعز الدين، وبسلطان العلماء، والمعروف ببائع الملوك ولد سنة 578 هـ وهو سلطان العلماء، لقبه بهذا اللقب تلميذه الأول شيخ الإسلام ابن دقيق العيد.

[357] - إبراهيم بن مرعي بن عطية الشبرخيتي المالكي المتوفى سنة 1106 هـ، كتابه المشهور الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين حديثاً النووية

أبو مسلم الخولان مسروق أسود فتسعتهم بالفيض سحب مواطر
إذا وضعت في درج ميت بطاقة فذاك أمان الميت مما يحاذر

الشيخ عبد المعطي الشافعي

ومنهم العمدة الفاضل، والإمام الكامل، المتقي العابد، الناسك الزاهد، مولانا الشيخ عبد المعطي الشافعي الهمام، السالك طريقة الأئمة السادة الأعلام، الملازم للمجد بالمدرسة النحوية، فلا يخرج منها إلا لحاجة ضرورية، مشتغلاً بنسخ الأحاديث والآثار، وإن له شهرة بضبط الكتابة في تلك الأقطار. ومما أوصاني به من بعض وصايا القطب الرباني، سيدي عبد القادر الجيلاني: إذا سألت ربك حاجة فتعامَ عن الجهات كلها حال طلبك، ولا تنصرف عن جهة معينة، فإن ربك غيور، فلا يفتح لك باب فضله وأنت محجوب عنه، ناظراً إلى جهة أحد من عبيده، والاغترار بصفاء الأوقات، في غفلتك آفات. انتهى

وانشدني أبياتاً لسيدي محي الدين[358]، قدس الله سره العزيز آمين: [من السريع]

يا من تقضى عمره في ضلال ويدعي ما يدعيه الرجال
يسير سير القوم في زعمه وحاله من غير شك محال
عندي والله الدواء الذي يشفي من الداء الدوي العضال
افرض بأن الموت عاينته وقد تقضي كل قيل وقال
وعادة الدنيا ولذاتها حقيقة بالموت شبه الخيال
فكن على ذلك واعمل به في كل آن وعلى كل حال

ولم أجتمع بأحد من أهل القدس إلا ببعض أفراد، من الذي له صدق محبة لنا وحسن وداد، فإن في العزلة عزّ دائم ونعمة، وهي والصمت من تمام الحكمة. [من البسيط]

لما غدوت عن الأغيار منفرداً أصبت في عزلتي عزاً كما شهدا
وصنت طرف لساني أن يلم به لهو الحديث لكي أحظى بنهج هدى

---

(358) - محي الدين ابن عربي

وحكمة المرء عشر قسمت وبذا | جاء الحديث به نروي له سندا
في الصمت تسعة أجزاءٍ وعاشرها | في عزلة المرء مهما انحاز وانفردا
عليك بالصمت والزم عزلة أبداً | تستكمل الحكمة الغرا كما وردا

وهما من أركان الطريق لصناديد الرجال، وهما مع الجوع والسهر من حلية الأبدال، فقد قال ابن العربي في حلية الإبدال: الصمت على قسمين، صمت باللسان عن الحديث لغير الله تعالى مع غير الله تعالى جملة واحدة. وصمت بالقلب عن خاطر يخطر في النفس في كون من الأكوان البتة.

فمن صمت لسانه ولم يصمت قلبه خف وزره، ومن صمت لسانه وقلبه ظهر له سره، وتجلى له ربه، ومن صمت قلبه ولم يصمت لسانه فهو ناطق بلسان الحكمة، ومن لم يصمت بلسانه ولا بقلبه كان مملكة للشيطان ومسخرة له.

فالصمت يورث معرفة الله تعالى، والعزلة على قسمين، عزلة المريدين وهي بالأجسام عن مخالطة الأغيار، وعزلة المحققين وهي بالقلوب عن الأكوان، فليس محلاً لشيء سوى العلم بالله تعالى. وللمعتزلين نيات ثلاثة، نية اتقاء شر الناس، ونية اتقاء شره المتعدي إلى الغير، وهو أرفع من الأول، فإن في الأول سوء الظن بالناس، وفي الثاني سوء الظن بنفسه، وسوء الظن بنفسه أولى لأنك بنفسك أعرف، ونية إيثار صحبة المولى من جانب الملأ الأعلى، فأعلى الناس من اعتزل لنفسه إيثاراً لصحبة ربه، فمن آثر العزلة على المخالطة فقد آثر ربه على غيره، ومن آثر ربه لم يعرف أحد ما يعطيه الله من المواهب.

فالعزلة تورث معرفة الدنيا، والجوع جوعان، جوع اختياري، وهو جوع السالكين، وجوع اضطراري، وهو جوع المحققين، فإن المحقق لا يجوع نفسه ولكن يقلل أكله إن كان في مقام الأنس، فإن كان في مقام الهيبة كثر أكله

وكثرة الأكل للسالكين دليل على بعده من الله تعالى، وطردهم عن بابه واستيلاء النفس الشهوانية البهيمية بسلطانها عليهم، وقلة الأكل دليل على نفحات الجود الإلهي على قلوبهم، فيشغلهم ذلك عن تدبير جسومهم، والجوع بكل حال ووجه، سبب داع إلى نيل عظيم الأحوال من السالكين، والأسرار للمحققين، فالجوع يورث معرفة الشيطان، والسهر نتيجة الجوع، فإن المعدة إذا لم يكن بها طعام ذهب النوم.

والسهر سهران، سهر العين وسهر القلب، فسهر القلب انتباهه من نوم الغفلات طلباً للمشاهدات، وسهر العين رغبة في بقاء الهمة في القلب لطلب المسامرة، فالسهر يورث معرفة النفس وأحد أركان المعرفة، إذ المعرفة تدور على تحصيل أربع المعارف

هذه[359]، معرفة الله، والنفس، والدنيا، والشيطان، فإذا اعتزل الإنسان عن الخلق وعن نفسه، وصمت عن ذكره بذكر ربه إياه، وأعرض عن الغذاء الجثماني، وسهر عند موافقة نوم النائمين، واجتمعت فيه هذه الخصال الأربعة بدلت بشريته ملكاً، وعبوديته سيادة، وغيبته شهادة، وباطنه ظاهراً. [من الكامل]

يــا مــن أراد منــازل الأبــدال ... مــن غـير قـصد منـه للأعمـال

لا تطمعــن بهــا فلــست بأهلــها ... إن لم تــزاحمهم علــى الأحــوال

واصمت بقلبك واعتزل عن كل من ... يـدنيك مـن غـير الحبيـب الـوالي

وإذا سـهرت وجعـت نلـت مقـامهم ... وصــحبتهم في الحــل والترحــال

بيــت الولايــة قــسمت أركانــه ... ســاداتنا فيــه مــن الأبــدال

مــا بــين صــمت واعتــزال دائـم ... والجــوع والــسهر النزيــه العــالي

والله تعالى يوفقنا وإياكم لاستعمال هذه الأركان، وينزلنا وإياكم منازل الإحسان، إنه الولي المنان. انتهى، من حلية الإبدال مختصراً من غير تغيير بحسن الإعانة والتيسير.

إلى نابلس

وفي يوم الأحد المبارك، غرة صفر[360] الخير، عزم حضرة أستاذنا الصديقي على السفر والسير، إلى ناحية نابلس الفيحاء وواديها، وزيارة من حلّ من الأنبياء والأولياء بساحة ناديها، فطلعت معه مصاحباً، وكنت إلى متابعته راغباً، وبصحبته جماعة من المسترشدين، وهم إلى خدمته من السابقين. وهم الشيخ إبراهيم الرابي، والشيخ اسماعيل النابلسي، والشيخ سلامة، والشيخ مقبل، والشيخ رضوان ذو الصلاح والاستقامة، فصليت ركعتين بالمسجد مودعاً، وأضحى الفؤاد بفراق هاتيك المآثر مُرَوَّعاً، وخرجت من المسجد الشريف باكياً، ولاعج الغرام بالقلب أمسى زاكياً. [من الكامل]

سفح الجفون لذي الصبابة فاضح ... والعــذر في سـحّ المـدامع واضــح

غلــب التــشوف والتــشوق والجــوى ... فــإذا العيــون مــن الغــرام ســوافح

أنـــي ألام وقـــد تجـــاذبني الهـــوى ... والــشوق للبيــت المقــدس طــافح

---

(359) - في ا و ب هذه الأربعة معارف

(360) - 5 آب 1731م

فارقــت واديــه المبــارك حولــه وعيــون أشــجاني إليــه طــوامح

أعظــم بمــسجده الأنــيس فإنــه حــرمٌ بـــه للوافــدين مـــوانح

لا أنــــثني متــــشوقاً لعهــــوده فلطالمــا نفــع المــشوق مطــامح

أرجـو الإيـاب لوجهـه الـسامي الـذرا ليلــوح لي بالبــشر منـــه لــوائح

ولقد كنت أودّ لو طال بالقدس المقام، ولا قوض لي عن ذاك الحمى خيام، كما كنت أجد منه الراحة والإيناس، وعدم الإضاعة وحفظ الأوقات والأنفاس، فيحق لي أن أهيم شوقاً وأترنّم وجداً، وأشبب بمشاهده التي حلت مصادر ووِرداً . [من الطويل]

ومــا زلــت بــالوادي المقــدس مولعــاً يــشوق فــؤادي منــه مغنــىً ومعهــد

ووجــدي بــه ينمــو لفــرط صــبابة وبــرء الأســى مــن ذكــره يتجــدد

وكنــت أظــن القــرب يطفــي تــولعي فــزاد هيــامي فــوق مــا كنــت أعهــد

فحتــى متــى أحظــى بمنــهل ورده لكيمــا حــلا تلــك المــشاهد أشــهد

ويــسعد نــي دهــري بمــشهد نــوره فــذاك بــه منــه الــسعادة تــشهد

ثم امتطينا متون الجياد، مستبشرين بحصول المسرة والإسعاد، نحو مقام نبي الله إشماويل عليه السلام، نرتجي منه حسن القرى ومزيد الإنعام. [من الوافر]

نــبي الله اشماويـــل ســـرنا لنحــوك نبتغــي أســنى المطالــب

وإنـــا في رحابـــك إن نزلنـــا أصــبنا منــك إنجــاح المــآرب

فوصلنا ضحوة النهار إلى رحابه الشريف، وضريحه السامي الذرا المنيف، بحمى قرية رامة[361]، وقد بلغ كل منا من المسرة مرامه، فنزلنا بساحته العلية، وروضته السامية الزكية، وقبلنا ثرا تلك الأعتاب، واجتلينا كؤوس الامداد نحن وأولئك الأصحاب، وأهدينا لجنابة ما تيسر من القرآن، واستمطرنا من فيض جود وابله الهتان، ودعونا الله بهذا المقام، بالتوفيق وحسن الختام. [من الكامل]

بلــغ المــشوق مــن الوصــال مرامــه لمــا نحــى بــالعيس دوحــة رامــه

وشــذا العــبير بــسوحها متــضوعاً يــروي لنــا عنــها حــديث تهامــه

---

(361) - لاتوجد حالياً قرية اسمها رامة قرب القدس ولكن توجد قرية يوجد فيها مقام النبي صموئيل، وهو اشماويل نفسه، اسمها الان قرية النبي صموئيل الواقعة على بعد 8 كم، شمال القدس وقد حاول بعض علماء الكتاب المقدس القول إن رام الله هي نفسها رامة صموئيل او قرية بيت ريما.

وبـدا لإشماويـل نـور نبـوة	أضحى علـى ذاك المقـام علامـه
فهـو الـصفي المجتبـى والمحتبـى	بنبـوة رفـع الإلـه مقامـه
وافـى بـني الأسـباط حيث تفرقـوا	إذ زال ملكهـم أقـام قوامـه
فتقـوم الـدين الحنيـف ببعثـه	وأشـاد طـالوت بـه أحكامـه
سـعدت بنـو إسـرائيل منـه بحظـوة	لمـا اجتلـى داعـي المنـى أيامـه
خطـت بطـرس الـدهر آيـة مدحـه	مـدحاً يـرى حـسن الثنـا أقلامـه
مـن أمّ سـاحته الفـسيحة منـهجاً	يمنحـه مـن فـيض الغيـوب مرامـه
فنحوتـه قـصد الزيـارة راجيـاً	حـسن القبـول مـؤملاً إنعامـه
مهـد إليـه مـع الـصلاة تحيـة	ترويـه عـن مـسك الختـام ختامـه

وإشماويل عليه السلام هو آخر أنبياء بني إسرائيل، تنبأ وهو ابن أربعين سنة، وعاش بعد النبوة إحدى وعشرين يدعو بني إسرائيل ويدبر أمرهم، وتوفي سنة ثلاث وتسعين وأربعماية لوفاة موسى عليه السلام، وهو المشار إليه بقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾[362] كما ذهب إليه ساير المفسرين، وهو بالعبرانية إسمعيل، وهو من نسل هارون عليه السلام.

قال وهب [بن منبه] وابن اسحاق وغيرها: كان سبب مسألتهم إياه ذلك، إنه لما مات موسى خلف بعده في بني إسرائيل يوشع بن نون يقيم فيهم التوراة وأمر الله حتى قبضه الله تعالى، ثم خلف فيهم كالب كذلك حتى قبضه الله تعالى، ثم حزقيل حتى قبضه الله تعالى ثم عظمت الأحداث في بني إسرائيل ونسوا الله حتى عبدوا الأوثان، فبعث الله تعالى إليهم الياس نبياً فدعاهم إلى الله تعالى.

وكانت الأنبياء من بني إسرائيل بعد موسى يبعثون إليهم بتجديد ما نسوا من التوراة، ثم خلف بعد الياس اليسع، وكان فيهم ما شاء الله تعالى حتى قبضه الله تعالى، وخلت فيهم الخلوف، وعظمت الخطايا، وظهر لهم عدو يقال له البلشايا[363]، وهم قوم جالوت، كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وهم العمالقة، فظهروا على بني إسرائيل وغلبوا على كثير من أراضهم وسبوا كثيراً من ذرياتهم وأسروا من أبناء ملوكهم

---

[362] - سورة البقرة، الآية 246

[363] - البلشايا وصحيحها البلشتايا هي صيغة الجمع الآرامية للفلسطيين الفلسط، الذين تزعم المصادر الكتابية انهم اتوا من البحر وسكنوا ساحل فلسطين الجنوبي

أربعين وأربعماية غلام، وضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم، ولقي منهم بنو إسرائيل بلاء وشدة، ولم يكن لهم نبي يدبر أمرهم.

وكان سبط النبوة قد هلكوا، فلم يبق منهم إلا امرأة حبلى فحبسوها في بيت، رهبة أن تلد جارية فتبدلها بغلام لما ترى من رغبة بني إسرائيل في ولدها، وجعلت المرأة تدعو الله أن يرزقها غلاماً، فولدت غلاماً فسموه إشماويل، فجعلت تقول سمع الله دعائي، فكبر الغلام فأسلمته يتعلم التوراة في بيت المقدس يعلمه شيخ من علمائهم وتبناه، فلما بلغ الغلام، أتاه جبريل وهو نائم إلى جنب الشيخ، فدعاه فانتبه وقال: يا أبتاه دعوتني؟ فكره الشيخ أن يقول لا فيفزع الغلام.

فنام ثم دعاه الثانية، فقال الغلام: نعم، ثم قام فقال ارجع فنم، فإني دعوتك إلى قومك فبلغهم رسالة ربك، فإن الله قد بعثك فيهم نبياً، فلما أتاهم كذبوه وقالوا استعجلت بالنبوة ولم ينلك، وقالوا إن كنت صادقاً فابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله آية عن نبوتك، وإنما كان قوام بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك وطاعة الملوك لأنبيائهم، فكان الملك هو الذي يسير الجموع والنبي يقيم له أمره ويشير عليه ويرشده ويأتيه بالخبر من ربه.

وقال وهب بعث الله إشماويل نبياً فلبثوا أربعين سنة بأحسن حال، ثم كان من أمر جالوت ما كان، وقالوا لإشماويل ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، فسأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكاً فأتى بعصا وقرن فيه دهن القدس، وقيل لهم إن صاحبكم الذي يكون ملكاً طوله طول هذه العصا وينش الدهن الذي في القرن عند دخوله، فدهن به رأسه وملكه عليهم وهو طالوت من أولاد بنيامين بن يعقوب عليهم السلام.

قيل كان طالوت رجلاً دباغاً يعمل الأديم. وقال السدي كان رجلاً سقاءً يستقي على حمار له من النيل فضلّ حماره فخرج في طلبه.

وقال وهب [بن منبه] ضلّت حمر لابيه فأرسله وغلام له في طلبهم، فمرا ببيت إشماويل، فقال الغلام لطالوت لو دخلنا على هذا النبي فسألناه عن أمر الحمر فيرشدنا ويدعو لنا، فدخلا عليه فبينما هم عنده يذكران له أمر الحمر، إذ نش الدهن في القرن فقام إشماويل فقاس طالوت بالعصا فكانت على طوله، وقال لطالوت قرب رأسك فقربه فدهنه بدهن القدس، ثم قال له أنت ملك بني إسرائيل الذي أمرني الله أن أملكك عليهم، فملَّكَهُم، وكان من أمره ما قصه الله تعالى في القرآن العظيم من بقية القصة. انتهى

وقبره بقرية رامة ظاهر القدس الشريف من جهة الشمال، على طريق السالك، وقد كان هذا المقام تحت يد اليهود يتعبدون به، ويأتون إليه بالنذورات من الحلي والملابس

والفرش، ويضعونه في المغارة التي فيها قبر نبي الله إشماويل عليه السلام، ثم يحرقون تلك الأمتعة تقرباً بزعمهم في هذا المقام، إلى أن ظهر حضرة أستاذنا مولانا الشيخ محمد الخليلي بالقدس المحترم، ونفذت كلمته في تلك النواحي، وصار أشهر من نار على علم، فأمده الفيض الإلهي الرباني واستنقذه من أيديهم بخط شريف سلطاني، وسد باب المغارة وبنى منارة عليه وأقام شعار المسجد ومنع اليهود عنه بالكلية، فصاروا لا يأتون إليه إلا خفية وهم خائفون، ويقفون خارج المسجد وأما دخوله فلا يستطيعون، فجزاه الله تعالى أحسن الجزاء، وعامله بالإحسان، وبواه أعلى فراديس الجنان، فكم له من مآثر وخدمة وحسن قيام، بأضرحة الأنبياء الذين بتلك النواحي عليهم الصلاة والسلام. [من الطويل]

لقد حاز مولانا الخليلي رتبة	سما قدرها إذ للنبين يخدم
فلاحت عليه من سناهم بوارق	به ثغر هذا الدهر لا زال يبسم
له مظهر فيه جلال بحمله	به سارت الركبان من حيث تقدم
تود ملوك الصيد أن لو تشرفت	بخدمته فهو الإمام المقدم
إذا كان في الدنيا تظاهر هكذا	فلا غرو في الأخرى أعز وأكرم

مرض اللقيمي

ثم طاب المقام، بهذا المقام، واستروحت النفس للمنام، فصعدت إلى العلية العالية، التي يوافيها النسيم من كل ناحية، فمذ اضطجعت بجنبي إلى الأرض، تحكم الهوى في بالطول والعرض.

وأورثني داء القولنج[364] العضال، وصرت منه في أشد الأحوال، وبت تلك الليلة مسهد الأجفان بمسامرة الكواكب، تجاوبني الشدة والمشقة من كل جانب، إلى أن نسخ الفجر أية الظلام. صليت الصبح وودعت المقام بسلام، وركبت مسرعاً متن الجواد.

وقد طغى الألم بي وزاد، وصرنا نهبط وادياً منخفضاً ونرقى جبلاً رفيعا، إلى أن وصلنا وقت الظهر كفر قريع[365]، فتلقانا أهلها بمزيد الإكرام، وأحضروا ما تيسر من

---

(364) - القولنج هو مرض معوي مؤلم يصعب معه خروج البراز والريح، وسببه التهاب القولون. وذكر ابن حجر العسقلاني في (لسان الميزان) في ترجمة إسحاق بن إبراهيم الموصلي عن إبراهيم بن محمد بن الشاهين أن إسحاق كان سأل الله تعالى ان لا يموت بالقولنج لما راى من صعوبته على ابيه

(365) - لا توجد قرية في فلسطين باسم كفر قريع، ولكن هناك قرية عربية فلسطينية اسمها كفر قرع، تلفظ بالدارجة

الفاكهة والطعام، ثم بعد ذلك اضطجعت في تلك الساحة، طلباً ورغبة مني في حصول الراحة، فنبهوني قبيل الصلاة الوسطى، وما أصبت من الراحة قسطاً، وبعد الصلاة وتمام الأذكار، ركبنا مسرعين مودعين تلك الديار، وسرنا نقطع الأودية بالتسبيح والتقديس، إلى أن وصلنا قبيل المغرب دير قديس[366]، فتلقانا أهلها بوجه طلق وثغر ضاحك، مع أنهم همج وقطاع طريق هاتيك المسالك، فقضينا عندهم تلك الليلة الغريبة. يتحفونا من وقائعهم بكل عجيبة، لا يحفظون من القرآن إلا سورة القتال، ولهم بحديث الخوف سند صحيح الاتصال، فلما أن سطعت الشمس على الآفاق، أسرعنا بالسير محرصين على الفراق، نتلو عند تحقيق الرحيل، حسبنا الله ونعم الوكيل. [من البسيط]

عـرّج ركابـك عـن ديـرٍ لقـديس[367]	واسـرع مـسيرك عنها حـاديَ العيس
فـإن فيهـا بغـاة طـال مـا نـسخوا	أمـن الطريـق بخـوف بعـد تـأنيس
لا أكثـر الله في الإسـلام مثلـهم	فـإنهم قـد غـدوا مـن جنـد إبلـيس

وما زلنا مسرورين بحسن الانفصال، نروم بقرية سبطارة[368] أنس الاتصال، فمررنا على قرية[369] بها مقام يهودا عليه السلام، بعيدة عن طريق الجادة ثلاثة ساعات تمام، فرمت الوصول إلى تلك الأعتاب والاستمداد من مدده المستطاب، فعاقني عدم الرفيق،

الفلسطينية بفتح القاف وكسر الراء بمدة فتبدو للسامع وكأنها كفر قريع، تقع في وادي عارة جنوب حيفا، وهي بعيدة عن طريق نابلس- يافا ولكن من المأثور لدى اهالي هذه القرية ان قريتهم الأصلية كانت تقع قرب قلقيلية اي على طريق نابلس – يافا وانهم نتيجة خلافات مع اهالي قرية كفر ثلث اضطروا للجلاء عن قريتهم الأصلية وبناء هذه القرية قبل مائتي سنة تقريباً، وهذه الرواية تنسجم مع خط سير رحلة اللقيمي ومروره بعد قرية كفر قريع على قرية دير قديس

[366] - دير قديس قرية من قرى فلسطين، تقع إلى الغرب من مدينة رام الله وعلى بعد 17 كم منها، ترتفع عن سطح البحر حوالي 800 م . وقرية خربثا الحارثية اقرب القرى لها، وتحيط بأراضيها اراضي نعلين، صفا، دير عمار، شبتين، خربثا وبلعين

[367] - ب لبلقيس

[368] - إلى الشرق من قرية السافرية الواقعة إلى الجنوب الشرقي من يافا على مسافة 11كم، تقع خربة سبتارة وهي تحتوي على تل انقاض وأعمدة وشقف فخارية وخزانات إلى الشرق والغرب وذكرها الرحالة مصطفى البكري الصديقي في رحلته (أردان الاحسان في الرحلة إلى جبل لبنان) وقال: (توجهنا إلى بني حمار، ومنها إلى سبطارة، التي تشن العرب حولها الغارة، وجلسنا فيها مع الأخ اللقيمي ثم سرنا إلى المقام العليلي وورد علينا فيه الأخ الحاج حسن المقلدي) راجع تلخيص أحمد سامح الخالدي لهذه الرحلة في مجلة الرسالة القاهرية المجلد الثاني عام 1948.

[369] - في الهامش السابق يذكر الصديقي انه توجه مع اللقيمي إلى بني حمار قبل وصولهم إلى سبطارة ومن الجائز ان تكون القرية التي لم يسمها اللقيمي هي بني حمار، ويبدو ان القرية تعرف الآن باسم قرية العباسية وفيها مقام باسم مقام النبي هودا، وهو المقصود بهذه الرحلة

وخوف قطاع الطريق، فقرأت ما تيسر من الفرقان، وختمت الدعاء بالسبع المثاني في أم القرآن، وأبديت للتخلف عن الزيارة عذراً، حيث لم أبلغ من مرامي أمراً. [من الخفيف]

نفحة الطيب من مقام يهوذا ... أهدت الزائرين مسكاً وعودا

بارقات الضيا بضوء سناه ... تذكر الصب بارقاً وزرودا

قد ثنينا العنان نحو حماه ... على خطا من المقام شهودا[370]

منعتنا عن الوصول بغاة ... جاوزوا الحد فاستحقو الحدودا

يا بن يعقوب يا حفيد خليل ... اعتذاراً فقد منعت ورودا

فعليك السلام تلو صلاة ... بهما أسعد يحوز سعودا

ما شذا الوفود غبّ سراهم ... نفحة الطيب من حماء يهودا

ويهودا عليه السلام هو أخو يوسف الصديق عليه السلام لأبيه، لأن بني يعقوب عليهم السلام اثنا عشر، روبيل وهو أكبرهم وشمعون ولاوي ويهودا واريالون ويسجر أمهم ليا بنت خال يعقوب وولد من سريتين أربعة، دان وبقتال وحاد واسر، ولما توفيت ليا تزوج يعقوب اخت [أختها][371] راحيل فولدت له يوسف وبنيامين. ويهودا هذا عليه السلام، هو القائل: لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب هو بئر واسع الأسفل ضيق الرأس.

قال مقاتل[372]: هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام. وقال وهب [بن منبه]هو بأرض الأردن[373]. وقال قتادة: ببيت المقدس جعلوه في دلو وأرسلوه فيها، حتى بلغ النصف ألقوه إرادة أن يموت. وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة، فقام عليها وجعل يبكي، فنادوه وظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم، فأرادوا أن يرضخوه بصخرة[374]، فمنعهم يهودا، وكان يأتيه بالطعام، وأقام فيه ثلاث ليال إلى أن أتت السيارة،

---

[370] - البيت ساقط من النسخة ب

[371] - ب اختا.

[372] - مقاتل بن سليمان الأزدي احد اشهر المفسرين، وفيه رايان نقلهما الذهبي في ميزان الاعتدال، فالشافعي يقول: الناس كلهم عيال على مقاتل بن سليمان، فيما يقول وكيع إنه كان كاذباً وكذلك النسائي: إن مقاتل يكذب. ومقاتل بن سليمان البلخي هو غير مقاتل بن حيان البلخي

[373] - المقصود الجب اليوسفي او جب يوسف إلى الشرق من صفد، وصفد كما هو معروف كانت ضمن اراضي جند الأردن في صدر الاسلام وما بعدها حتى الخلافة الفاطمية

[374] - اي يحطموا راسه بصخرة

وكان من قصته ما قصه الله تعالى في كتابه العزيز. ويهودا هو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾[375].

قال السدي: قال يهودا: أنا ذهبت بالقميص ملطخاً بالدم إلى يعقوب وأخبرته أن يوسف أكله الذئب، فأنا أذهب اليوم بالقميص أخبره أنه حي وأفرحه كما أحزنته.

قال ابن عباس حمل يهودا القميص وخرج حافياً حاسراً يعدو، ومعه سبعة أرغفة لم يستوف آكلها حتى أتى أباه، وكانت المسافة خمسين فرسخاً. انتهى

فائدة:

قال السهيلي: لما جاء البشير إلى يعقوب عليه السلام، أعطاه في البشارة كلمات، كان يرويها عن أبيه، عن جده عليهم الصلاة والسلام، كانوا يقولونها في الشدائد، وهي يا لطيف فوق كل لطيف الطف بي في أموري كلها كما أحب، وارضني في دنياي وآخرتي. انتهى

وقوله يا لطيف، يجوز فيه الرفع والنصب على أنه نكرة قصدت، أو نكرة موصوفة.

قلت: وقد أجازني بعض مشايخي باستعمالها كل يوم مائة وتسعاً وعشرين مرة، وقال إن لها نفعاً كبيراً معلوماً في اللطف في الشدائد وتفريج الهموم. ومما يناسب هذا المقام، ما ذكره بعض الأئمة الأعلام، أنه مما يكتب ويعلق على من أصابه رمد، فيحصل له الشفاء بإذن الله الفرد الصمد. [من البسيط]

يا ناظري بيعقوب أعيذكما	بما استعاذ به إذ مسّه الكمد
قميص يوسف إذ جاء البشير به	بحق يعقوب إذهب أيها الرمد

ثم مررنا في الطريق على قبتين تحتهما قبران، كأنهما في حسن اشتراقها النيران، يقال إن بهما يوشع وذا الكفل عليهما الصلاة والسلام، يفوحان بعبير الشذا والخزام، غير أني لم أثق بذلك، لما ورد في التقول خلافاً لما هنالك، فقد ذكر البغوي أن يوشع في جبل افرايتم، كما يأتي بيانه على وجه التتميم، وذكر صاحب أنس الجليل أن قبر ذي الكفل في قرية كفر حارث[376] من أعمال نابلس، فلعل نسبة هذين القبرين برؤية منامية، أو مشاهدة بحكم البرزخية، فالزائر يحصل له الثواب على كل حال، كما نص على ذلك أهل الكمال.

---

[375] - سورة يوسف، الآية 96.

[376] - ما تزال حتى الآن هذه القرية موجودة وبالاسم نفسه قرب نابلس

تذييل :

حسن الانتظام، فيما ورد في يوشع وذي الكفل عليهما السلام، قال البغوي: لما مات موسى عليه السلام ومضت الأربعون سنة التي كانوا بها في التيه، ونبأ الله يوشعَ عليه السلام، أمره الله تعالى بقتال الجبابرة، فأخبر بني إسرائيل فصدقوه، فتوجه بهم إلى أريحا ومعه تابوت الميثاق [العهد]، فأحاط بمدينة أريحا ستة أشهر، فلما كان السابع نفخوا في القرون، وضج الشعب ضجة واحدة، فسقط سور المدينة، فدخلوا فقاتلوا الجبارين وهزموهم، ودخلوا عليهم يقتلونهم.

وكانت العصابة من بني إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل يضربونه لا يقتلعونه، وكان القتال يوم الجمعة وبقيت منهم بقية، وكادت الشمس أن تغرب وتدخل ليلة السبت، فقال اللهم أردد الشمس عليّ، وقال إنك في طاعة الله وأنا في طاعته، فسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقيم حتى ينتقم من أعداء الله قبل دخول السبت، فردّ عليه الشمس وزيد في النهار ساعة حتى قتلهم أجمعين.

وتتبع ملوك الشام فاستباح منهم واحداً وثلاثين ملكاً حتى غلب على جميع أرض الشام، فصارت الشام كلها لبني إسرائيل، وفرق عماله في نواحيها وجمع الغنائم، فلم تنزل النار، فأوحى الله تعالى إلى يوشع أن فيها غلولاً فمرهم أن يبايعوك، فبايعوه، فالتصقت يد رجل منهم بيده، فقال: هلمّ ما عندك؟ فأتاه برأس ثور من ذهب مكلل بالياقوت والجواهر وكان قد غله فجعله في القربان، وجعل الرجل معه فجاءت النار وأكلت القربان والرجل، ثم مات يوشع ودفن في جبل إفرايتم، وكان عمره ماية وستاً وعشرين سنة وتدبيره بني إسرائيل سبعاً وعشرين سنة. انتهى

ذو الكفل عليه السلام، قال صاحب أنس الجليل: وهو بشر بن أيوب عليهما السلام، بعثه الله بعد أبيه وسماه ذا الكفل، وكان مقامه في الشام وقبره في قرية كفر حارث من أعمال نابلس.

وقال البغوي: قال عطا إن نبياً من بني إسرائيل أوحى الله تعالى إليه إني قابض روحك، فاعرض ملكك على بني إسرائيل، فمن تكفل لك أن يصلي بالليل حتى لا يفتر، ويصوم بالنهار ولا يفطر، ويقضي بين الناس ولا يغضب فادفع ملكك إليه، ففعل ذلك، فقام شاب وقال أنا أتكفل لك بهذا، فتكفل ووفى به وشكر الله تعالى، فسمّي ذا الكفل. وقال في محل آخر واختلفوا في أنه هل كان نبياً أم لا؟ فقال بعضهم: كان نبياً، وقيل هو الياس وقيل هو زكريا. وقال أبو موسى لم يكن نبياً ولكن كان عبداً صالحاً. انتهى

والأول أولى لذكره مع النبيين في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[377]. انتهى

فنزلت عند تلك القبرين وجلست جلسة لطيفة، وقرأت ما تيسر وأهديتهما لحضرتهما الشريفة، ودعوت الله بدعوات أرجو بها القبول، فإنه خير مسؤول، وأعظم مأمول. [من الكامل]

وادٍ بـه طيب الشذاء مضوع	إذ فيه ذو الكفل النبيّ ويوشع
أفديهما من مشهدين تناسقا	لولاهما الوادي المبارك بلقع
هذا على ما قيل في قبريهما	والنور أصدق شاهدٍ إذ يسطع
ما بقعة نسبت لصاحب رتبة	إلا وفيها منه سرٌّ يوضع
فانزل هنالك لائذاً بجنابهم	فإليهم كف الضراعة يرفع
ولقد نزلت ببابهم متوسلاً	فعسى بهم عني الشدائد تدفع
أهدي الصلاة مع السلام تحية	من عرفها أرج الصبا يتضوّع

ثم سرنا فوصلنا إلى سبطاره وقت الزوال، فنزلنا برحابها متفيئين تلك الظلال، فتلقانا أهلها بأحسن ملتقى يرام، وقابلونا بالرحب والسعة ومزيد الإكرام، ورغبوا في مبيت حضرة الأستاذ عندهم، وبذلوا الرغبة في ذلك جهدهم، فتخلص الأستاذ منهم بسبب مرضي، واسترضى كبيرهم بذلك فرضي.

وسرنا نرتجي الشفا وتيسير الأمور، فوصلنا وقت العصر إلى قرية يازور[378]، وأنا في شدة لا تفي بها الشكوى ولا يحيط بها إلا من يعلم السرّ والنجوى.

ونزلنا بجامعها الجليل، وورد علينا شيخها الشيخ خليل، فرحّب بحضرة الأستاذ وبالجماعة، وقال إن ليلة القدس حقاً هذه الساعة، ثم بذل لنا المجهود بالإكرام، وقام بواجب القرى أحسن قيام.

ثم في ثاني الأيام وقت الصباح، ورد حضرة مولانا الشيخ الخليلي، وصحبته جماعة من أهل الصلاح، قاصداً مينة [ميناء] يافا بعزمه السديد، لإتمام عمارة مسجدها الجديد، فلما أن رأى حضرة الأستاذ بهذه القرية مقيم، نزل بها فحصل لنا بذلك الحظ الجسيم.

---

[377] - سورة الأنبياء، الآية 85.

[378] - تقع يازور في ظاهر يافا الشرقي إلى الجنوب من مصب نهر العوجا بحوالي 7 كيلو مترات وعلى بعد 60 كيلو متراً شمال غرب القدس

ثم بعد صلاتنا العصر خلفه جماعة، جلس بالمسجد ودعا تلك الجماعة، وفرق الربعة الشريفة، فقرأت وختمت في حصة لطيفة، ثم أهداها للنبيين والمرسلين والأصحاب، والتابعين وأصحاب المذاهب والمحدثين والعلماء، فأتى بعجب عجاب، ودعا بدعوات تشرح لها القلوب، فرجونا قبولها من علام الغيوب.

وبعد صلاة العشاء وقراءة وردها والأذكار، استفتح مجلس الذكر فأدار فينا كأسه العقار، فتواردت علينا العواطف بالمبشرات، ولطائف الرحمة الربانية بمزيد المسرات، وبعد ما انقضى مجلس الذكر والختم، جلس هو وحضرة الأستاذ في ذلك المسجد المحترم، يتذاكران سير القوم والسلف، فأتحفانا بتذكارهما غاية التحف، فأجريا ذكر الحكم العطائية، وما فيها من المعارف الربانية. فقال الشيخ الخليلي الهمام، رحم الله تعالى العلامة ابن حجر [العسقلاني] الإمام، حيث قال رحم الله ابن عطاء الله السكندري، الذي لم يسمح بمثله الزمان، فإنه ترك فينا حكماً كادت تتلى فيما بيننا كالقرآن، فابتدرت من دون الجماعة، وقلت أسمعني منها شيئاً لأرويه عنك بالسند في هذه الساعة.

فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، قال الشيخ الإمام العالم العلامة أوحد وقته وزمانه تاج الدين أبو الفضل أحمد بن عطاء الله السكندري، ثم الشاذلي قدس الله روحه، ونور ضريحه: من علامة الاعتماد على العمل، نقصان الرجاء عند وجود الزلل. إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية. سوابق الهم لا تخرق أسوار الأقدار، أرح نفسك من التدبير فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك. اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك. لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجباً ليأسك، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختار لك لا فيما تختار لنفسك وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد. انتهى فقد أجزت لكم بها بأمثال ذلك، سلك الله بنا وبكم حسن المسالك.

ثم أخذ حضرة الأستاذ يحدث عن السادة الصوفية، وما ورد في أوصافهم خصوصاً في الرسالة القشيرية، وقد قيل إنها إذا كانت عند أحد في مكان، أمن من حوادث الحدثان!.

فقلت: أسمعنا شيئاً من بعض صفاتهم، ليكون لنا بها سنداً وتعود علينا حسن بركاتهم.

فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، قال العارف أبو القاسم القشيري في رسالته، في

ترجمة أبي الفيض ذي النون المصري قدس الله تعالى سره: كان فائقاً في هذا الشأن، أحد وقته علماً وورعاً وحالاً وأدباً، سعوا به إلى المتوكل فاستحضره من مصر، فلما أدخل عليه وعظه فبكى المتوكل ورده إلى مصر، وكان المتوكل بعد ذلك إذا ذكر بين يديه أهل الورع يقول فحيهلا[379] بذي النون رحمه الله تعالى.

وقال ذو النون: مدار الكلام على أربع، حب الجليل وبغض القليل، واتباع التنزيل، وخوف التحويل.

ومن كلامه: من علامات المحبة لله عز وجل متابعة حبيب الله محمد صلى الله عليه وسلم في أخلاقه وأفعاله، وأوامره وسننه. وسئل عن السفلة فقال: السفلة من لا يعرف الطريق إلى الله عز وجل ولا يتعرفه. وقال ذو النون أنشدني أبو الحسن علي ابن عبد الله الحراني لنفسه: [من الطويل]

وأعظم ما فينا من العيب أننا ... نعيب سوانا والمعايب عندنا

فماذا العمى عن عيبنا وكأننا ... بكأس حمام الموت فينا وقد دنا

فيا ذا العلا غير قبيح فعالنا ... وهيء لنا فيما نؤمّل رشدنا

وكان ذا النون ينشد : [من الطويل]

يحول[380] الغنا والعزّ في كل موطن ... ليستوطنا قلب امرئ إن توكلا

ومن يتوكل كان مولاه حسبه ... وكان له فيما يحاول معقلا

إذا رضيت نفسي بمقدار حظها ... تعالت وكانت أكبر الناس منزلا

وكان ينشد : [من الطويل]

الا أيها الوادي الذي فاح طيبه ... عسى لك عهد من سعاد قريب

فحُييت من واد بكل تحيّة ... لأنك من أجل الحبيب حبيب

ثم قال قد أجزت لكم بها وبما لنا من الرسالات الصوفية، سلك الله بنا وبكم الطريقة الحقيقية. ثم ختم ذلك المجلس بالفاتحة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والأصحاب، وكل دعاء بما يرجو حصوله وقبوله من الملك الوهاب.

وبعد ذلك أخذنا مضاجعنا للنوم وسبحنا في بحره وعمنا أي عوم، فتنبهنا من

---

(379) اي هيا إلى، وهي منحوته من حي على الفلاح.

(380) ـ ا يجول

نومنا قبيل الفجر، فصلينا الوتر، وقرأنا ورد السحر، ففزنا بمزيد الأجر. فلما إن طلعت الشمس بذاك الوادي، أطلقت ناظري متأملاً في حسن ذلك النادي، وإذا بشريكنا سيدي أحمد النجار قد أقبل إلينا، وحبس عندنا بعد أن سلم علينا، فسررنا بوروده في تلك الرحاب، وحصل لنا الأنس به لأنه من أعز الأحباب.

ثم لما حان وقت الظهيرة، واشتد حرّ ذلك اليوم وأشهدني هجيره، كادت الروح أن تزهق، فاغتسلت في بعض الآبار زعماً أن ذلك بي أوفق، فما فرغت من الغسل إلا وأنا في غاية من الشده، وازداد بي الأمر إلى أن أنساني ما لاقيته من الأنس في تلك المدة.

وبت في ليلة ما طرق جفني فيها منام، من شدة القولنج وترادف الآلام، وبات عندي تلك الليلة شريكنا المذكور، متأسفاً على ما نزل بي وماذا يفعل في المقدور. فلما ظهر ضوء الشمس على الآفاق وسطع، توجهنا مع حضرة الأستاذ إلى زيارة الصحابي الجليل سلمة ابن الأكوع[381]، فدخلنا إلى ضريحه الرفيع، ومقامه السامي المنيع، وتوسلت به وبجميع الأصحاب، أن يشفي الله تعالى ما أجده من الأوصاب، وقرأت له ما تيسر من الآيات، وأهديت لجنابه أبياتاً لها بمدحته حسن التفات: [من الكامل]

فــاح الــشذا بعــبيره المتــضوع	مـن نحـو دوحـة سلمة بـن الأكـوع
الــسيد المــولى الجليــل المحتبــى	والمجتبــى الــشهم الــصحابي الأروع
رفعـت بـأعلى الأفـق رايـة مجـده	فلـــه المكانـــة بالمقـــام الأرفـــع
طابــت مــوارده الهنيّــة مــشرعاً	طـوبى لمــن وافــى لـذاك المــشرع
وافيتـــه وتلـــوت آيـــات الـــشفا	فلعــل أشــفى مــن مقــام موجــع
فـوفى بــشير الأنــس يعلــن قــائلاً	بــشراك بــشرى بالــشفا لا تفــزع
فهنــاك أهــديت الــسلام جنابــه	وكـــذاك ســـكان الحمـــى والمربـــع

ولما اشتد بي الألم والإسقام، وأراد حضرة الأستاذ الإقامة بهذا المقام، استأذنته في الذهاب إلى مينة [ميناء] يافا، فقال سر على بركة الله عسى بتغيير الهوى تتعافى.

فثنيت بالعزم العنان، وسرت وبالله المستعان. ومررت على الولي العارف بالله الشيخ مراد[382]. فقرأت له الفاتحة ورجوت من مدده حصول المراد.

---

(381) - هذا المقام ما يزال موجوداً حتى الآن ويقع في قرية سلمة التي باتت الآن من احياء مدينة يافا، وهذه القرية اخذت اسمها من الصحابي المذكور.

(382) - هذا المقام موجود الآن ضمن مقبرة الشيخ مراد شرقي مدينة يافا بالقرب من ثكنة ابو كبير في بيارات البرتقال

يافا مرة أخرى

فوصلت إلى يافا قبيل الظهر بساعة، وكادت الروح أن تزهق في تلك الساعة. فأشار علي بعض من له بعض معرفة في الحكمة، بدخول الحمام لعلّ أن يحصل بعض خفة وكشف غمة، فدخلت رجاء حصول الصحّة، فاشتد الأمر إلى حال لا أصف شرحه. فبتّ بليلة أسامر الكواكب، تجاذبني الشدة من كل جانب.

فلما علمت تمكن العلة مني أي تمكين، لجأت إلى جميل الصبر وحسن اليقين: [من الطويل]

الهي لقد جافت جنوبي مضاجعي	كما واصلت سهد الجفون مدامعي
وكلّت بتدبير العلاج أطبتي	أرجو شفاء منك يا خير سامعي

ولما اشتدت بي الأسقام والأمراض، وأعرضت الصحة عني غاية الأعراض، تحققت أن المرض في الغربة، فيه شدة شديدة وكربة، وعلمت سرّ ما أشار إليه عليه الصلاة والسلام، وهو من باب الرأفة بالأمة والتفهيم والإعلام، في قوله صلى الله عليه وسلم: إذا سمعت المؤذن فكبر أربعاً ثم قل اللهم إني أعوذ بك من المرض في السفر، اللهم إني أعوذ بك من الفقر عند الكبر، اللهم إني أعوذ بك من سوء الخاتمة، اللهم إني أعوذ بك من الفضيحة في الموقف، اللهم إني أعوذ بك من ألسنة السوء عند قضاء الحاجة. فلا شك في أن هذه من الكلمات الجامعة والدعوات النافعة.

وفي يوم الخميس السعيد، ورد إلى يافا أستاذنا المجيد، ونزل بدار شريكنا سيّد أحمد، حيث كنت فيه وله بذلك حسن مقصد، وصار يلاطفني ويواسيني بالكلام. ليزول ما عندي من الشدة والأوهام. فتستروح نفسي بطيب كلامه، ويسكن من الجسم شدة آلامه. وكنت أتعلل في خلال تلك الأيام، بسماع رحلته العراقية البديعة النظام.

فمن جملة ما أسمعني منها الشيخ إبراهيم الرابي، مما أهاج وجدي وحرّك ساكن أوصابي، ما أنشده أبو عبد الله محمد بن الشهيد بن عبد الله بن موسى الجون بن الحسن المثنى ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما حبسه المتوكل في سر من رأى[383]: [من الكامل]

طرب الفؤاد وعاودت أحزانه	وتلاعبت شغفاً به أشجانه
وبدا له من بعد ما اندمل الهوى	برق تألق مرجفاً لمعانه

---

[383] - تدعى الآن سامراء وهو الاسم الاسم السرياني القديم الذي نحت منه العرب اسم سر من رأى

يبدو كحاشية الرّدى ودونه صعب الذّرا متمنع أركانه

فدنا[384] لينظر كيف لاح فلم يطق نظر إليه ورده سبحانه

فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه والماء ما سحت به أجفانه

ومن نظم الشريف تاج الدين محمد بن الشريف جلال الدين أبي جعفر بن الحسين بن الزكي: [من الطويل]

ملكت عنان الفضل حتى أطاعني وذللت منه الجامح المتصعبا

وداريت عن نيل المعالي وحوزها بسيفي أبطال الرجال فما نبا

وأجريت في مضمار كل بلاغة جوادي فحاز السبق منهم وما كبا

ولكن دهري جامح عن مآربي ونجمي في برج السعادة قد خبا

ومن غالب الأيام فيما يرومه تيقّن أن الدهر يضحي مغالبا

وإني لم أزل بيافا إلى يوم السبت تاسع شهر ضحى الخير، وأنا من السقم في غاية الشدة والضير، فضاقت على بمينة [ميناء] يافا الرحاب، وتغلقت[385] علي من مسالك الحظ الأبواب. فقصد حضرة أستاذنا زيارة سيدي علي بن عليل[386]، فتوجهت معه مع ضعف القوة والحيل، فوصلت إلى حماه قبيل الزوال، وقد حدث بي مرض الحما [الحمى] واشتد الحال، فنزلت برحابه السامي الذرا، مرتجياً إمداده فهو عندي أعظم القرى، وجلست بإزار قبره الشريف، وامتدحته بأبيات من البحر الخفيف، راجياً بذلك حسن الشفاء وحصول المآرب والصفاء: [من الخفيف]

مشهد طاب في حماه المقيل مربع أفسيح وظل ظليل

وعليل الصبا بطيب شذاه إن سرى عرفه يسرّ العليل

منهل بالصفا يطيب وروداً منه يروى الظما ويطفى الغليل

ساطعات أنواره حيث فيه صفوة الأولياء علي عليل

---

(384) - ب فبدا.

(385) - ب قفلت

(386) - هذا المقام المشهور والذي زاره اكثر من رحالة قبل اللقيمي اشهرهم النابلسي يقع جنوب مدينة يافا على مسافة 16 كم وسط مستوطنة (هرتسليا) الاسرائيلية

سـيّد قــام في الجهـاد رباطـاً صـادق العـزم فهـو سـيف صـقيل
ثابـت القلـب لا يـولي فـراراً وعـن الحـق نهجـه لا يميـل
إن نحـا الزائـرون نحـو حمـاه فـسناه للزائـرين دليـل
أو ثـوى قاصـد لديـه نـزيلاً قيـل بـشراك أنـت نعـم النزيـل
فاقتفيـت الآثـار شـرقاً وقـصدي بوفـودي إليـه قـصد جميـل
أبتغـي مـن عـلاه منحـة فـيض وشـفاي فالجـسم مـني عليـل
فعليـه الـسلام مـا لا ح منـه مـشهد طـاب في حمـاه المقيـل

قال صاحب أنس الجليل: ومن الأولياء المشهورين بناحية أرض فلسطين، السيد الجليل الكبير سلطان العارفين، وإمام أهل الطريقة المحققين، صاحب الفيوض والمواهب والكرامات. والخوارق الباهرات، المجاهد في سبيل الله الملازم لطاعة الله أبو الحسن علي بن عليل. المشهور عند الناس بابن عليم.

أما نسبه الصحيح الثابت عليل باللام، وهو صاحب الكرامات المشهورة الباهرة، والمناقب السامية الظاهرة، وشهرته تغني عن الأطناب وعن الاستقصاء في ترجمته بلا ارتياب.

فإن صيته كضوء النهار لا يخفى على أحد بلا أذكار، ونسبه متصل بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب. رضي الله عنه، فهو علي بن جليل بن محمد بن يوسف بن يعقوب بن عبد الرحمن ابن السيد الجليل الزاهد العابد الصوّام القوام الصحابي عبد الله بن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وضريحه بشاطئ البحر الملح بساحل أرسوف وعليه مشهد مأنوس وبه منارة مرتفعة وأهل تلك النواحي كلها في خضرة وبركة سرّه.

ومن مناقبه أن الإفرنج يعتقدون ويعترفون بصلاحه، وقد أخبرت إن الإفرنج إذا أقبلوا على ضريحه كشفوا رؤوسهم ونكسوها نحوه رضي الله عنه.

وكانت وفاته سنة أربع وسبعين وأربعماية، ولما نزل الظاهر بيبرس لفتح يافا وأرسوف، زاره ونذر النذور والأوقاف ودعا الله تعالى عند قبره، فيسر الله تعالى له فتح البلاد، وفي كل سنة له موسم زمن الصيف يقصده الناس من البلاد البعيدة والقريبة، ويجتمع هناك خلق كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى وينفقون الأموال الجزيلة، ويقرأ عنده المولد الشريف.

وورد علينا في ذلك المقام الرحب، الشيخ حسن مقلد شيخ بني صعب، تنزه عن المشيخة لأخيه باختيار وحسن طوية، وسلك على يد حضرة الأستاذ طريق السادة الخلوتية، فظهرت عليه إمارات الصلاح، ولاحت عليه لوائح أهل الفلاح، وهو موصوف بتلك الناحية بالجود والكرم، وسيرته الحميدة أشهر من نار على علم، فتحادثنا نحن وإياه في ذكر أهل الطريقة، فوجدنا له بذلك معرفة جيدة دقيقة.

وبعد صلاتنا العصر بهذا المنزل الرحيب، والروض الزكي الزاهي الخصيب، ورد علينا العمدة الفاضل، المتخلق بحلل الفواضل، مولانا الشيخ أحمد السفاريني الحنبلي المذهب، المتقدم عند أهل تلك الناحية وفي قومه محبب، فتحلى الناظر بطلعته، واستأنس الفؤاد لمحادثته، فدخلنا روض المفاكهة بالحديث، اقتطفنا من ثمارها القديم والحديث، ورأيت معه مجموعاً للفوايد جامع، تستلذ به العيون والمسامع، وهو الأحق بقول القائل من الشعراء البلغاء الأوائل: [من الوافر]

ومجموع حوى عقداً بديعاً ... وحاز لطائفاً من كل فنّ

إذا طالعته يوماً وعندي ... هموم أبعدت في الحال عني

فمما اقتطفته من هاتيك الحديقة. وأودعته هذه الرحلة الأنيقة:

قال داوود الحكيم في (النزهة المبهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة[387]) البحث التاسع، في تدبير يخص المسافر:

لا شك في أن السفر غير طبيعي، فصاحبه معرض للآفات لتغيير الماء والهواء، ومفارقة كثير من المألوفات، فاحتجنا إلى العناية بإفراد الكلام عليه، فنقول: يجب تقليل الغذاء والماء كيلا يفسد بالحركة، وأن يكون تعاطيه وقت النزول، فإن تعذر جعل الأكل تنقلاً شيئاً فشيئاً، وأن ينقي[388] بدنه عند السفر من كل ما كان غالباً من الفاسد أي خلط كان، ويقلل من البقول والفواكه ما أمكن لسرعة التعفن، فإن كان سفره براً أكثر من المرطبات الملينة خصوصاً في الصيف، وإن خاف كثرة الأكل وكان شديد الشهوة وخشي فروغ الزاد، صحب معه ما يغني عن الأكل زماناً طويلاً، مثل الكبود المجففة إن سحقت مع

---

[387] - داود الانطاكي ولد في قرية الفوعة من اعمال محافظة إدلب حالياً سنة 1534، وتوفي عام 1592. طبيب وصيدلي وفلكي عاش معظم حياته في انطاكية، ونسب إليها، اتقن اليونانية، إضافة إلى العربية، واهتم بخصائص النباتات الطبية والأعشاب وكيفية التداوي بها. وتنقل بين دمشق وبلاد الأناضول وغيرها طالبا للعلم، واستقر به المقام في مكة الى حين وفاته. من مؤلفاته النزهة المبهجة المشار إليها في متن النص، التي تمتاز موضوعاتها بالطب النفسي، وكذلك (تذكرة أولي الالباب والجامع للعجب العجاب).

[388] - ساقطة من أ.

بزر الخشخاش واللوز وعجنت بالشحوم، فإن قليلها يكفي عن كثير من غيره، وأن يصحب معه ما يمنع فساد الهواء، كالبصل والنعناع والتفاح المرضوض مع الزبيب والسماق، وقد عجنت بشيء من الخل يجعل في المياه، فتطيبها وتزيل تغيرها مطلقاً.

وإن كان في البحر، شرب من مائه أولاً وتقايأه، ثم يطلي جبهته بالخل ويأخذ من الربوب الحامضة. وإن كان الهواء وبائياً صحب معه العنبر واللاذن أو دهن البنفسج، وإن كان في الشتاء صحب معه ما يمنع شقوق الأطراف، مثل الزيت المغلي فيه الثوم، ودهن الفوالي، وفي القانون[389] أن شراب أربع أواق من دهن البنفسج ممزوجاً بالشمع يكفي عن الأكل عشرة أيام.

ومما يعرض للمسافر قلة الماء، فينبغي أن يصحب ما يمنع العطش كبزر الرجلة في الأقط، ومزج الماء بالخل، ويهجر الموالح والكوامخ، وأخذ سويق الشعير والروع، ومن اشتد به الحر والعطش فلا يبادر إلى الماء الصرف، بل يشرب القليل ممزوجاً بدهن الورد والخل حتى يسكن المرض، ثم يشرب ويحفظ أطرافه من الحرّ بعصارة الرجلة والاسفيداج وبياض البيض ودهن الورد وماء الكزبرة قيروطيا.

وقد ذكرنا ما يمنع البرد أيضاً، لكن قال الشيخ: إن من تدبير منع البرد في السفر والحضر، شرب درهم من الحلتيت في رطل من الشراب يمنع البرد مطلقاً، وكذلك دهن السوس[390] كيف[ما] استعمل. قال: ويحذر من إنكاء البرد والقرب من النار، بل يتدثر. ولا شيء للأطراف كالقطران والثوم والقثاء، وإذا بلغ البرد أعدم الحس، فالتطول بطبيخ السلجم والشبت والبابونج والفوتنج والنمام، فإن اسود العضو شرط وهو في الماء الحار ودثر، فإن تعفن عولج ولطخ المتعفن بما يأكله ليلاً يفسد غيره، فإن التدابير العامّة تصعيد الماء وتقطيره أو جرّه بالعلقة، ووضع بزر الكرفس فيه أو حبّ الآس أو الشب أو الطين الخالص، فإن كان من طين بلده فهو الغاية، وقد يصلح الماء بعض الإصلاح، مزج مأكل محل بالذي يليه لدوام المناسبة[391]. انتهى

والتقطت درراً من وصايا القوم، وعقوداً منظمة عزيزة السوم. فمن كلام الشبلي[392] رضي الله عنه ألا شجنٌ بجنين،. إلا رنة بأنين، ألا قريح حزين، ألا شارب

---

[389] - القانون في الطب من اشهر كتب الطب الإسلامية واهم كتب الشيخ الرئيس الحسن بن سينا واكبرها حجماً فهو يقع في 2500 صفحة

[390] - ب السوسن

[391] - هذه الجملة غير مفهومة

[392] - هو دلف بن جحدر الشبلي ابو بكر، [334.247 هـ] بغدادي المولد والمنشا، واصلة من اسروشنه من بلاد ما وراء

بكأس العارفين، ألا غارق في بحر المحبين، ألا هائم في ميدان العاشقين، إلا منتبه من رقدة الغافلين. يا مسكين ستقدم فتعلم، سيكشف لك الغطاء فتندم. كيف بك وقد كشف الغطاء وتجلى الجليل لفصل القضاء. يا مسكين كم تبكي وتصيح، دع المعاصي تستريح، كم هذا البكاء والانتحاب.. قف في الدياجي على الباب. انتهى

ولبعضهم: [من الوافر]

ألــــذ مــــن التلـــذذ بـــالغواني	إذا أقـــبلن في حلـــل حـــسان
منيـــب فـــر مـــن أهـــل ومـــالٍ	يـــسيح إلى مكـــان مـــن مكـــان
ليحمـــل ذكـــره ويعـــيش فـــرداً	ويظفـــر في العبـــادة بالأمـــان
تلـــذذه الـــتلاوة أيـــن ولى[393]	وذكـــر بـــالفؤاد وباللـــسان
وعنـــد المـــوت يأتيـــه بـــشير	يبـــشر بالنجـــاة مـــن الهـــوان
فيـــدرك مـــا أراد ومـــا تمنـــى	مـــن الراحـــات في غـــرف الجنـــان

ومن مناجاة الحلاج، الذي تلاطم بحر حبّه وهاج، يا من أسكرني بحبه، وحيرني في ميدان قربه، أنت المنفرد بالقدم، قيامك بالعدل والاعتدال، وبعدك بالعز لا بالاعتزال، وحضورك بالعلم لا بالانتقال، وغيبك بالاحتجاب لا بالارتحال، فلا شيء فوقك فيظلك، ولا شيء تحتك فيقلّك، ولا أمامك شيء فيحدك، ولا وراءك شيء فيدركك، أسألك بك. انتهى

ومنه قول يحيى بن معاذ[394]، في علامات المحبّ الذي من الهجر قد استعاذ: [من الكامل]

ومـــن الـــدلائل أن تـــراه مـــشمّراً	في خـــرقتين علـــى شـــطوط الـــساحل
ومـــن الـــدلائل حزنـــه ونحيبـــه	جـــنح الظـــلام فمـــا لـــه مـــن عـــاذل
ومـــن الـــدلائل أن تـــراه مـــسافراً	نحـــو الجهـــاد وكـــل فعـــل فاضـــل
ومـــن الـــدلائل زهـــده فيمـــا يـــرى	مـــن دار ذل والنعـــيم الزائـــل

النهر، أحد كبار الصوفية ومؤلفيهم ترجمته في البداية والنهاية وسير أعلام النبلاء وشذرات الذهب

(393) - ب ولا.

(394) - ابو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، نزيل الري، توفي بنيسابور عام 258 هـ قال الزركلي في الأعلام: واعظ زاهد لم يكن له نظير في وقته، من اهل الرّي، اقام ببلخ، ومات في نيسابور.

ومن الدلائل أن تراه باكياً ... إن قد رآه على قبيح فاعل

ومن الدلائل أن تراه مسلّماً ... كل الأمور إلى المليك العادل

ومن الدلائل أن تراه راضياً ... بمليكه من كل حكم نازل

ومن الدلائل ضحكه بين الورى ... والقلب محزون كقلب الثاكل

كفر سابة

ولما انقضى ذلك النهار. وأرخت من الليل الحجب والأستار، وصلينا العشاء جماعة، سرنا فوصلنا كفر سابة[395] رابع ساعة، وبه ضريح بنيامين[396] بن يعقوب عليهما السلام، فنزلنا بروضه السامي بحوار المقام، وفرق حضرة الأستاذ الربعة الشريفة، فختمت في تلك الحضرة المنيفة، ثم دعا الأستاذ فأحسن، وكل منا على ذلك الدعاء أمّن، ودعوت الله بزوال ما بي من الأسقام، وحصول الشفا والفوز بدار السلام، ولما وقفت ببابه السامي، امتدحته بأبيات من نظامي: [من الكامل]

هذا الحمى خبر الشفا يرويني ... فلي الهنا فحديثه يشفيني

لاحت بوارقه السنية بالسنا ... وغدت لدوح جماله تهديني

دوح به نشر العبير مضوعاً ... زاكي الشذا بالورد والنسرين

روض سما زاهي البها حالي الحلا ... إذ قد حوى لمقام بنيامين

هو نجل يعقوب الصفي المجتبى ... صفو الكريم بمحكم التبيين

مولى بني سيّد متفضل ... سند عماد عدة التحصين

وافيته وبي السقام مبرح ... أجرى الدموع بزفرتي وأنيني

والصبر عزّ ولات حين تصبر ... حيث الضنا بسهامه يرميني

---

(395) - تقع قرية كفر سابا على طريق يافا – طولكرم العام الذي يمر على بعد 2.5 كم الى الشرق منها، وقد انشئت كفر سابا على بعد 4كلم جنوبي شرقي خربة سابية ذكرها المقدسي البشاري في أواخر القرن العاشر الميلادي ووصفها بأنها قرية كبيرة فيها مسجد على طريق دمشق وجاء في رواية الرحالة ناصر خسرو، الذي كتب في سنة 1047م، إن كفر سابا بلدة غنية بالتين والزيتون وتقع على طريق الرملة في سنة 1596، كانت كفر سابا قرية في ناحية بني صعب [لواء نابلس]، وعدد سكانها 231 نسمة وكانت تؤدي الضرائب على عدد من الإنتاج والمستغلات كالماعز وخلايا النحل.

(396) - مقام بنيامين أو مقام النبي يمين يقع حالياً إلى جوار كفر سابا.

يـا ابـن الكـرام ذوي الفتـوة والنـدى | والمــــرتقين بنــــدوة الــــتمكين
انظــر إلي بعـــين جــود منجــداً | أرمـــي بهـــا فـــسلافها يـــرويني
فعليـــك والرســـل الكـــرام تحيـــة | مـا فـاح عـرف المسك مـن داريـن

وبنيامين هو شقيق الصديق يوسف النبي الأواه، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾[397].

روي عن عبد الله بن يزيد بن أبي فروة، أن يعقوب كتب كتاباً إلى يوسف عليه السلام حين حبس بنيامين: (من يعقوب إسرائيل الله بن اسحاق ذبيح الله[398] بن إبراهيم خليل الله إلى ملك مصر: أما بعد، فإنا أهل بيت وكل بنا البلا، أما جدي إبراهيم فشدت يداه ورجلاه وألقي في النار فجعلها الله تعالى عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي فذهب اخوته إلى البرية ثم آتوني بقميص ملطخاً بالدم، وقالوا قد أكله الذئب، فذهبت عيناي، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به وإنك حبسته وزعمت أنه سرق، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددته علي وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من أولادك). فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك من البكاء، وعيل صبره فأظهر نفسه على ما ذكره الله في كتابه العزيز. انتهى

وبباب المسجد قبر أدركت نوره وإشراقه، يقال أنه قبر سراقة[399] فما أدري أوليٌّ هو أو من الصحاب؟ أم من عبّاد تلك الناحية والرحاب؟ واجتمعت هناك برجل مجذوب يسمى الدرويش محبوب الهندي الأصل، المتجرد عن المال والأهل، اتخذ السياحة مذهباً، والتماسه لذوي المقامات مشرباً، كان ورد علينا بدمياط سنة أربعين، فرأيته متمسكاً من التقوى بحبل متين، . وهو منفرد على الخلق، لا يستأنس إلا بالحق، فقلت له: ما السبب الداعي إلى الانفراد؟. فقال لما ورد عن مالك بن دينار أحد أكابر الزهاد، أنه قال لراهب عظني، فقال إن استطعت أن تجعل بينك وبين الناس سوراً فافعل، وقيل لبقراط لم لا تعاشر الناس؟ فقال: وجدت الخلوة أجمع لدواعي السلوة.

---

(397) - سورة يوسف، الآية 99.

(398) - من الواضح أن المحدث محمد بن يزيد الرهاوي ابو عبد الله بن ابي فروة يتبنى في هذا المقام وجهة النظر التي تقول إن إسحاق هو الذي اراد والده إبراهيم الخليل تقديمه قرباناً وليس إسماعيل وهذا المحدث هو الذي نقل عنه الإمام الأوزاعي حديثاً ضعيفاً يتضمن اتهام الإمام علي رضي الله عنه بالنفاق، ورد ذكره عند الذهبي في سير اعلام النبلاء ج 7 ص130.

(399) - يوجد الآن غربي قلقيلية باتجاه يافا مقام مهمل باسم مقام سراقة

ولابن الوردي: [من البسيط]

أرحت نفسي من الإيناس بالناس | لما غنيت من الأكياس باليأس
وصرت في البيت وحدي لا أرى أحداً | بنات فكري وكتبي هنّ جلاّسي

فأقمنا إلى يوم الأربعاء لذلك السوح، ومن تزايد السقم كادت أن تزهق الروح، ثم عزمنا على الترحال. فوصلنا إلى حبلة[400] وقت الزوال. فنزلنا تجاه البلد تحت الزيتون. أروي لنفسي كتاب (شجون المشجون)، فكان يوماً علي أطول من ظل الفتاة، مما يقاسي المبتلى[401] من شدة عناه، لا أستطعم بشراب ولا طعام، ولا يستروح جفني بمنام، فبعد صلاة العصر مع شدة الكروب، سرنا فوصلنا إلى الخربة[402] قبيل الغروب. فنزلت بزاوية قريب من البلد، وقد نفد الصبر مني وعزّ الجلد، فبت بها تلك الليلة محموماً، وبغربتي عن أهلي وأوطاني أمسيت مهموماً، أتقلب على أشد من شوك القتاد، وأروي عن السها حديث السهاد. [من الكامل]

سقمي يزيد فأين منه المهرب | وغدت وفاتي من حياتي أقرب
والدمع يشرقني بهاطل ورده | إذ حان مني للقبور المغرب

وأصبح جسمي بنار الحمّى[403] مشتعلاً، والقلب بواردات الأفكار مشتغلاً، فورد على هذا المقام، العمدة الفاضل الشيخ غنام، وهو ذو أخلاق سنيّة حسن المعاشرة، ولنا به اجتماع بالجامع الأزهر حين المجاورة، فأنس به الفؤاد بعض الإيناس، وأوجد لنا حظاً على خلاف القياس، وبينما نحن في لذة هذا الكلام، إذ استروحت النفس للمنام، فغفوت حصة لطيفة المقدار، وكيف يلتذ بالنوم من أحاط به السقم ودار، فلما تنبهت من غفوتي، وصحوت من سكرتي، دخل وقت العصر، واشتدت بي المشقة والحصر، فصليت الظهر والعصر جمع تأخير جلوساً، وقد غدا الزمان بوجهه عبوساً، فسرنا في الحال إلى قرية كور[404] فوصلنا إليها قبل حلول الديجور، فنزلت بجامعها الجامع الحسن، ولم أجب دعوة

---

(400) - تقع إلى الجنوب من طولكرم وتبعد 35كم، وعلى بعد 5كم إلى الجنوب الشرقي لمدينة قلقيلية وتتبع إدارياً لها، وتقع في منتصف المسافة بين قلقيلية وخربة خريش ترتفع عن سطح البحر 80 م

(401) ا و ب المبتلا.

(402) - وردت في النسخة ب خربة بدون ال التعريف، والمقصود كما هو واضح خربة خريش المار ذكرها في الهامش المتعلق بقرية حبلة

(403) - ا و ب الحما.

(404) - تقع قرية كور إلى الجنوب الشرقي من مدينة طولكرم وتبعد عنها 15 كم وترتفع 570 م عن سطح البحر

شيخها الشيخ حسن، وقلت إن المسجد أولى بالغريب، وكنت في عدم إجابتي ذلك مصيب، فإنني أقلقت هاتيك النواحي، في تلك الليلة بشدة ضجري ونواحي، ثم اعتراني يوم الجمعة عند بزوغ الشمس، شدة إغماء أذهبت مني إدراك الحواس الخمس، فلم أستفق إلا يوم السبت صحوة النهار وقد ضاق علي المسجد من جميع الأقطار.

وقد حضر الأستاذ عندي فحين رأى شدة جهدي، قال لا بأس عليك، نظر الله بعين اللطف إليك، وبينما الأستاذ لدي حاضر، إذ ورد ولي الله الشيخ خاطر، فقبلت يديه وتوجهت بالخاطر إليه، وقلت له لعلك أن تحمل حملتي وتريحني من علتي، ولك ما تريد وما تختار، فما اختار إلا الفرار، وقال إن حملتك لا أقدر على حملها، لخطرها وشدة ثقلها . فجرت من العيون المدامع، وقلت: ما الذي أنا في المقدور صانع؟ [من الكامل]

ألف الضنا جسمي فلا يتزحزح	ولعبرتي عن كنه حالي يفصح
نظر الطبيب لعلتي متأملاً	فبكى وقال علاج ذا لا ينجح
قدحت زناد الفكر في أحبتي	فإذا بفكر زنادهم لا يقدح
فبكوا بفيض الدمع ملء عيونهم	لما رأوا ورق المنية تصدح
حسبي الممات على اليقين بغربتي	فعسى بذا رتب السعادة أمنح

ثم استأذنت حضرة الأستاذ في المسير، إما إلى يافا أو إلى نابلس ذات الروض النضير، فأذن بالسير إلى نابلس الفيحاء في الحال، لطيب هواها ومناسبتها لذوي الاعتلال. فسرت مع رفيقين، في الصحبة صديقين، أحدهما الشيخ يوسف بن حمدان الطويل، والثاني هو الشيخ أبو بكر طبيل الشهم النبيل. وإني مع ذلك لا أستطيع الاستقرار على متن الجواد، من شدة السقم الذي أنا منه في ازدياد، فوصلت إلى نابلس وقت العصر من بطيء السير، وهو الرابع عشر من شهر صفر[405] الخير. فنزلت بمنزل المحب الصديق، والخليل الأغر الشفيق السيد محمد أمين الدين، كفي شر الأعداء والحاسدين، لوعدي إياه حيث كنا في المسجد الأقصى، وتأكيده بعهود مواثيق لا تحصى، فتلقاني بوجه بالبشر متهلل، ولكنه لحالتي محوقل ومحسبل. ثم أصعدني إلى علية عالية، وصار يتحفني بما يرتجى فيه حصول العافية. وتوارد عليّ الأخوان أصحاب[406] الوفا .

يحيط بها اراضي قرى بيت ليد وكفر قدوم وحجة وكفر زيباد وكفر صور وسفارين

(405) - الأحد 19 آب 1731م

(406) ب الأحباب اخوان

وكل يدعو ويرجو لي من الله حسن الشفاء. ومع ذلك لا يزداد الأمر إلا شدة، ولم أر إلا حسن الصبر لذلك عدة. وقد كنت وأنا بالقدس الشريف بمجلس مع الأستاذ في الحرم المنيف، جرت بيننا مناسبة بذكر مولانا الشيخ عبد الرحمن السمان، وما له من الكرامات البادية للعيان، فتشوقت للاجتماع عليه، وهممت بالتوجه إلى الشام لتنظر عيني إليه وتلحظني بركاته، وتبلغني دعواته، فمن صدق النية وحسن الاتفاق، أنه حضر لنابلس يوم وصولي مع بعض الرفاق، فلما حضر الأستاذ لنابلس ذلك اليوم، واجتمع به مع أولئك القوم، فأخبره حضرة الأستاذ بدائي العضال، والتمسه في التوجه بالحال والقال. فأتى إلي مع حضرة الأستاذ عائداً ولزمام الصحة والعافية قائداً، فوضع يده على صدري وقال أبشر بالسلامة، فإن لي بذلك دلالة وعلامة.

يا عائدي أهلاً وسهلاً مرحباً	جددْت لي من بعد أسقامي شِفا
قد كنت من سقمي إخال تزايداً	والآن قد صار السقام على شَفا[407]

ثم قال كم تريد أن تقيم بسقامك، الذي أحرمك طيب منامك. فقلت ولا لحظة من ساعة، فإنه قد نفدت مني قوة الاستطاعة، فقال لي احمل حملتك، وأرجو من الله تعالى أن يزيل علتك، بشرط أن تدفع لي شيئاً من الذهب، فقلت نعم ولكن إذا المرض ذهب، فقال لي حضرة الأستاذ ذو العرفان. ادفع له ما طلب وأنا علي الضمان. فدفعت له في الحال ما طلب، فقرأ الفاتحة وقال يوم الجمعة يذهب عنك الوصب، ثم إنه توجه هو والأستاذ إلى القدس الشريف، وتركني غريقاً في لجة هذا المرض المخيف، فاشتد بي الحال وأشرفت على التلف، فبادرت بالوصية اقتداء بمن سلف: [من الوافر]

وحمى الغبّ أوهتني سقاماً	وأحرمت العيون جوى مناما
تزور الجسم مني كل غبّ	فتشهدني بزورتها الحماما
أروم الماء ورداً عل أروى[408]	فما ألفي به إلا أواما[409]
ومسعر مذ روى لأبي زناد	حديث الواقدي أبدى ضراما
كنيران الخليل ثوت بقلبي	ولم يك حرها برداً سلاما

---

(407) - شفا بفتح الشين والفاء: طرف، جانبه

(408) - ب اروا.

(409) الأوام شدة العطش

فلـو شـاهدت مـا ألقـاه منـها شـهدت ببـأس سـطوتها الغرامـا

فـدعني والـسقام أبـثُ وجـدي فـإن الجـسم قـد آلـف الـسقاما

وصرت أجري من العيون الدموع، متذكراً أهلي وهاتيك الربوع، أقلّب الطرف في الجهات، وتتصاعد الأنفاس بالزفرات، حيث لم أجد منهم عائداً، ولم أر غير السقام مصاحباً ومواددأ. [من الكامل]

فأنـا الـذي بالسقم حقـا ذا ضـنا لم ألـف في بعـدي سـواه بـوارد

لا أبتغـي صـلة الـذي لكـنني بالـشوق مفتقـراً لوجـه العائـد[410]

وقد اتهمت الشيخ في مقالته، وكاد يدخلني الإنكار لكرامته، فبت ليلة الجمعة الثامن والعشرين من صفر[411]. مشرفاً على التلف يخالني العائد محتضر، فرأيت ما بين النايم واليقظان، السيّدة مريم بنت عمران، تبشرني بحصول الصحة، فانتبهت من شدّة الفرحة، وقد لاح لي فجر المسرة وأسفر، وأينع دوح روضه وأزهر، وبرقت بروق الشفا، ووردت بشائر الصفا، وأقبلت الصحة على العبد، فوجب عليه الشكر ولله الحمد، غير أن القولنج تسلطن حين ذلك، حيث لم يكن له في الجسم مشارك، وتركني كالسليم متململاً قائلا: إن كنت نجوت من الحمى فمني فلا. فقلت صبر جميل وبالله المستعان، ولا مفر عما قدر في الأزل للإنسان، ففي ثاني يوم حضر الشيخ عبد الرحمن من القدس الشريف الأقدس، فوجدني من القولنج لا أستطيع أن أتنفس، فوضع يده على ظهري وقال بسم الله، ذهب الألم وحصل للعليل شفاه. فذهب القولنج في الحال، وقمت كأنما نشطت من عقال، وأقبل الأحباب يهنئونني بالصحة والعافية، ولهم بذلك السرور والنعمة السامية. وبعد ذلك توجهت إلى الحمام، وحصل لي مزيد البسط والأنس التام، وصرت أذهب إلى الرياض الأريجة. أروح النفس بروض رياضها البهيجة، وأنتشق عرف أزهارها، وأتلذذ بحسن نغمات أطيارها، لاسيما التكية الدرويشية[412]، ذات الأزهار والكروم العروشية، مع أحبة خبرهم حديث إخوان الصفا، ومخبرهم نزهة لقانون الشفا، فمما أنشدته في سوحها، مترنماً بمحاسن دوحها: [من الكامل]

---

[410] - معنى البيت، عبر بصلة الاسم الموصول الذي عمّن يصله في أيام عافيته، وعبر بعائد الاسم الموصول عن الذين يجب ان يعودوه في مرضه ليأنس بهم وبوجودهم

[411] – الجمعة؟؟؟ ايلول 1831م

[412] - الان تسمى الزاوية الدرويشية وتقع في حي القريون

وتكيـــة تزهـــو برونـــق زهرهـــا	طـاب الـشذا منـها بفـائح عطرهـا
نـسج الربيـع لهـا مطـارف سـندس	لا تنطـوي بـسط الـسرور بنـشرها
غنـــت بلابلـــها بحـــسن لغاتهـــا	فتمايلـت أغـصانها مـــن سـكرها
وافـــى النـسيم يزورهـــا متعطـــراً	مستكـشفاً مــا في ضـمائر سـرّها
وغـــدا يـــنم بطيفهـــا وبعَرفهـــا	حتـــى تـسامى حـسنها في قطرهـا
وجـــرت جـداولها الأنيقـــة منظـــراً	فغـــدت تهاديهـــا الزهـــور بنثرهـا
واعجـــب لبركـــة مائهـــا في شـكلها	تجـري عيـون مياههـا مـن صـدرها
مـــا زلـــت أقـــرأ للـسقام دفـــاتراً	حتـى نزلـت ضـحى بـساحة خـدرها
فرأيـــت قـــانون العـــلاج مـــسطّراً	مـع حلبـة تـروي الـشفاء بـذكرها
فـشفيت مـــن سـقمي بنزهـــة بهجـــة	جـست لـه نبطـي براحـة بـشرها
فحظيـــت حـــسن جمالهـــا متعـشقاً	ومنحتـــها قلـــبي مُقـــدَّم مهرهـــا
وأقمـــت عرســـاً للزفـــاف وأقبلـــت	تلـــوي إلى نحـــوي مقبـــل ثغرهـــا
وحظيـــت في عمـــري بحـسن تواصـــل	في ســـاعة كانـــت كغُـــرَّة دهرهـــا

وفي صبيحة يوم الخميس، رابع شهر ربيع الأول[413] النفيس، عزمت على زيارة ما بها من المشاهد، وشاهدت ما حوته من المعاهد، فوردت إلى مقام قد سما بالمهابة والاحترام، يقال له مشهد أولاد يعقوب عليه السلام، وإلى ضريح نوره غير خافي، منسوب إلى الإمام الزاهد العابد بشر الحافي[414]. فلعل نسبته إليه برؤية منام، أو أنه أقام به مدة من الأيام، لأنه ورد أنه دخل الديار القدسية وأقام بها مدة زمانية.

ثم صعدت الجبل القبلي الأسنى طلباً للمغانم، بقصد زيارة ولي الله الشيخ غانم، وأظن أن لنا به وصلة من جهة الأجداد، لكون بني غانم كثيري الأعداد، فإن نسبنا من جهة الوالدة ينتهي إلى العالم المحقق الولي النبيل، الملك غانم بن علي الأنصاري الخزرجي، المنتهى نسبة إلى سعد بن عبادة الصحابي الجليل، فإني الفقير مصطفى أسعد اللقيمي الحسني سبط المولى محمد أفندي العنبوسي سبط المولى عبد الرحمن ابن العالم العلامة

---

[413] - 6 ايلول عام 1731م

[414] - ورد تعريفه سابقاً.

مفتي الديار المصرية في أواخر القرن العاشر أبي الحسن نور الدين علي بن محمد بن محمد بن علي بن خليل بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن غانم المقدسي، بن علي بن الحسن بن إبراهيم بن عبد العزيز بن سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري.

وبنو غانم بالقدس سلسلة لا يستقل بذكرهم قلم، ولا يقطع علم من وصفهم إلا ويبدو علم. شجرة طيبة المنابت، ثبت أصلها وزاحمت أغصانها الثوابت، فكم شهم منهم تولى مشيخة الصلاحية بالقدس الشريف، ولا بدع فهم أهل السيادة في التالد والطريف، وقد ترجم صاحب أنس الجليل في كتابه المذكور، نحو العشرين من بني غانم الحبر المشهور.

ولنذكر ترجمة الشيخ غانم الكبير، كما هو مذكور في الأصل، من غير تبديل ولا تغيير، قال:

هو القدوة الإمام المحقق الملك غانم بن علي بن حسن الأنصاري الخزرجي المقدسي، مولده بقرية بورين[415] من أعمال نابلس سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة[416] ولاه الملك صلاح الدين ابن أيوب المشيخة بالخانقاه الصلاحية المنسوبة إليه، بالقدس الشريف والنظر عليه، ورأيت توقيعه بذلك وعليه خط السلطان صلاح الدين يوسف، فاتح القدس الشريف، بما قرأته الحمد لله على نعمائه، وقد قطع تاريخه لطول الزمان، وهو أول من وليها ممن سكن القدس من ذلك التاريخ، وتناسل منه ذرية معروفون مشهورون، وسنذكر ما تيسر منهم إن شاء الله تعالى.

صحب الشيخ غانم مشايخ أهل[417] زمانه، وأخذ عنهم مكارم الأخلاق وحسن المآثر. توفي بدمشق في شهر رجب الفرد سنة اثنتين وثلاثين وستمائة[418]. انتهى

ولعل الشيخ غانم المدفون بهذا الجبل هو الذي ترجمه بقوله: الشيخ الصالح غانم بن عيسى بن موسى بن الشيخ غانم المقدسي الصوفي، كان شيخاً للصوفية بالخانقاه الصلاحية بالقدس الشريف توفي بالأرض المقدسة سنة سبعين وسبعمائة[419]. انتهى

---

[415] - بورين بلدة كبيرة تبعد عن نابلس 8 كم، ومعنى اسمها باللغة الأرامية الأراضي البور بصيغة الجمع، وتبعد 2 كم عن الطريق الرئيسي نابلس - رام الله يحدها من الشمال نابلس ومن الجنوب عوريف وحواره، ومن الغرب قريتا مادما وعصيرة القبلية ومن الشرق قريتا عورتا وأودلا، ترتفع عن سطح البحر 600م

[416] - 1195 -1196 م

[417] - ساقطة من ا.

[418] - مابين اذار ونيسان عام 1235م

[419] . 1368م – 1369م

وبالقرب منه قبر ولده الشيخ عبد السلام، ولعله والد العز بن عبد السلام بن غانم المقدسي سلطان العلماء كما يؤخذ ذلك من تاريخ مولده ووفاته[420]. فلما وصلت إلى رحابه ووقفت بأعتابه. قرأت ما تيسر من القرآن العظيم وأهديته إلى جنابه الكريم، وقصدت بزيارتي له ما ورد في صلة الأرحام، ورجوت منه حسن الملاحظة على الدوام، وقضيت بذلك الرحاب الأريج، ساعة يكشف بها عن القلب الوهيج، وتشوقت إلى دمشق الشام، حيث رأيت جبالها[421] بادية من ذلك المقام. [من الطويل]

أنابُلُسُ الفيحا سقتك الغمائم	وهبَّ بواديك الأريج نسائم
وفاح عبير المسك يروي عن الشذا	أحاديث للطيبي روتها الكمائم
وغنى[422] هزار الأنس في عذباتها	وناغى بها شحرورها والحمائم
ولاحت شموس السّعد من أفق قُدسها	تضيء بها أرجاؤها والمعالم
تهيجني الأشواق سعياً لنحوها	لمشهد إمداد ثوى فيه غانم
همام سما فوق السماكين رفعة	إمام جواد كنز فيض وعالم
ووصلة أرحامي دعتني لنحوه	وفي صلة الأرحام ترجى المراحم
فيا غانم الإسعاد وافاك أسعد	يَسَلُّ مغنماً إذ منك ترجى المغانم
عليك سلام الله ما هم زائر	إذ لاح من وادي دمشق معالم

ولما أن طاب الوقت بطيب نفحه، نزلت من أعلى الجبل إلى سفحه، فوردت محلاً هو بالزيارة مقصود، مشهور عند أهل تلك الناحية برجال العامود[423]، محتوٍ على مآثر ومعاهد، فيها لتحقيق إجابة الدعاء شواهد، منها محل يقال إن به أربعين نبياً، ومقامٍ رأى

---

[420] - هذه المعلومات غير صحيحة فالعز بن عبد السلام هو أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد بن مهذّب السُلمي مغربي الأصل، ولد في قرية كفر الماء من أعمال الجولان كما يذكر صاحب أنس الجليل، وكان الجولان حينها من أعمال دمشق، ولذلك قيل في بعض التراجم إنه ولد في دمشق عام 578 هـ وعاش فيها وبرز في الدعوة والفقه، وتوفي سنة 660هـ في مصر.

[421] - لعل المقصود جبل الشيخ

[422] - ا و ب غنا.

[423] - قد يشير هذا الاسم إلى رهبان مسيحيين عاموديين كانوا قد دفنوا في هذا الموضع الذي حافظ على قدسيته، وقد تحول هذا المكان إلى مقبرة اسمها مقبرة العامود يدفن اهالي بلاطة في نابلس موتاهم فيها، وهي مقبرة تقع مقابل دائرة السير في نابلس وهذه المقبرة مقامة منذ زمن طويل، ويوجد فيها مدافن ومقامات رجال العمود.

فيه بعض الصالحين أبا السبطين علياً، ومقام الخضر أبي العباس، وجماعةً من الصلحاء السادة الأكياس.

فبعد الزيارة والوقوف بأعتابهم واستمداد فيض بر إمدادهم ذهبت إلى قرية بلاطة[424]، وقد نشر لي الأنس بساطه، وبها مشهد على قارعة الطريق، يقال إن به يوسف الصديق، وهو الذي تعتقده الطائفة السامرة[425]، فلذلك استوطنوا نابلس فدورهم بها عامره، وقد أخبرني بعض السادة الأخيار، أن هذه الطائفة لا يوجدون في غير هذه الديار، وأنهم لا يزيدون على سبعين، وأن عددهم في نابلس لا يتجاوز الأربعين، وهم من رفضة اليهود.

وقد اختلف في ذبيحتهم، ففي مذهب إمامنا الشافعي رضي الله عنه، أنهم إن خالفوا اليهود في الفروع دون الأصول حلت ذبيحتهم، وإلا فلا. والموجودون مخالفون في الأصول والفروع. انتهى

ثم لما حسن من النهار الختام، رجعت إلى المحل لأريح الجسم بالمنام، ثم في ثاني يوم ذهبت إلى محل يقال له الخضرة[426]. مقصود بالزيارة وله في تلك الناحية شهرة، وبه بستان يانع الأزهار، رحب الجنبات كثير الثمار، ومن بديع حسنه النفيس، أنه بداخله مسجد أنيس، وبجانبه محل ذو مهابة واحترام، يقال إنه معبد يعقوب عليه السلام، وبه خلوة يقال لها خلوة المحزون، كانت حين مجلس يعقوب حين اعتراه لفقد ولده يوسف الشجون، فهي تهيج أخا الهوى بتحريك الصبابة والجوى. [من الكامل]

إن خلوة المحزون أشجت مغرما	شاكي الجوى بصبابة وشجون
فأنا المقيم على التوله والجوى	إذ كان قلبي خلوة المحزون

---

[424] - تقع بلاطة على مسافة كيلومتر واحد شرقي مدينة نابلس الفلسطينية تنحصر بين خطي عرض 32 و 33 شمال خط الاستواء يحدها من الشمال قرية عسكر، وأراضي قرية عصيرة الشمالية، ومن الجنوب اراضي قرية كفر قليل وسهل قرية روجيب وسهل قرية حوارة، ومن الشرق سهل عسكر وأراضي قرية عزموط وأراضي القرية نفسها، ومن الغرب مدينة نابلس

[425] - الطائفة السامرية أصغر طائفة دينية في العالم لا يتجاوز عدد افرادها اليوم 450 شخصا وتضم 5 عائلات منها عائلة الكهنة التي تقوم بالطقوس الدينية، بينما يمارس بقية أفراد الطائفة التجارة والصناعة والعمل في دوائر الحكومة والمهن المختلفة يرتبط جبل جرزيم بالطائفة السامرية ارتباطاً وثيقاً، ويدعى ايضاً جبل الطور ويعتقد السامريون ان موسى عليه السلام كلم ربه من فوقه، ويقيمون عليه طقوسهم الدينية أثناء عيد الفصح حيث يحتفلون بنحر الذبائح وتقديم القرابين وتأدية الفرائض والصلوات في العراء كل عام

[426] - كانت هنالك زاوية صوفيه اسمها الخضرة تحولت الآن إلى مسجد بالاسم نفسه في مدينة نابلس

حديقة الأترج

وقد ذهبت مع إخوان أنسٍ وصفا، مذكراتهم تلين كل جلد وصفا، سحبوا ذيل البلاغة علي سحبان، ونثروا درر الفصاحة على مفارق حسان، صدورهم بيت الحكمة، وقلوبهم أوعية الرحمة، إلى حديقة بهيجة، وروضة بالزهور أريجة ائتلف منثورها ومنظومها، واختلف مطعومها ومشمومها، تباكت الأنواء على أشجارها، فتضاحكت ثغور ازهارها، وغرد القمري لغنا الشحرور، وشدا البلبل معلناً بالسرور، فأطلقت طرف الطرف في تلك الحديقة، وسرحت جواد الفكر في محاسنها الأنيقة، فرأيت من أعجب العجب، شجرة تحمل أكر الذهب.

وقلت لبعض الأصحاب المتوشح بحلل الآداب، ما هذه الثمرة العجيبة، والعجيبة بالغريبة، فقال هذه التي أشار إليها البكري الهمام في مقامته الغريبة البديعة النظام.

فقلت اسمعني بعض ما فيها إن كنت تسندها وترويها، فقال: قد قال الشيخ في تلك المقامة، قدس الله روحه ورفع مقامه: دخلت بستاناً تآخى[427] فيه المنظومة والمنثور، وغرّد على أفنانه طير الهنا والسرور، حسن خضرته، يخبر عن طيب حضرته، صفقت أوراق أغصانه، وزمرّ دولابه بمزامير أشجانه، وتباكت الأنواء على عذبات أفنانه، وتضاحكت الأنهار مرحاً وطرباً، وقضت الأفكار من هذه الحالات عجباً، فوجدت عن اليمين والشمال جنتين، هما في وجه الزمان كوجنتين، حفتا بروح وريحان، وفي غصون غصونهما اليانعة الزهر ألوان، أعلن عندليبهما بالأذان على منابر الأفنان، وخطب شحرورها بأفصح لسان، من فوق منابر الأغصان، فقلت لعل هذا اليوم من جملة عيد العيدان، فتقدم بين يدي بلبلها ينادي الأمان الأمان،ويتلو بصوته الرخيم على المسامع والآذان، قول ربنا تبارك وتعالى في القرآن، ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[428].

فقال كل منا والله إنا نخاف ذاك المقام، ونود لو طاب لنا ها هنا المقام، واستبعد كل منا من العطف أن ينعطف، فضلاً عن أن ينال ثمرة ويقطف، فإذا لسان الحال، يترجم في الحال، يا صاحب البستان، سبحان ربنا سبحان، أما سمعتم قول ربنا في سورة الرحمن ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾[429]، فقلت حبّذا فاجن حبَّ ذا، ولا تجن على القضبان، وأبنئني بأطيب ما عندك في هذا البستان،.

---

[427] - ا و ب تواخا.

[428] - سورة الرحمن، الآية 47.

[429] - سورة الرحمن، الآية 54.

فأدخلني إلى جنبات كأنها جنات، لسان حالها ينطق بآيات بينات، وفي الأرض قطع متجاورات، فإذا بي أرى طينة طيبة مسكية، قد عجنت بمياه صافية كافورية، وتسترت بجلابيب حلل سندسية، فأما قضبانها فزمردية، وأما أزهارها فلؤلؤية، وأما ثمراتها فعسجدية.

وقال لسان قيم ذلك البستان، أقم اليوم عندنا ولك المكانة في هذا المكان، لنتحفك بما يفتح المسام، ويملا المشام، ويزيد شهوة الطعام، ويبرد الكبد الحرّى، ويقمع المرة الصفرا، ويطيب أكلاً وشمّا، ويحمد ريحاً وطعماً، ويصلح غذاء، ويستعمل دواء.

فقلت عجّل لي بذاك عجل الله لك بالمبرات، وأذهب عنك كل المضرات. فقال لابد أن ألغز لك فيه لغزاً، وأن جعل لك فيه رمزاً، فإن عرفته كنت فارس ميدان الحجى، وفاتح باب طالما تراه مدحجا، على سواك مرتجا، وعند ذلك تظفر بالسؤال والمرتجى.

فقلت له: هات لي ما عندك من الألغاز، فما لخزانة علمنا فاقة ولا إعواز. فقال أخبرني عن شيء جاء أوله وآخره، مصحّف يسر قلبه وسرائره، تقدم أوله عن آخره حيث جاء، فإن غيرته صار بحر الحجى، أربعة لو أضفت إليه خمسين فضلاً عن واحد، لا يزيد ولا ينقص عن أهل الفوائد، أخبرنا بنو الروم أن نصفه نار، وعند العرب يرى من مجموع علميه نار ولا إنكار، وأعجب شيء أنه نبات، وشبه بالحيوان الناطق في أكثر الصفات، بيد أنه من جمر ربعه، وكم ضاع منه أرج طيب وما ضاع نفعه، فهذه ألغاز فائقة ومعان رائقة.

فقلت لعمرك لقد تأرّج هذا العرف، وعرف عندي هذا الوصف، وما ارتج على ذهنه باب بيانه، ولا أريج إيوان ملكه ولا جارت تبيانه، لعل ذلك الذي غزلت شقة لغزه بيد فطنتك، ونسجت ثوب معمّاه على منوال بصيرتك، هو معنى قول ربنا الجليل في التنزيل، بالمتكأ على قول بعض أهل التأويل، واستشهد على دعواه التي بها حكم، وفي ألواح الفكرة والأرواح بها لها رسم.

بعض الفضلاء السادة النبلاء، بقول بعض شعراء العرب، الذي يستدل بكلماتهم عند علماء التفسير والحديث والأدب. [من الوافر]

فأهـــدت متكـــة لـــبني أبيهـــا	تخـــب بهـــا العثمثمـــة الوقـــاح

أما المتكة يا هذا فهي الأترجة في العربية، والعثمثمة[430] فالناقة الشديدة القوية.

---

(430) - ا و ب العثيمة

والوقاح الناقة الصلب خفّها، وهذه المعاني تم لديك وصفها، وكأنها الأترجة التي ذكر أبو داود[431] في سننه، ومن سلك طريقه الأقوم وبديع سننه، أنها التي شقت نصفين، وحملت على جمل حملاً كالعدلين، وهذه زيادة في الفائدة، وصلة موصولٍ فضل بشفا العليل وبتبريد الغليل عائده.

ومن تمام الفوائد، ما ذكره المقريزي[432] حيث قال عن هذه الأترجة: إنها كانت من جنان أحمد ابن إبراهيم البصري عالم زاهد، قال: وكانت خارج مدينة الفسطاط فلما قدم الخليفة المأمون بن هارون الرشيد مصر سنة سبع عشرة ومائتين[433] رأى هذا الجنان، فأعجب بها وسأل ابن سنان كم غلّت هذاه الجنان؟ قال لا أستطيع حصرها، إلا أنه ما زاد على مائة ألف دينار.

ويكفي هذه الثمرة من الشرف، الذي دونه الهضبات والشرف، قول سيّد ولد عدنان، وسند أهل الإيمان والعرفان: مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأُتْرُجَّة طعمها طيب وريحها طيب. وناهيك بهذا القول الذي يسقي رياض الفكر كل وابل صيِّب، ولعل هذا التشبيه من قبيل المفرد المقيد بالحال، كما قرره علماء البلاغة أرباب الفضائل والكمال، في تشبيه من لا يتحصل من سعيه على طائل بالراقم على الماء، وأبدى في ذلك الوجه البديع الرفيع الأسماء، ووجه الشبه في الحديث متعدد حسي، وهو الرائحة والطعم. وإن كان ما يوجد من المؤمن من ذلك، من المعقول التنزل منزلة المحسوس في هذه المسالك، فصار كتشبيه فاكهة بأخرى في الرائحة والطعم، هكذا ينبغي أن يوجه إلى ذلك جواد الفهم، وإنما كان من تشبيه المفرد بالمفرد، وإن كان المراد تشبيه حال المؤمن بحال الأترجة، والحال يناسب اعتبار التركيب، لما صرح به صاحب الكشاف والإيضاح[434] في تقرير التشبيه على أسلوب لطيف عجيب، في قول ربنا تعالى وسما ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاة

---

[431] - ابو داود هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمر الأزدي السجستاني وكتاب سنن ابي داود جمع ابو داود فيه السنن والأحكام، ولما صنفه عرضه على احمد بن حنبل فاستحسنه ولم يقصر ابو داود سننه على الصحيح، بل خَرَّج فيه الصحيح، والحسن، والضعيف، والمحتمل، وما لم يجمع على تركه وكان يري العمل بالضعيف في فضائل الأعمال، إذا لم يكن هناك غيره ويُعد الكتاب من مظان الحديث الحسن، حيث جمعه من خمسمائة الف حديث، انتقى منها 4800، ومن احسن شراحه الإمام الخطابي في كتاب معالم السنن

[432] - شيخ المؤرخين المصريين تقي الدين احمد بن علي المقريزي ولد و توفي في القاهرة 764هـ . 845هـ [1364م-1442م]

[433] . عام 841م – 849م

[434] - المقصود هنا كتاب الإيضاح في علوم البلاغة لجلال الدين القزويني، ففيه الفقرة المشار إليها، وكذلك كتاب الكشاف لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ففيه حديث الأترجة .

الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء﴾[435] من أن المركّب إذا عبر عنه بمفرد كان المشبه الذي ولى الكاف، الظاهرة أو المقدرة من قبيل المفرد الذي يلي الكاف. هكذا جاء بيان موضح المعاني والأوصاف، ثم لا يخفى أن للتشبيه مراتب ثمانية، تظهر أسرار حكمها باعتبار قوته في البلاغة وعدمها، وأعلى مراتبها ما حذف منه الوجه والأداة. [وهو التشبيه البليغ]

والمناسب لكمال بلاغة أشرف الأنبياء صلى عليه وسلم مولاه، أن يحمل ما وقع منه من التشبيه على أعلى مراتبه، وأجل طرقه وأجمل مذاهبه[436]، إذا علم ذلك، فنقول: يمكن أن يكون وجه الشبه في الحديث الشريف، ميل النفوس والانتفاع المشترك بين الطرفين، وذلك غير مذكور كالأداة في هذا المقام المنيف، وما ذكر من الرائحة والطعم في الحديث من الترشيح، ملاءمتها للأصل الذي هو المشبه به على الوجه الرجيح.

هذا، وإن كان ظاهر كلامهم في مقام بيان الترشيح. إنه من توابع الاستعارة فقط، فلا ينبغي قصر النظر عليه، لما صرح به المولى عصام في شرح رسالة الاستعارة وأرشد بعض الفضلاء إليه، من أن الترشيح كما يكون للاستعارة يكون للمجاز المرسل.

وللتشبيه روض وسيم، ويعرف على هذا التعميم. الذي سقي غوادق معانيه، من بيان بديع مبانيه، بأن ذكر ما يلايم الأصل من المستعار منه في الاستعارة، والمعنى الحقيقي في المجاز المرسل والمشبه به في التشبيه عند أهل البراعة والعباره.

وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم، كان يعجبه النظر إلى الأترج. وقال بعض أهل العلوم: فسره بأنه مشموم، وشحمه مطعوم، وحماضه إدام، وبزره دهن تمام. وطبعه بارد رطب في الأولى، والأحسن والأولى عندي، أن أبدي لك ما عندي، من الفوائد الطبية، واللطائف الحكمية.

فأما شحمه فيصلح فساد الهواء والوبا، وحماضه يقوي القلب الذي حرّه ربا، ينفع من لسعة العقرب شرباً وطلا، ويقمع البخار الذي زاد وعلا، ويسكن الصفراء والقيء والخفقان، وينفع الاكتحال منه من الرمد واليرقان، ويذهب الطلاء به القوباء والكلف ويجلو الألوان، وإذا نقع في ماء باردٍ وقطع وقطر في العين ينفع الرمد الذي تطاول منذ زمان، ومرباه جيد للرؤية والحلق، وربه دابغ للمعدة بحق، وطبيخه نافع من الحمّى، وإذا طبخ لبّه بخل وشرب قتل العلق، وأخرج الداخلة في الحلق مع الماء.

وقشره في الدرجة الثالثة حرارة ويبساً، وامساكه في الفم يطيب النكهة ويورث

---

[435] - سورة يونس، الآية 24.

[436] ا مواهبه

النفس سروراً وأنساً، ويقوي المعدة من اليسير، وينفع أكله من البواسير، وعصارته إذا شربت نفع من أكل السموم، وحرافته طلاء جيد للبرص المعلوم، وبزره يقوي اللثة ويحلل الأورام، وورقه مقو للمعدة مشهٌ للطعام، وفيه هضم وتسخين، وللتفتح به ذهاب وتسكين، مفتح للسدد البلغمية بلا ارتياب، ودهنه نافع من استرخاء الأعصاب.

فقال: لقد جئت بالعجب العجاب، ولكن هل تعرف فيه شيا من كلام أهل الكمال والآداب، فقلت على الخبير سقطت، ومن البحر التقطت، وعن الخير رويت، والى علم الغيب رأيت، فإنني فارس ميدان الفصاحة والبيان، وساحب ذيل التبيان، على تيجان ملك سحبان، فخذ مني أولاً ما جادت به القريحة، فإنها إن شاء الله تعالى صافية غير قريحة، وجادت بأبيات شعرية، وألفاظ يانعة زاهرة بهية، فمن ذلك: [من الرجز]

أترجة لقد حوت كل العجب ... كفضة قد طليت من الذهب

لون المحب لونها وريحها ... ريح لطيبٍ وهي في طعم الحبب

ومن ذلك أيضاً: [من المنسرح]

انظر إلى صبغة المليك وما ... أظهر في الأرض من أعاجيب

جسم لجين قميصه ذهب ... ركب في الحسن أي تركيب

فيه لمن شمّه وأبصره ... لون محبٍ وريح محبوب

ومن اللطائف ما حكاه الصلاح الصفدي[437] في تذكرته عن الأسعد ابن مماتي[438] قال: دخلت يوماً على القاضي الفاضل[439] وبين يديه أترجة كبيرة مفرطة الضخامة، قال:

---

(437) - ابو الصفاء صلاح الدين خليل بن ايبك بن عبدالله الالبكي الصفدي الشافعي ولد في صفد سنة 696هـ ولد لاسرة ثرية من اسر المماليك فقد كان والده اميراً. كانت موهبة الصفدي الادبية الثقافية، اول ما ولي كتابه الدرْج [وهو جدول فلكي فيه مواقيت الصلاة وتاريخ الأيام ومطالع الشمس والقمر] بصفد، ثم بالقاهرة، وباشر كتابة السر بحلب وقتاً، وبالرحبة وقتاً، والتوقيع بدمشق ووكالة بيت المال، واستمر بهما حتى وفاته، وتصدى للافادة بالجامع الأموي. وتوفي الصفدي بدمشق، في ليلة الاحد العاشر من شوال سنة 764هـ بمرض الطاعون، ودُفن بمقابر الصوفية في دمشق من مؤلفاته (التذكرة الصفديْة) او الصلاحيْة، وهي اكبر موسوعة ادبيْة وتاريخيْة الفها الصفدي، وتزيد عن ستْة وأربعين جزءاً، ولم يُطبع منها غير «المختار من ديوان شمس الدْين بن دانيال»، وهو الجزء الرابع عشر. إضافة إلى (الوافي بالوفيات)، و(اعيان العصر وأعوان النصر)، و(الحان السواجع بين البادي والمراجع)، ومؤلفات أخرى زادت على الثلاثين

(438) - الأسعد بن المهذب بن مينا بن زكريا بن مماتي مؤرخ مسلم مصري من أهل القرن السادس الهجري

(439) - ولد القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني بمدينة عسقلان شمال غزة في فلسطين سنة [529هـ] خمسمائة وتسع وعشرين وانتقل إلى الإسكندرية، ثم إلى القاهرة وكان الرجل الثاني في دولة صلاح الدين، وقد اعتمد عليه في تدبير امور الدولة

فجعلت أطيل النظر إليها وأتعجب منها، حتى غشيني شيء شبه الذهول. فقال لي كأنك تفكر في خلق هذه وما فيها من التكتيل والتعويج، وتتعجب مناسبتها إلي، فدهشت وانخلع قلبي ثم عاد إلى خاطري فقلت: لا ولكن فكرت في معنى وقع لي فيها، ثم نظمت بديهاً: [من السريع]

لله بـــل للحـــسن أترجـــة ... تـــذكر النـــاس بـــأمر النعـــيم

كأنهـــا قـــد جمعـــت نفـــسها ... مـــن هيبـــة الفاضـــل عبـد الـــرحيم

قلت وبذا أختم المقالة، وأتمم نظام عقد هذه الرسالة، مقالة اختتمت بعض أبياتها على موازن الفقرات، وتقابل بعض الحروف والكلمات. [من البسيط]

أترجـة قد حوت صنفاً مـن العجب ... كأنمـا ذاتهـا صـبغت مـن الـذهب

في خـدها لهـبٌ في ثغرهـا حبـب ... في طعمها شنب يسمو على الضرب

انتهى

فلما شنف صاحبي سمعي بهذه الجواهر، وتلا مفاخرة الأترج على المنابر، أتخمني بأترجة ترتاح لرؤيتها النفس، فلله دره حيث جمع لي بين ملاذ الحواس الخمس: [من الكامل]

أفـدي الـذي أهـدى إلي أترجـة ... وتـلا علـى سمعـي محاسـن وصـفها

فنظرتهـا ولمـستها وشممتـها ... وحلـت مـذاقاً مـع لطافـة ظرفهـا

فتـنعم الخمـس الحـواس بـأكرة ... تحـوي لجينـاً في مـذهب ظرفهـا

محاسن نابلس

وما زلت أروح النفس في رياض تلك المدينة، وأنزه الطرف في عرائس مروجها المتحلية من الأزهار بالجواهر الثمينة، وأتنشق عرف نسيمها العليل، وأرتشف من عيونها سلافا يبري العليل، وأتفكه بمحادثة لطائفها، وأشنف السمع بدرُ منظوم أدبائها، فعلى الحقيقة فهي مدينة ذات حسن بديع، وتزداد حسناً إذا ذهب الشتاء ووافى الربيع.

وهي معتدلة الهوا، تناسب للطافة كيانها أهل الجوى، وهي غزيرة المياه والعيون، كثيرة الثمار يانعة الغصون، وأهلها ذوو لطافة وكرم، وفي مكارم الأخلاق أشهر من نار على علم، ولهم مزية حسب في تلك البلاد، كمزية حسن البياض على السواد، ولعمري كأنهم المعنيون بقول القائل، من بلغاء الشعراء الأوائل: [من المتقارب]

هـم القـوم حـازوا صـفات العـلا ... بحسـن الطبـاع ولطـف الـشيم

ومـن حقهـم شـكر آلائهـم ... ومـن حـق شـانيهمو أن يـذم

قال صاحب أنس الجليل، روى المشرف بسنده عن كعب الأحبار، قال أحب البلاد إلى الله تعالى جبل نابلس، ليأتين على الناس زمان يتماسحونه بالحبال بينهم. ونابلس مدينة بالأرض المقدسة مقابل بيت المقدس من جهة الشمال، مسافتها عنه يومان بسير الأثقال، أي على طريق الجادة، خرج منها كثير من العلماء والأعيان، وهي كثيرة الأعين والأشجار والفواكه، ومعظم الأشجار بنواحيها الزيتون.

وبها كثير من السمرة فإنهم يعتقدون أن القدس جبل نابلس، وقد كذبوا وخالفوا جميع الأمم في ذلك لعنهم الله تعالى[440]، وقد قيل إن سيدنا يوسف عليه السلام قبره بالقرب من نابلس. وبمدينة نابلس معهد أولاد يعقوب عليه السلام، وبنواحيها مشاهد كثيرة تنسب إلى جماعة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. انتهى

وكان ممن أجتلي معه كؤوس الوداد، وينشرح بمحادثته الصدر والفؤاد،. وتتبعث به اللذات بتلك الحانات، حضرة الزاهد عباس تلميذ الزاهد ولي الله الملا الياس قدس الله سره البديع، ورقاه في الجنان إلى المنزل الأسنى الرفيع، فطالما كان يحدثنا عن شيخه المذكور، ويروي خبر زهده وحاله المشهور، وله كلام في سلوك الطريقة، يدل على أنه من أهل المحبة والحقيقة، منهما:

شيئان لا تذكرهما، إحسانك إلى الناس، وإساءتهم إليك، وشيئان لا تنساهما، ذكر الله والموت. وعليك أيضاً بشيئين، لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك. ومنه: عليك باحتمال الأثقال، وارتكاب الأهوال في كل آن وحال، فمهما كنت كذلك كنت السالك، ومتى جنحت إلى اللذات والراحات، فأنت مستدرج. انتهى [من الكامل]

حكـم سمـت فيهـا مـواعظ حكمـة ... تـروى عـن المـولى الزكـي إليـاس

يغـدو بهـا الفطـن الزكـيّ متيقّظـاً ... مـتردداً بـين الرجـا واليـاس

الشوق إلى دمشق

وطالما كنت أتشوق إلى دمشق ومعاهدها، وأتمنى ولو في المنام أشاهدها، لما ورد

---

(440) - هذا الموقف الحاد يثير التساؤل فكأن كعب الأحبار يلعن السَمَرة من موقعه اليهودي وليس الإسلامي في أسوا الأحوال، أو أن ماضيه اليهودي ما يزال مسيطراً عليه في أحسنها.

فيها وفي فضلها من الآثار الصحاح، ولمدحة الشعراء والزوار والسوّاح، ولي إليها من الشوق المبرح والحنين، ما أشار إليه الصاحب بن عنين[441]: [من الطويل]

دمشق فبي شوق إليك مبرح — وإن لجّ واش أو ألح عذول

بلاد بها الحصباء درّ وتربها — عبير وأنفاس الشمال شمول

وكيف لا أتشوق لواديها، وأتشوق لرؤياها وناديها، وبها الغوطة ذات المحاسن، التي ماء أنهارها غير آسن، وقد قال النواجي في حلبته، مشوقاً لذاك المعهد بمدحته.

أجمع جوابو أقطار الأرض على أن متنزهات الدنيا أربعة صغد[442] سمرقند وشعب بوان[443] ونهر الأبلّة[444] وغوطة دمشق[445]. قال أبو بكر الخوارزمي قد رأيتها كلها، فكان فضل غوطة دمشق على الثلاث كفضل الأربع على غيرهم، كأنها جنة صورت على وجه الأرض، فأما الصغد فهو نهر تحفّ به قصور وبساتين وقرى مشتبكة العمائر، مما مقداره اثني عشر فرسخاً في مثلها، وأما الشّعب فبقية من نواحي سابور فرسخان وقد ألحفتها الأشجار ظلالها، وجاست الأنهار خلالها، وهو لبوان بن أيرج بن أفريدون، وفيه يقول المتنبي: [من الوافر]

مغاني الشعب طيباً في المغاني — بمنزلة الربيع من الزمان

وهي قصيدة مطولة، وأما نهر الأبلة فهو من أعمال البصرة، وطوله أربعة فراسخ وعلى جانبيه بساتين كأنها بستان واحد، وأما الغوطة فهي من خير دمشق، طولها مقدار ثلاثين ميلاً وعرضها خمسة عشر ميلاً، مشتبكة القرى والضياع، لا تكاد الشمس أن تقع على أرضها لالتفاف شجرها، واكتناف زهرها، وللشعراء في وصفها قصائد كثيرة طويت عن ذكرها خوف الإطالة.

---

[441] - الصاحب ابن عنين الرئيس الأديب شاعر وقته، شرف الدين محمد بن نصر الله بن مكارم بن حسن بن عنين الأنصاري الدمشقي الزرعي نسبة إلى زرع التي تسمى اليوم إزرع في حوران مات سنة ثلاثين وست مائة عن إحدى وثمانين سنة. كان من فحول الشعراء.

[442] - يرد خطأ في المخطوطة سعد، غير أن المصادر التي تذكر هذا القول تؤكد أنه صغد. وهي كورة بين بخارى وسمرقند.

[443] - شعب بوان: ارض بفارس بين ارجان والنوبندجان

[444] - الأبلة: هو الاسم القديم لمدينة البصرة، قبل ان ينشئ المسلمون القادمون من الحجاز مدينة البصرة في عصر الخليفة عمر بن الخطاب

[445] - هي الأراضي المزروعة التي تحيط بدمشق من كافة الجهات وتحدق بها الأنهار السبعة، وكانت فيها ضياع كالمدن مثل داريا وقردا وكفرسوسيا والمزة، كما يذكر الادريسي، وهذه الضياه باتت اليوم أحياء في المدينة وريفها.

روي عن كعب الأحبار رضي الله عنه أنه قال: غوطة دمشق بستان الله في أرضه. وقال الشيخ بدر الدين الدماميني[446] عند دخوله إياها[447]: فتأملها المملوك فإذا هي جنة ذات قرار ومعين، وبلدة تبعث محاسنها الفكر وتعين[448]، وحسبك بالجامع الفارق بينها وبين ما سواها، والأنهار التي إذا ذكرت قبل المحل فما أجراها، وإذا سمع حديث الخصب فما أرواها.

وما أقول إلا منزهات مصر عارية من المحاسن، وهذه ذات الكسوة، ولأن النيل ما احترق إلا من الأسف، حيث لم يسعده الدهر بالصعود إلى تلك الربوة، ولا أظنه احمرَّ إلا خجلاً، من صفاء أنهارها، ولا ناله الكسر إلا لتألمه على الانقطاع عن الوصول إلى سقي أزهارها، فلو رأى العاشق جهتها لسلا بصر معشوقة، ونسي ظهور جواريه المنحنية بقامات غصونها الممشوقة. ولو تطاولت المجنونة إلي المفاخرة لتأخرت إلي خلفها متخبلة، وأحجمت عن الإقدام حيث تحركت لها بدمشق السلسلة. وحق لمصر أن لا تجري المفاخرة في فمها، وأنت تتقي شر المنازعة، قبل أن تصاب بسهمها، فسقى الله منتزهاتها التي طرب المملوك برؤية حبكها، ولطالما اهتزت لها المعاطف على السماع، ورأى بها كل نهر ذاب عنه الجليد، فانعقد على حلاوة سكره الإجماع: [من الكامل]

أشتاق في وادي دمشق معهداً	كل الجمال إلى حماه ينسب
ما فيه إلا روضة أو جوسق	أو جدول أو بلبل أو ربرب
وكان ذاك النهر فيه معصم	بيد النسيم منقش ومكتب
وإذا تكسر ماؤه أبصرته	في الحال بين رياضه يتشعب
وشدت على العيدان ورق أطربت	بغنائها من غاب عنه المطرب
فالورق تشدوا والنسيم مشبب	والنهر يسقي والجداول تشرب
وضياعها ضاع النسيم بها فكم	أضحى له من بيننا متطلب

---

[446] - محمد بن ابي بكر بن عمر بن ابي بكر بن محمد بن سليمان الإسكندراني بدر الدين المالكي المعروف بابن الدماميني ولد سنة 763 وتوفي سنة 827 سبع وعشرين وثمانمائة بالهند. له تصانيف كثيرة ذكرها البابائي في هدية العارفين

[447] - ينقل اللقيمي عن الدماميني الذي ينقل بدوره عن طبقات الشافعية الكبير لعبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، الجزء التاسع الترجمة رقم 1340 العائدة لإبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن ضياء بن سباع الفزاري الشيخ برهان الدين بن الفركاح، الذي يورد رسائل من الشاعر القيراطي ومطارحات تتضمن نقولات اللقيمي

[448] - ا والعين

وحلت بقلبي من عسال جنة | فيها لأرباب الخلاعة ملعب
ولكم طربت على السماع بذكرها | وغدا بربوتها اللسان يشبب
فمتى أزور معالماً أبوابها | بسماحها كتب الكرام تبوب

قال ابن خطيب داريا[449]: [من الطويل]

سألتكما أن جئتما الشام بكرة | وعاينتما الشقراء[450] والغوطة الخضراء
قفا واقرآ مني كتاباً كتبته | بدمعي لكم مقرى ولا تنسيا سطرا[451]

وقد أجاد القيراطي[452] تضمينه:

دمشق بواديها رياض نواضر | بها ينجلي عن قلب ناظرها الهم
على نفسه فليبك من ضاع عمره | وليس له منها نصيب ولا سهم

انتهى

وقد هاجني لورود منهلها العذب، وتبوُّؤ سوحها الفسيح الرحب، ما أخرجه الحافظ أبو الحسن بن ربعي الإمام[453]، في فضايل الأرض المقدسة ودمشق الشام، عن ابن مسعود مرفوعاً:

قسم الله الخير عشرة أعشار، فجعل تسعة أعشاره بالشام، وبقيته في ساير الأرضين، وقسم العشرة عشرة أجزاء فجعل جزءاً بالشام وبقيته في ساير الأرضين. وعن الوليد بن صالح الأزدي قال: في الكتاب الأول الله يقول للشام أنت الأندر، ومنك المنشر واليك المحشر، فيك ناري ونوري، من دخلك رغبة فيك فبرحمتي، ومن خرج عنك رغبة

---

(449) - محمد بن احمد بن سليمان بن يعقوب الأنصاري جلال الدين البيساني الأصل، ثم الدمشقي المعروف بابن خطيب داريا، ولد سنة 745 هـ وعني بالفقه ومهر في اللغة وفنون الأدب وقال الشعر في صباه وتقدم في اجادته الى ان صار شاعر عصره اقام بالقاهرة مدة ثم استقر في بيسان، وكان له بها وقف وتوفي بها عام 810 هـ 1407م

(450) - الشقراء متنزه معروف في دمشق في العصر المملوكي قرب الميدان الأخضر غرب المرجة

(451) - سطرا ومقرى متنزهان في غوطة دمشق ذكرهما عرقلة الكلبي في العصر العباسي بقوله:

ما بين سطرا ومقرى جنّة سرحت | انهارها في ظلال الآس والبان

(452) - برهان الدين ابو إسحاق ابراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر القيراطي شاعر اشتغل بالفقه والأدب وجاور بمكة وتوفي فيها. اتصل في القاهرة بابن نباتة وأخذ عنه طريقته في صناعة الشعر. كانت بينه وبين شعراء العصر مطارحات بالشعر. وتوفي فيها سنة |781|هـ

(453) - (فضائل الشام ودمشق) لأبي الحسن علي بن محمد بن شجاع الربعي المالكي، هو احاديث حول فضائل بلاد الشام وضع في القرن الخامس الهجري واعتمد عليه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق

عنك فبسخطي، تتسع لأهلها كما يتسع الرحم للولد. وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم، تلا هذه الآية قوله عز وجل ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[454]. ثم قال: هل تدرون أين هي؟ قالوا لله ورسوله أعلم، قال: هي الشام بأرض يقال لها الغوطة، بمدينة يقال لها دمشق، هي خير مدائن الشام.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾. قال هي دمشق والحسن هي الغوطة. وعن قتادة قال ذات ثمار وماء كثير. انتهى

ولما تحكم الوجد والولوع، لمشاهدة تلك المعاهد والربوع، شمرت لقصدها عن ساق الهمة والعز، وتمنطقت بمناطق الاستعداد والحزم.

إلى دمشق

ففي يوم الأربعاء المبارك الأنور، السابع عشر من ربيع الأول الأزهر[455]. سريت من نابلس المحروسة، وفارقت معاهد ربوعها المأنوسة، هذا والطرف يذري الدموع بانسجام، فلم أدر تلك العبرة حزناً لفراقها أم فرحاً بالشام! [من الطويل]

لنابلس الفيحا غدوت مودعاً ... ميمم نحو الشام نجب تشوقي

ففاضت دموعي من سحاب جفونها ... لسح كسح الوابل المتدفق

فلم أدر جري الدمع يوم فراقها ... أحزناً عليها أم سروراً بجلق

ولما تزايد بي ذلك، أنشدت بين هاتيك المسالك: [من البسيط]

ومذ ثنيت عنان العزم مرتحلاً ... عن نابلوس لنحو الشام من برح

جرت دموعي فلا أدري تدفقها ... من موجب الحزن أم من داعي الفرح

وامتطيت طرفاً من العتاق، مصاحباً لسادة وفاق، منهم ولي الله الرفيع الشأن، الشيخ عبد الرحمن السمان، والفاضل منلا[456] عباس، تلميذ الزاهد المنلا الياس، وخرج معنا للوداع الأصدقاء والأحباب، إلى عين الماء وواديها الفسيح الرحاب، فلما حان وقت الوداع، هاجت لواعج القلب الملتاع، وتراسلت مسلسلات الدموع، وصرف النوى صيغة منتهى الجموع. وغدا حلو العيش بذلك مراً، وقال لي البين لن تستطيع معي صبرا. [من الطويل]

---

[454] - سورة المؤمنون، الآية رقم 50.

[455] - 20 ايلول 1731م

[456] - ا الملا.

ولما نحا التفريق صرف جموعنا وأعرب عن وجدي حديث المدامع

تنازعني داعي التوله والجوى وأشغلني تذكار تلك المرابع

ثم سرنا فوصلنا بعد ساعتين دير شرف[457]، فارتقينا من صهوته أعلى الغرف، فأنس ببرء علته السقيم، مذ زاره فيه اعتلال النسيم، وأنشدت عند مشاهدة مرجته البهيجة، وفرح شذا أزهاره الأريجة: [من البسيط]

يا حبذا المرجة الفيحا بذي شرف وروضها الزاهر الزاهي البهي البهج

شفى عليل الجوى مر النسيم بها إذ راح يروي الشفا عن عرفه الأرج

جينين

وبعد صلاتنا العشائين جماعة، قصدنا جينين[458] فوصلناها قبل الفجر بساعة، فنزلنا بخانها المعد للمسافر، فوجدنا الحسن عن محيّاه سافر، وبجانبيه مسجد قد كساه الجمال جلباباً، وعقد له من بهجة النفوس باباً، ترى الروض محيطاً بجوانبه، والماء جارياً في مشارق الخان ومغاربه، ولابدع إذ كان مذهباً للحزن، فقد جمع الماء والخضرة والوجه الحسن.

يا حبذا يوماً بجينين مضى كالغرة البيضاء في وجه الزمن

فيه ثلاث للسرور تجمعت الماء والخضرة والوجه الحسن

واجتمعت فيها بولي الله العارف، المتوشح بالمعارف والعوارف، مولانا الشيخ أحمد قبونة، لا زالت سحائب إمداداته هتونة، وقد أجمع على ولايته أهل تلك الناحية، وكم له من كرامات كالشمس ظاهرة غير خافية. فلما جلا منظره الشريف ناظري، أفصح بلسانه

---

[457] - تقع قرية دير شرف إلى الشمال الغربي من مدينة نابلس وتبعد عنها حوالي 9كم، وتقع على الطريق الرئيسي جنين – نابلس، ونابلس – طولكرم، وتبلغ مساحتها العمرانية 480 دونما، يدير شؤون القرية مجلس قروي وتبلغ مساحة اراضيها الكلية 7200 دونم يمر بها خط للسكك الحديدية ويحيط بأراضيها العديد من القرى منها قوصين، بيت إيبا، الناقورة، سبسطية، برقة، كفر قدوم

[458] - تكتب جينين بالياء بعد الجيم، وجنين بالكسرة بعد الجيم، وتقوم مدينة جنين الحالية في المكان الذي كانت تقوم عليه مدينة عين جنيم الكنعانية، وتعني عين الجنائن لذلك سُميت بهذا الإسم بسبب الجنائن التي تحيط بها. وفي عهد الرومان كان في بقعتها قرية ذكرت باسم [جيناي] من قرى سَبَسْطية فتحها العرب المسلمون في القرن السابع الميلادي وعُرفت بهذا الإسم جنين حتى يومنا هذا، وتقع إلى الشمال من مدينة نابلس، وتبعد عنها 41 كم، وترتفع 250م عن سطح البحر. أما خانها فقد اقامته فاطمة خاتون، إبنة محمد بك نجل السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري، وزوجة الوزير مصطفى لالاباشا.

عما هجس في خاطري، وتلقاني بالبشر والابتسام، وأتحفني بدعوات على وفق المرام، ثم أقمنا بين هاتيك الظلال، إلى أن توارت الشمس دوننا بحجال.

سرنا قاصدين عيون التجار[459]، ونتصفح كتاب[460] المسامرة وأخبار الأخيار، ووصلنا قبيل الفجر إلى حانها، ونزلنا نحن والرفاق بخانها . بداخله مسجد سامي البناء، قد آل إلى الزوال والفناء، وهذا الخان صار غالبه إلى الخراب بل قد قارب أن يساوي التراب: [من الخفيف]

قد نزلنا وقت الصباح بخان	خانه الدهر فانتمى للقفار
كان روضاً له التجار توافي	باشتياق من سائر الأمصار
قد بكته عيونهم إذ رأوه	بعد عليا مشيده في اندثار
لهف قلبي ولوعتي فعليه	سح جفني بدمعه المدرار
لا تلمني وقد بكيت لديه	قد بكته قبلي عيون التجار

ولما أشرقت الشمس على تلك البطاح، قصدنا خان المنية[461] وروضها الفياح. فوصلناه عند توسط الشمس المضيه، ونزلنا على شط بحيرة طبرية، وقضينا ذلك اليوم نحن والرفاق اللطفاء، بأنس وحبور ومسرة وصفاء، وقبل وصولنا إلى المنية أخبرنا بعض المكاريه[462]، إنه قريب من هنا مقام شعيب بقرية حطين[463]، ولكن دونها عقبات ومخاوف

---

[459] - تقع عيون التجار في شمال فلسطين بجوار جبل طابور في المكان الذي يتفرع فيه طريق دمشق – فلسطين – مصر إلى طريقين، الأول باتجاه الجنوب جنين- نابلس- القدس – الخليل والثاني باتجاه الساحل لجون – الرملة- غزة تأسس هذه المحطة حوالي سنة 989هـ 1581م على يد الصدر الأعظم في السلطنة العثمانية سنان باشا، شأنها شأن سعسع وتتكون المحطة من جامع وتكية للطبخ وبيوت للمسافرين وخانات لنزول المارين من ابناء السبيل وحمام وطاحونة دقيق وبيت للقهوة اي مقهى، حسب نص وقفية سنان باشا التي نشرها محمد الأرناؤوط في كتابه (معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر) و يبدو ان هذه المنشأة قد خربت في مرحلة مبكرة من القرن التسع عشر، إلى ان أصبح يطلق على المكان الآن اسم (خربة خان السوق).

[460] - أ تلك

[461] - يقع خان المنية على ساحل طبرية الشمالي الغربي إلى الجنوب من قرية الطابغة، وساد اعتقاد خاطئ لدى الرحالة الأجانب في القرن التاسع عشر، بأن المكان هو موقع مدينة بيت صيدا التي ترد في الانجيل، ولذلك كانوا يسمونه خان بيت صيدا. ولكن المعطيات الحديثة بينت أن بيت صيدا هي تل عامر في سهل البطيحة في الجولان، في حين عثر على بقايا قصر بناه الوليد بن عبد الململك الخليفة الأموي في موقع خان المنية

[462] - هم الذين يؤجرون دوابهم لركوب المسافرين

[463] - تقع حطين غربي طبريا بمسافة 9 كم، وهي موقع المعركة الشهيرة بين صلاح الدين الأيوبي والصليبيين وكانت تسمى قرون حطين

بيقين، فاهدينا التحية لسيدنا شعيب عليه السلام، واعتذرنا عن وصولنا لرحابه دار السلام. [من الوافر]

رياض الأنس مرآها يطيب	ومربع دوحها روض خصيب
وموردها يروي كل صاد	إذا استولى على القلب الوجيب
لقد أبدت لنا حطّين منها	ضريحاً فاح من ريّاه طيب
ضريح يزدهي حسناً ففيه	صفي الحق مولانا شعيب
رسول ناصحٌ هاد رشيد	حليم مصلح راج منيب
خطيب الأنبياء كما روينا	بإسناد فيا نعم الخطيب
فيا سعد الذي وافا حماه	له الإسعاد والفتح القريب
وكم رمت الوصول وقد تدانا	ومورد ورده منا قريب
فعاقتني مخاوف مزعجات	لها رأس الوليد جوى يشيب
فيا كنز النبوة صل غريباً	فإني في حماك إذاً غريب
عليك الله صلى ما تراءت	رياض الأنس مشهدها يطيب

سيدنا شعيب عليه السلام من أولاد سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقيل من ولد بعض من آمن بإبراهيم عليه السلام، أرسله الله تعالى إلى أصحاب الأيكة ومدين فلم يؤمنوا، فاهلك الله تعالى أصحاب الأيكة بسحابة أمطرت عليهم ناراً[464] يوم الظلة، وذلك أنهم رأوا حراً شديد فدخلوا الأسراب فوجدوها أشد حراً، فخرجوا منها فرأوا سحابة، فاستظلوا بها فأمطرت عليهم ناراً، فاحترقوا وأهلك الله تعالى أهل مدين بالزلزلة. وجاء في الخبر أن شعيباً عليه السلام كان خطيب الأنبياء عليهم السلام، وقبره بقرية حطّين من أعمال مدينة صفد، بعيدة عن بيت المقدس بنحو ثلاثة أيام. انتهى من أنس الجليل.

نعران والقنيطرة

ولما استقام ظهر الليل، امتطينا ظهور الخيل، فوصلنا قبيل الظهر قرية عين

---

(464) ساقطة من ا.

نعران[465]، فإذا هي خالية من السكان، تبكي عيونها بفيض الدموع، وتندب أطلالها سكان تلك الربوع. [من السريع]

وبلــــدة لـــــيس بهـــا أنـــيس ... إلا اليعـــــافير وإلا العــــــيس

نزلنا بها نتفيأ بظلها الظليل، ونريح الأرواح بذلك المقيل، فما كان إلا كلمح البصر أو أقرب، حتى تهيأ أمير الركب للمسير فأرهب، فصرنا في دوحه مغصة بالأشجار، إلى أن وصلنا إلى القنيطرة[466] حين ولى النهار. ونمنا بخانها الخراب. وأقرانا الريح فيها بنثر التراب، وقد نصب البرد فيها خيامه، ورفع بها رايته وأعلامه، فنحي الجسم بشدته، ووكل الزمهرير بإعراب سطوته، فتذكرت في هذا المقام حين اعتراني الوجيب. ما كتبه الصلاح الصفدي الأديب، بقوله: لو ترى أحدنا وقد أخذه النافض، ونحاه القر بعامله الرافع والزمهرير الخافض، لرأيت شخصاً ركبت أعضاؤه على الزيبق فما تستقر، وجفت لهواته يبساً فما تستدر، لا يمد كفه ولو بايعه الناس على الخلافة، ولا يخرج يده ولو كان فقيراً إلى كاس ذهب، أو نديماً إلى كأس سلافة، يكاد لذلك البرد جني الكلام بتجسد، ويتمنى الإنسان لو أنه تحت رخام الحمَّام يتوسد. انتهى

ومن لطيف التناجي، ما أنشده الشهاب الخفاجي[467]: [من المتقارب]

ويـــــوم غـــدا بـــارد جـــوّه ... بـــه رعـــدة مـــن هـــوى يـــبرد

تـــرى لهـــب النـــار مـــن بـــرده ... بكانونـــــه أبـــــداً يرعــــــد

ولما حدثت بأخبار البرد والهوى، أنشدت مرتجلاً من عظم الجوى: [من الطويل]

قنيطـــرة عنـــها المـــبرد قـــد روى ... حديث أبي الدرداء عن سطوة البرد

نزلـــت بهـــا حتـــى تمنيـــت جـــذوة ... بهـــا أتقـــي بـــرد الهـــوى ومـــا تجـــدى

ورمـــت حـــديث الواقـــد ومـــا روى ... أبـــو مـــسعر وأبـــو الزنـــاد مـــن الوقـــد

---

[465] - ا و ب نغران وهي قرية تقع في غرب الجولان قرب جسر يعقوب، وقد ذكرها أكثر من جغرافي عربي بوصفها محطة على طريق دمشق- فلسطين، ومنهم خليل بن شاهين الظاهري أواخر العصر المملوكي في زبدة كشف الممالك، حيث قال إنها مركز إقليم يضم نحو 150 من القرى.

[466] - القنيطرة مركز منطقة الجولان، بنى فيها ابن المزلق في العصر المملوكي خاناً للمسافرين، ثم أتى الوزير العثماني مصطفى لالاباشا وجدد هذا الخان في عهد سليمان القانوني ذكر أكثر من رحالة خان القنيطرة قبل اللقيمي منهم كودفيك، والخياري وأوليا جلبي والنابلسي وهذا الخان مندثر الآن وبقي منه الجامع فقط

[467] - شهاب الدين الخفاجي الحنفي قاضي القضاة في مصر توفي سنة 1069هجرية

سعسع

ولما أضاء القمر وشعشع، قصدنا قرية سعسع[468]، فوصلناها وقت الزوال، وقد سرّت النفس ببلوغ الآمال، ونزلنا بخانها العامر الأنيس، وصلينا التحية بمسجده النفيس، وبه تكيّة بجانب المسجد، تنبيء بعلو همة المجدد، وتجاهها فسقية ماء عذبة الموارد، تروي غليل الصادر والوارد، وبمحاذاته نهر ماء سلساله يتموج، يقال له نهر الأعوج[469]. فجلست على شاطئ ذلك النهر، لأروي القلب وأشرح الصدر، مع أخوان رقة ولطف، وأخدان ذوق وظرف، ندير ما بيننا سلاف البديع، ونتفكه بثمار روضه المريع.

فبينما نحن في لذة هذا الخطاب، ونشاءة ذلك الشراب، إذ ورد درويش شريف، ذو أدب وسمت لطيف، فوقف وأبدى التحية والسلام، وطلب الإذن في الجلوس باحتشام، فلما استقر[470] وذهبت عنه دهشة القادم، أخذ ببديع البلاغة ينادم، وأبدى لطائف الأخبار والنوادر، فشنف الأسماع بالدرر والجواهر. وقلت له ما الاسم الكريم، حبيت التعظيم والتكريم، فأنشد متبسما، فأهاج الفؤاد المتيما: [من السريع]

أفدي الذي دار بكأس الطلا	وخده كالورد لما ورد
قلت اسقني من غير دور أبى	وقال في الدور شيء ورد

فقلت له لعمري هذا من المعمّى، وقد اتفق الوصف مع المسمى.

فقال حياك الله وبياك، وحفظ ذهنك ولا فض فاك، وقد اتفق مثل هذا المقام لحضرة يحيى أفندي بن برام، أنه دخل عليه رجل فوقف وسوى قامته، ثم انحنى ثم قبض على لحيته، وجعل كأنه ينفض منها شيئاً من آخرها ثلاث مرات، ثم قال له معمياً باسم الفقير، فقال له اجلس يا إدريس.

ومن هذا القبيل ما يحكى عن الصاحب ابن عباد أنه سأل رجلاً عن اسمه فأنشده: [من الطويل]

وما تستوي الأسماء والناس والكنى	كثيراً ولكن قد تساوى الخلائق

---

(468) - تقع سعسع على مسافة 40 كم جنوب دمشق على طريق فلسطين – مصر القديم المشار إليه وما يزال خان سعسع قائماً حتى الآن، ولكن يد الخراب طالته وبنيت البيوت السكنية داخل سوره، الذي ما يزال يحتفظ بكامل حجارته وابراجه المثمنة، وهذا الخان من إنشاء سنان باشا ايضاً، في الفترة نفسها التي انشئ فيها خان عيون التجار اي سنة 989هـ 1581م

(469) - يعد نهر الأعوج ثاني اهم مجرى مائي في حوض دمشق بعد بردى، ينبع من جبل حرمون، ويبلغ طوله نحو 44كم ويصب في بحيرة الهيجانة قرب دمشق

(470) - ب جلس

فقال له الصاحب اجلس يا أبا القاسم.

ثم قال لي ما الاسم؟ حظيت من المعارف بأوفر قسم، فأنشدته قولة ابن البكاء[471] في كنزه، في الاسم المعمي ورمزه. [من السريع]

لم أنسه إذ قال من تيهه ... وكأسه في راحه قد طفا

حباب هذا الخمر لما رأى ... فمي له صاد عليه طفا

فقال لي حبيب الأنس والصفا، فلا زلت للعلياء مصطفى، ثم تجارينا في ميدان التناجي، على سوائق الألغاز والأحاجي، فأنشدته: [مخلّع البسيط]

يا من يباحث في الأحاجي ... حتى غدت منه مطيعة

ما مثل قولك في أديب ... رام الحجا عين الشريعة

وأنشدت أيضاً: [من الوافر]

وغانية لها صب مشوق ... يروم بوصلها منها اقترابا

تعاطيه نصاباً قرقفيا ... محاجية فلا يرضى رضابا

فأنشدني على البديهة واعتذر، وعزم في وقته على السفر: [من مخلّع البسيط]

يامن شفى بلفظه فؤادي ... مذ كان بي من البعاد غله

كيف التحاجي والبليغ ذو حجا ... إذ ما تحاجى ثواب مله

ثم ودع وانصرفه وأبقى التلهف والأسف، ثم قضينا بقية اليوم بذلك الحمى نحن والقوم، ولما توارت الشمس بالحجاب، أسرعنا بصلاة العشائين نحن والصحاب، وامتطينا من الجياد المتون، ولنا بقرب الديار شؤون. [من الوافر]

ويزداد المحب كثير شوق ... إذا حان الوصول من الديار

دمشق

ولما لاحت من دمشق السرادق، المتمنطقة من رياضها بمذهبات المناطق، وتبسمت ثغور أزهارها، وبشرت المشوق بقرب مزارها، طفق الحادي بحسنها يترنم، فأنشد هناك المستهام المغرم: [من الوافر]

---

[471] - ابن البكاء معين الدين بن احمد البلخي الأصل مصري المولد والمنشا الشهير بابن البكاء سافر إلى مكة ثم المدينة وسكن إلى ان توفي بها سنة 1040 اربعين والف ذكر البابانى ان له رسالة المعمي مشهور.

ألا زدني ولوعاً بامتداحك ... محاسن جلق وقت اصطحابك

وزد بالنيربين ولوع قلبي ... وربوتها فيا حسن اقتراحك

فلما أشرفنا على الثنية[472]. وفاح من أرجائها العواطر العنبرية، أنشد بعض الصحب، فأهاج المغرم الصب: [من الكامل]

وإذا الثنية أشرقت وشممت من ... أرج الحما أرجاً كنشر عبير

سل هضبها المنصوب أين حديثها ... المرفوع عن ذيل الصبا المجرور

وعندما حيعل المؤذن بالفلاح، ولاح من الأفق تباشير الصباح، وصلنا إلى دمشق المحروسة، التي هي بالأبدال مأنوسة، ووقفنا ببابها الوسيع الرحب، وقرأنا الفاتحة لمن بها من الأولياء والصحب، واستأذنا سراتها في الورود، كما نبه عليه صاحب العهود، ثم سرنا حتى وصلنا المدرسة الشميصاتية[473]، ونزلنا بها بخلوة مراقيها سنية، بعدما قرأت الفاتحة للواقف، السامي الممنوح بعواطف العواطف، وذلك صبيحة يوم الاثنين المفضل، الثاني والعشرين من ربيع الأول[474]، ثم توجهت للجامع الأموي الجامع، الذي ضياء السنا على أرجائه لامع، فإذا هو روض أزهر، وكوكب بالمحاسن أنور، تأسست قواعده على التقوى، وحاز من الجمال المرتبة القصوى. [من الوافر]

بيوت الله بالغبراء حاكت ... من الزرقاء أنجمها الفراقد

وهذا البيت بيت الله حقاً ... على التقوى تأسست القواعد

---

[472] - يبدو أن اللقيمي قد تشبع بالمعلومات الجغرافية حول دمشق فخلط بين مدخلها الشمالي ومدخلها الجنوبي، فالثنية هي مدخل دمشق الشمالي وليس الجنوبي الذي اتى منه اللقيمي، ولا يمكن رؤية الثنية من الجهة التي قدم منها اللقيمي وثنية العقاب تسمى اليوم طلوع الثنايا، وقد ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان ان ثنية العقاب بالضم، هي ثنية مشرفة على غوطة دمشق يطؤها القاصد من دمشق إلى حمص، قال أحمد بن يحيى بن جابر وغيره من أهل السير: سار خالد بن الوليد من العراق حتى اتى مرج راهط فأغار على غسان في يوم فصحهم ثم سار إلى الثنية التي تعرف بثنية العقاب المطلة على غوطة دمشق، فوقف عليها ساعة ناشراً رايته وهي راية كانت لرسول الله صلى الله عليه و سلم، كانت تسمى العقاب علما لها ويقال إنما سميت ثنية العقاب بعقاب من الطير كان ساقطا عليها بعشه وفراخه والله اعلم

[473] - هي الخانقاه السميساطية التي كانت اكبر خانقاه للصوفية في دمشق، وتقع شمالي الجامع الأموي، وهذه الخانقاه كانت دارا لأبي القاسم علي بن يحيى السلمي السميساطي، ولذلك سميت بذلك، ولكنها في حقيقة الأمر هي منزل عبد العزيز بن مروان ومنزل ولده الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، وكان ذلك مكتوباً على ساكفة الباب كما يذكر الصلاح الصفدي وينقل عنه أكرم العلبي في خطط دمشق

[474] - 24 ايلول 1731م

فلله درّ الصفدي[475] الحاذق، حيث جعل جامعاً فارق. [من المتقارب]

دمـــشق لهـــا منظـــر رائـــق وكــــل إلى وصـــلها تـــائق

وكيـــف يقـــاس بهـــا بلـــدة أبـــى الله والجـــامع الفـــارق

ثم بعد صلاة ركعتي التحية، والدعاء بالدعوات السنية، قصدت جناب حضرة نبي الله يحيى الحصور، عليه صلاة وسلاماً يؤذنان بالحبور، وجعلته أول المشاهد وروداً، والموارد مشهداً وشهوداً، ولأنه هو الأحق بالتقديم، والمستوجب الإجلال والتعظيم، ولذلك جعلته مبدأ زيارتي بهذه المدينة، رجاء حصول الإمداد وتنزّل السكينة. [من الطويل]

ولمـا وصـلنا مـن دمـشق معاهـدا وثغـر الأمـاني بالهنـا يبتـسم

وقـالوا بمـن ذا بالزيـارة تبتـدي بتقديمـه قلـت الـنبي المقـدّم

فوافيـت ذيـاك الجنـاب ميممـاً أصـلى عليـه مثنّيـاً وأسـلم

فوقفت تجاه حضرته الشريفة، مترجياً عواطف إمداداته المنيفة، وقرأت ما تيسر من القرآن، وأهديته لجنابه الرفيع الشان، وأنشدت في ذاك المقام المحترم، ما سنح به الفكر وجرى به القلم. [من الوافر]

شـهود الأنـس منـه القلـب يحيـى بـأنس حمـى نـبي الله يحيـى

حمـىً عنـه المـشاهد[476] أنبأتنـا أحاديـث الـضيا سـنداً قويـا

تـسامى إذ حـوى مـولىً رسـولاً حـصوراً سـيّداً بـراً تقيـا

بـه قـد بـشر المـولى أبـاه وأوتـي الحكـم في مهـدٍ صـبيا

تـدرع بالمـسوح الـشعر زهـداً وسـار بزهـده نهجـاً سـوياً

ووافـى المسجد الأقـصى خـديما وأحيـا الليـل بالـذكرى بكيـا

وقـد نهـج الـسياحة بـانفراد وكـان لربـه فيهـا نجيـا

دمـشق الـشام مـن عليـاه تـسمو بمـشهده الـشريف ذرا عليـا

فبـشرى للـذي وافـى حمـاه يحـوز سـعادة ميتـاً وحيـا

---

(475) - الصلاح الصفدي

(476) - 1 - المشارق

لنحــو جنابــه الــسامي وفــدنا	نرجــى منـــه فيـــضاً أقدســيا
لعـل القلــب مــن ظمــأ التنــائي	يــصادف منـــهلاً حـــالٍ وريـــا
فاهديـــه صـــلاة مـــن ســـناها	شــهود الأنــس منــه القلــب يحيــى

تذييل[477]:

ويحيى عليه السلام نبي الله وصفيه، أرسله الله تعالى فدعا الناس إلى عبادة الله تعالى ولبس الشعر، واجتهد في العبادة من صغره، وحكي أنه دخل بيت المقدس وهو ابن ثماني حجج نظر أهل بيت المقدس قد لبسوا مدارع الشعر وبرانس الصوف، ونظر إلى مجتهديهم، فأتى أبويه فسألهما أن يدرعاه الشعر، ففعلا ثم رجع إلى بيت المقدس.

وكان يخدم فيها نهاراً ويسبح ويصلي ليلاً، حتى أتت عليه خمس عشرة سنة خرج سائحاً حتى جلس على بحيرة الأردن، وقد نقع عليه قدماه من العطش، وقد كاد أن يذبح، وقال لله تعالى وعزتك وجلالك لا أذوق برد الشراب حتى أعلم أين مصيري إلى الجنة أم إلى النار، فبكى أبواه وسألاه أن يأكل قرصاً من شعير كان معهما، ويشرب من ذلك الماء، فرق لهما وفعل، وكفّر عن يمينه، فذكره الله تعالى بالبر فقال تعالى: ﴿وَبَـرّاً بِوَالِدَيـهِ﴾[478]، فرده أبواه إلى بيت المقدس، فكان إذا كان صلاته بكى، فيبكي زكريا لبكائه حتى يغمى عليه، ويبكي أهل المنازل ومن كان من العبّاد حولهما لبكائهما، فلم يزل كذلك حتى خرقت دموعه خديه، فاتخذت أمه قطعتين من لبد وألصقتهما على خديد تستنقع دموعه إذا بكى في القطعتين، فتقوم فتعصرهما، فكان يحيى إذا رأى دموعه تجري على ذراعي أمه قال: اللهم هذه دموعي وهذه أمي، وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين[479].

استفتاه بردوس[480] الملك في التزوج بابنة أخيه، فقال له لا تحل لك، فسألته البنت وأمها في ذبح يحيى فأبى، فألحتا عليه، وأمر بيحيى فذبح، ووضع الرأس فجعل يتكلم

---

[477] - هذا التذييل مأخوذ على مايبدو من كتاب (إحياء علوم الدين) لأبي حامد الغزالي، وتحديداً من كتاب الخوف، بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف وهو حديث منسوب لابن عمر.

[478] - سورة مريم، الآية 14.

[479] - في النص قليل من التصرف من اللقيمي او من الناسخ

[480] - من المؤكد ان الخطأ من الناسخ لأن المقصود هو الملك هيرود انتيباس، وهذا النص مأخوذ تقريباً بمعناه من إنجيل مرقص [6: 17- 29]

ويقول لا تحل لك واستمر دمه يغلي إلى أن بعث الله تعالى على بني إسرائيل حردوساً[481] فقتل منهم سبعين ألفاً فسكن، وكان قتله قبل رفع عيسى عليه السلام بسنة ونصف.

وعن ابن عباس أوحى الله عز وجل إلى محمد صلى الله عليه وسلم أني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً وأني قاتل بابن بنتك سبعين ألفاً. انتهى

وإن رأسه مدفون في هذا المسجد كما دلت عليه الآثار، بمشاهدة الأبصار، فلعل القبور المنسوبة إليه خلاف هذا فيها جسده الشريف، فقيل انه بجبل طور زيتا بمقابر الأنبياء، وقيل بسبسطية من أعمال نابلس، وقيل بصيدا.

ثم ثنيت بزيارة بني الله هود عليه السلام، وعلى ما قيل[482] أنه في القبلة تجاه الإمام، فوقفت في ميدان الأدب والخشوع، مرتدياً برداء التذلل والخضوع، وقرأت ما تيسر من القرآن، وأهديته لجنابة الرفيع الشأن، ودعوت الله لي ولإخواني، بما أجراه الحق على لساني، ثم لما انشرح القلب بهذا المشهد، طرب الصب وأنشد: [من الوافر]

معاهد في دمشق حكت زروداً   فطابت مصدراً وحلت ورودا

ولاح بأفقها شمس التهاني   لنا تبدي مطالعها سعودا

وروضة دوحها تهدي نسيماً   يفوح أريجه ندآً وعودا

مشارق حسنها قد أشهدتنا   ضياء حمى نبيّ الله هودا

غدا في قبلة الأموي ثاوٍ   كما روت النهى خبراً مفيداً

حللنا سوحه[483] الزاهي صباحاً   نرجّي من موانحه شهودا

ونهديه سلاماً ما تراءت   معاهد في دمشق حكت زرودا

تذييل:

وهود عليه الصلاة والسلام هو نبي الله تعالى، أرسله إلى عاد فدعاهم فلم يؤمن منهم إلا القليل، فأهلك الله تعالى الذين لم يؤمنوا بريح سبع ليال وثمانية أيام حسوماً،

---

(481) - يقول المسعودي في مروج الذهب في اخبار الأنبياء بين سليمان والمسيح ما يلي: (فبعث الله عليهم [أي بني إسرائيل] ملكاً من ناحية المشرق يقال له حردوس، فقتل منهم على دم يحيى بن زكريا الوفاً من الناس وهو يفر إلى ان هدا الدم بعد خَطْب طويل)، اما حردوس هذا فهو كما يبدو اريتاس اي الحارث الرابع النبطي الذي غزا فلسطين اثناء فترة حكم هيرود انتيباس وانتصر عليه في عام 36 ميلادية

(482) - ا يقال

(483) ا دوحه

والحسوم الدائم، فلم تدع غير هود والمؤمنين معه، فإنهم اعتزلوا في حضرموت، وبقي هود كذلك إلى أن مات بها ودفن بها، وقيل بالحجر من مكة.

وعن عثمان بن أبي عاتكة، قبلة مسجد دمشق قبر هود عليه السلام، وقال القرطبي في تفسير والتين مسجد دمشق كان بستاناً لهود عليه السلام فيه تين. انتهى

وقد بنى هذا المسجد الوليد بن عبد الملك سنة ست وسبعين [هجرية][484]، وأتم بناءه في عشر سنين، وكان فيه اثنا عشر ألف مرخم، وأنفق في عمارته أربعمائة صندوق، كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار، ولما تم عمارته قال الوليد: يا أهل دمشق إنكم تفتخرون على الناس بأربع، بهوائكم ومائكم وحماماتكم وفاكهتكم، فأحببت أن أزيدكم خامسة وهي هذا الجامع، فحمدوا الله تعالى وأثنوا عليه.

وقال الفرزدق أهل دمشق في بلدتكم قصر من قصور الجنة، يعني به الجامع الأموي، ولم يزل على هذا الحسن إلى أن خربه التمرلنك[485] وأزال محاسنه، ولم يبق منها إلا الآثار، ولكن فضل البقعة باق كما دلت الأخبار، فعن سفيان الثوري أن الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة. وحكى أن واثلة بن الأسقع خرج من باب المسجد الذي يلي جيرون، فلقي كعب الأحبار، فقال له أين تريد فقال أريد بيت المقدس لأصلي فيه، فقال: تعال أريك موضعه، أو قال موضعاً في هذا المسجد، من صلى فيه فكأنما صلى في بيت المقدس.

قال: فذهب فأراه ما بين الباب الأصفر الذي يخرج فيه الوالي إلى الجنيبة[486] يعني القنطرة بالعربية، وقال: من صلى فيما بين هاتين، فكأنما صلى في بيت المقدس. قال واثلة والله أنه لمجلسي ومجلس قومي[487]. انتهى

وفي يوم الثلاثاء انبعث الشوق بالقلب انبعاثاً، لزيارة من بها من الصحابة السادة، والتابعين والأولياء القادة، فابتدأت بزيارة خولة الصحابية[488]، وثنيت برابعة الشامية[489]،

---

[484] 695 ميلادية

[485] - خرب تيمور لنك دمشق عندما احتلها عام 803 هجري 1400 ميلادي، واحرق دمشق كلها ومعها الجامع الأموي بالكامل في هذه الكارثة، وهي الموجة المغولية الثالثة التي اجتاحت بلاد الشام بعد هولاكو وقازان

[486] - الحنية في مختصر تاريخ دمشق لابن منظور.

[487] يروي هذا الحديث ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق منسوباً إلى نافع مولى ابن عمر وبنت مروان بن الحكم

[488] - يقصد خولة بنت الأزور، وفي الحقيقة لا توجد صحابية بهذا الاسم ولا تذكرها كتب معرفة الصحابة او التراجم، وإنما وردت في كتاب الواقدي المزيف (فتوح الشام) المنسوب للمحدث الواقدي الشهير فكتابه مفقود، والنسخة المتداولة موضوعة في العصر الأيوبي على الأغلب لغايات تعبوية تحريضية والضريح بالتالي هو ضريح مزيف

[489] - ترجمتها في (الدر المنثور في طبقات ربات الخدور) رقم 201، وهي زوجة احمد بن ابي الحواري، ومما جاء في

ثم انعطفت نحو الشيخ أرسلان[490]، ومن بجواره من العلماء الأعيان، ثم ختمت بحضرة ابن دقيق العيد[491] والسلطان صلاح الدين ومحمود الشهيد[492]، فلقد وردت رحاباتهم السنية، وارتويت من مناهلهم العذبة الهنية.

وفي يوم الخميس الأنفس النفيس، توجهت إلى مقبرة الباب الصغير[493]، التي أضحت بمن فيها كالروض النضير، فولجت رحاب سيدنا بلال، ووقفت في مقام الأدب والإجلال، وقرأت الفاتحة والإخلاص، مترجياً من إمداداته حسن الخلاص.

ثم انعطفت لرحاب الصحابي الشهير سيّدنا معاوية الكبير، ثم إلى زوجتي المصطفى أم سلمة وحبيبة، ثم إلى جاريته ميمونة، حيث كانت منهم قريبة، ثم مآثر قبور و جملة من الصحابة، وطائفة من التابعين لتلك العصابة.

فوقفت بساحتهم الشريفة ورجوت إمداداتهم اللطيفة، ثم انعطفت إلى الخلوة راجعاً، ولأنواع الموانح والمسرات جامعاً، فمررت بضريح[494] صهيب الرومي الصحابي

الترجمة: كانت من العابدات الزاهدات، وكان فضلها لا يقدّر وكرامتها لا تنكر . قال احمد بن ابي الحواري :كانت رابعة لها احوال شتى، فمرّة يغلب عليها الحبّ، ومرّة يغلب عليها الأنس، ومرّة يغلب عليها الخوف مسجدها إلى الشرق من الجامع الأموي والشمال من حارة القيمرية على طرف دمشق القديمة

[490] مقبرة الشيخ رسلان تقع قرب باب توما خارج سور دمشق، والشيخ أرسلان الدمشقي التركماني، ويعرفه الناس الان في دمشق بالشيخ رسلان إذ ان له مكانة خاصة لدى الدمشقيين وهو أبو النجم ابن يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد الله اصله من قلعة جعبر. جاء إلى دمشق، وهو من اولاد الأجناد، عرف بالصلاح والزهد، فكان يتعبد اولا في مسجد صغير داخل باب توما وقد حفر فيه بئراً بيده، وكان بيته طبقة صغيرة وإلى جانبها دكان حياكة، وقد صحب ابا عامر المؤدب وتتلمذ عليه في الزهد والتصوف ولما اشترى نور الدين الشهيد المسجد ووسعه، انتقل الشيخ ارسلان إلى مسجد خالد بن الوليد ظاهر باب توما، واقام هنالك إلى أن توفي بعد الأربعين والخمسمائة ودفن في قبته المشهورة التي دفن فيها في الوسط، ودفن في القبر القبلي شيخه أبو عامر. وفي القبر الثالث خادمه أبو المجد. ويقال إن الشيخ ارسلان بنى القبة على شيخه ابي عامر من مال قدمه له بعض التجار. وصف الشيخ بأنه من اكابر مشايخ الشام في الزهد والتقى، وله رسالة مشهورة في التصوف والزهد شرحها شيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري الشافعي، والعلامة شهاب الدين الطيبي، والشيخ علاء الدين بن صدقة، والشيخ عبد الغني النابلسي، وردت ترجمته في تاريخ الاسلام وفي سير أعلام النبلاء للذهبي وفي شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي وغير ذلك

[491] - من الغريب ان يذكر اللقيمي ضريحاً في دمشق لابن دقيق العيد، لأن الرجل مشهور ومعروف انه ولد وتوفي ودفن في مصر في المقطم سنة 702 هجرية، وهو محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري القوصي، ابو الفتح تقي الدين، ابن دقيق العيد احد كبار المجتهدين في العصر المملوكي ويوصف بأنه مجدد عصره غير انه ارتحل إلى دمشق في سنة 660هـ-1261م، وسمع من علمائها لكنه عاد إلى مصر. ترجم له السبكي في طبقات الشافعية والأدفوي في الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، والاسنوي في طبقات الشافعية

[492] - السلطان نور الدين محمود بن زنكي الشهير بالشهيد، ضريحه جنوب شرق الجامع الأموي و غرب شارع دمشق المستقيم المعروف اليوم باسم سوق مدحت باشا.

[493] - مقبرة الباب الصغير اشهر مقابر دمشق واقدمها تقع إلى الجنوب من باب الجابية باتجاه باب المصلى

[494] - ب سيدي

النبيل، السابق المهاجر المسرع بالإجابة لله ولرسوله الجليل، وهو من السابقين الأولين المعذبين في الله، كنّاه المصطفى صلى الله عليه وسلم أبا يحيى، ولم يشهد مشهداً قط إلا وكان حاضره، ولا بايع بيعة إلا وكان حاضرها، ولا غزا غزوة إلا وكان عن يمينه أو شماله، مات سنة سبع أو ثمان وثلاثين [هجرية][495]، وقد مدحه عبد الله بن عمر مع شدة ورعه وحرصه بقوله: نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه. وقد استشكل هذا الأثر، واستعجم معناه المعتبر.

وقد قال ابن هشام في المغني[496]: اشتهر بين الناس الأثر المروي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه، وقد وقع مثله في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي كلام الصديق رضي الله تعالى عنه، وقلّ من يتنبه لهما، فالأول قوله عليه السلام في بنت أبي سلمة: إنها لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي، أنها لابنة أخي من الرضاعة، فإن حلها له عليه السلام منتف من وجهين، كونها ربيبته في حجره، وكونها ابنة أخيه من الرضاعه. كما أن معصية صهيب منتفية من جهتي المخافة والإجلال.

والثاني قوله رضي الله عنه لما طول في صلاة الصبح وقيل له كادت الشمس تطلع، لو طلعت ما وجدتنا غافلين لأن الواقع عدم غفلتهم وعدم طلوعها، وكل منهما يقتضي أنها لم تجدهم غافلين، أما الأول فواضح، وأما الثاني فلأنها إذا لم تطلع لم تجدهم البتة لا غافلين ولا ذاكرين. انتهى

ثم توجهت إلى رحاب الشيخ مسعود، وسيدي محمد الدباس، والشيخ السروجي، والمنلا الياس وأهديت لكل منهما السبع المثاني راجياً بلوغ المنى والأماني، فشهدت لوامع الإسعاد ولوائح العواطف والإمداد. [من الكامل]

يا حبذا يوم الخميس يزورتي	للسادة الأنجاب والأوتاد
برقت بسوحتهم بروق عواطف	منها شهدت موانح الإمداد

وفي يوم الجمعة وقت الصباح، توجهت إلى زيارة مقبرة الدحداح، فمررت في طريقها السنية، بضريح بنت المصطفى السيدة رقية[497]. وبباب المقبرة جماعة من

---

(495) 658 ميلادية

(496) - مغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري، كتاب من مصادر النحو المبسوطة

(497) . هذا الضريح المشهور اليوم في دمشق هو للسيدة رقية بنت الحسين وليس للسيدة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

التابعين الأعلام، والأعمش[498] وأبو شامة الهمام[499]، وبالمقبرة عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وجملة من أهل الحقيقة والتحقيق، ثم وردت جامع بن منجك المسمى بجامع السادات[500]، وإذا به ضريح سبعة من الصحابة القادات، مكتوبة أسماؤهم على باب المقام، فكأنه وهم به باب السلام،. وهم قبيصة العبسي، وكرام ابن حبان العبدي، وحجر بن عدي الكندي، ومحرز بن شهاب التميمي، وضيف بن يشكر الشيباني، وتمام بن عبد الله الزبيدي، وشريك بن شداد الحضرمي، رضي الله تعالى عنهم جميعاً. [من الطويل]

حوى جامع السادات سبع[501] صحابة ... دمشق بهم تزهو فخذهم بتعداد

قبيصة كرّام وحجر ومحرز ... وضيف وتمام شريك بن شداد

حكى الفلك الزاهي بسبع كواكب ... وناظره يزهو بطالع إسعاد

عليهم من الرحمن أزكى تحية ... ورحمة رضوان توالي بإمداد

ثم انعطفت على باب الفراديس[502]، ووردت معهداً سامياً نفيس، به جماعة من الصحابة الأنصار، والسادة التابعين الأخيار، فرفعت إليهم أكف الطلب، بعد أهدائهم بعض ما وجب، ولما انقضت تلك الزيارة، ووافت بحسن القبول بشارة، ثنيت عنان العزم مع السرعة، حرصاً على إدراك صلاة الجمعة، وقبل مفارقة ذلك المقام الرحب، والمشهد

---

[498] - لم اعلم بوجود ضريح او مقام في دمشق للتابعي سليمان بن مهران المعروف بالإمام الأعمش

[499] - ابو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم ابو القاسم المقدسي ثم الدمشقي ولد عام 1202م وتوفي عام 1266م محدث ومفسر وفقيه، ولد في دمشق ونشأ فيها. تولى مشيخة دار الحديث الأشرفية توفي ودفن في دمشق، الروضتين في اخبار الدولتين

[500] - يقع الآن في حي الأقصاب في شارع الملك فيصل خارج باب السلام شمال سور دمشق، ويسمى جامع منجك ومسجد السادات، والمقصود بذلك غرفة فيه مكتوب عليها هذا ضريح سبعة من صحابة رسول الله، وإسماؤهم مدرجة فيها، ويعتقد بعض الباحثين ان المدفونين فيه هم من امراء المماليك، وذلك لأن الصحابة المذكورين مدفونين حيث قتلوا في مرج عذراء على بعد 20 كيلو متراً عن دمشق، وكانوا من اعيان الشيعة والآن ثمة مقام في مرج عذراء شمال دمشق، باسم هؤلاء الصحابة وهم: حجر بن عدي، شريك بن شداد، صيفي بن فسيل، قبيصة بن ضبيعة، كدام بن حيان، عبد الرحمن بن حسان، محرز بن شهاب ولكن ابن عساكر الذي يذكر يذكر انهم مدفونون في مرج عذراء، يعود ليقول في ترجمة حجر بن عدي الكندي انه مدفون في جامع السادات انظر تاريخ دمشق لابن عساكر [2/ 84] ومختصره لابن منظور [6/ 225]، وخطط دمشق للعلبي

[501] - الصواب سبعة ولكن الشاعر حذف تاء التانيث من العدد للضرورة

[502] - احد ابواب دمشق القديمة، والعائد إلى الحقبة البيزنطية، وسمي كذلك لأنه كان يفضي إلى بلدة الفراديس التي كانت تقع في مكان مقبرة الدحداح حالياً، ولكنها دمرت ايام الفاطميين، كما يذكر ذلك ابن القلانسي في الذيل على تاريخ دمشق

السامي المريع الخصب، أنشدت ارتجالاً ثلاثة أبيات، لها بمدحة باب الفراديس حسن التفات. [من الطويل]

ومعهد سادات كرام صحابة غدا يزدهي حسناً بباب الفراديس

وفدنا إليه علّ نُمنَحُ عطفةً بإمداد إسعاد وعطف وتقديس

شهدنا به سحب الفيوض مواطراً ففزنا بتقريب وأُنسٍ وتأنيس

ثم في عصر ذلك النهار، توجهنا إلى باب شرقي[503] المشرق بالأنوار، فزرنا به جماعة من التابعين والصحب، لاسيما حضرة أُبَيُّ بن كعب[504]، فحصل لنا الأنس بتلك الزيارة، ووافى لنا بقبولها من عالم الغيب بشارة، وأخبرني بعض أولي الفضل، والعهدة عليه في ذلك النقل، بكرامة شوهدت في غابر الأزمان، صدرت عن أبي بن كعب عليه الرضوان، وهو أن ممر جنائز النصارى كان تجاه حماه، وليس لهم في دمشق طريق سواه، فإذا جاز النعش ذلك الطريق، ينقلب فيعود الميت وهو على الأرض طريح، فعجزت النصارى عن ذلك، وراموا سلوك غير هذه المسالك، فأخذوا بستاناً بمال كثير، وجعلوه طريقاً خلوصاً من هذا الأمر الخطير.

وقد أخبر بعض الوزراء بهذا الشأن، فلم يصدق إلا بمشاهدة العيان، فتوجه وأمر بجنازة من النصارى تمر عليه، فشاهد ذلك حين وقعت بين يديه، فأذعن لهذه الكرامة السنية، وخلصت منه ببركة الطوية.

قال الإمام المناوي في طبقاته، أفاض الله عليه سحب رحماته: أبيّ بن كعب المنبئ إذا سئل عن الغامض الصعب السيد القاري الخزرجي البخاري العقبي البدري.

كان نحيفاً قصيراً أبيض الرأس واللحية شهد العقبة الثانية وبدراً، وما بعدها من المشاهد، وكان كاتب الوحي وأحد الستة الذين حفظوا القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحد الفقهاء الذين كانوا يفتون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقرأ الصحابة لكتاب الله.

---

[503] - هو الباب الكبير الواقع شرق سور المدينة، وهو اقدم الأبواب واكثرها احتفاظاً بطابعه البيزنطي، وفيه ثلاثة أبواب وبظاهره مقابر ابي بن كعب

[504] - ابي بن كعب بن قيس بن عُبيد النجّار ابو منذر الأنصاري الخزرجي اعتنق قبل الإسلام اليهودية وكان مطلعاً على الكتب القديمة ولمّا اسلم كان في كتاب الوحي شهد العقبة و بدرا وبقية المشاهد وجمع القران في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وكان راساً في العلم وبلغ في المسلمين الأوائل منزلة رفيعة، حتى قال عنه عمر بن الخطاب: ابي سيد المسلمين

وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله أمرني أن اقرأ عليك القرآن فبكى ثم تلا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[505]، وهذه منقبة عظيمة لم يشاركه فيها أحد من الصحابة، وناهيك بمن سماه المصطفى سيّد الأنصار، وسماه الفاروق سيّد المسلمين، وقال له رجل أوصيني، فقال: اتخذ كتاب الله إماماً، وارضَ الله قاضياً وحكماً. وقال ما من عبد ترك شيئاً لله، إلا أبدله الله ما هو خير منه من حيث لا يحتسب. وقال انتصار في سنّة خير من اجتهاد في بدعة. مات بالمدينة ودفن بها سنة ثلاثين، وقيل اثنتين وعشرين، وقيل غير ذلك، قال ابن حجر [العسقلاني] في مختصر التهذيب[506]: وصحح أبو نعيم أنه مات في خلافة عثمان رضي الله عنه. انتهى

وقد علمت نسبته لدفنه في هذا المكان، ويجاب عنه بالجواب في ضريح سلمان.

ثم انعطفنا إلى مقبرة باب الله[507] قبيل الغروب، وقد أمطرت سحب الهنا من سماء الغيوب[508]، فزرنا بها الشيخ الحصني والشيخ العسالي، وجمعاً من أهل الفضل والكمال، ثم رجعنا إلى تلك الخلوة بعد أن أخذنا حظنا من تلك الجلوة.

الصالحية وقاسيون

وفي يوم السبت بعد صلاة الصبح وقراءة الأذكار، قصدنا حمى الصالحية[509] ومن فيها من الأخيار، لنحتسي من كأس شرابهم، ونتمسك بثرى أعتابهم، فمررنا في الطريق على محل يقال له الشهداء[510]، به ثلاثة من الصحابة القادة السّعداء، حرملة بن وائل،

---

[505] - سورة يونس، الآية 58

[506] - هذا الكتاب مختصر مختصر مختصر لكتاب كبير في أسماء رواة الحديث وأحوالهم، فقد ألف الحافظ المقدسي كتابه (الكمال في أسماء الرجال) وأودع فيه أقوال الأئمة في رجال الصحيحين والسنن الأربعة، معتمداً على تواريخ البخاري وكتاب ابن أبي حاتم وكتاب ابن معين ثم جاء الحافظ المزّي فاختصره وسماه (تهذيب الكمال) وجاء الحافظ ابن حجر العسقلاني من بعد، فاختصره وزاد عليه أشياء فاتتهما وهي كثيرة وعقب عليهما، وسمى مختصره: (تهذيب التهذيب) ثم اختصره في كتاب (تقريب التهذيب).

[507] - على الأغلب هي مقبرة القبيبات التي تقع قرب بوابة الميدان نظراً لأن المصادر تشير إلى أن الشيخ الزاهد تقي الدين أبا بكر الحصني الشافعي المتصوف مدفون في مقبرة القبيبات [راجع نزهة الأنام في محاسن الشام لأبي البقاء البدري، باب جبانات دمشق ومن بها من السادات ص 374] ولايوجد مقبرة باسم مقبرة باب الله اليوم بهذا الاسم، وإلى الجنوب من هذه المقابر يوجد حي العسالي الذي نرجح انه مشتق من اسم المتصوف العسالي المذكور.

[508] هذه الجملة ساقطة من ا.

[509] - انشئ حي الصالحية في عهد نور الدين محمود بن زنكي على يد الشيخ ابن قدامة وأهالي قرية جماعين قرب نابلس

[510] في بوابة الصالحية وسط السوق ثمة مسجد باسم جامع الشهداء تذكر لوحة التعريف أسماء ثلاثة من

ومسعود بن جابر، ومساعد، فأهديت لهم الفاتحة واتخذتهم عدة عند الشدايد. [من الوافر]

مقـام يزدهـي سـامي المـشاهد   حلـت منـه المـصادر والمـوارد
مـن الـصحب الكـرام بـه ثـلاث   وهـم مـسعود حَرْمَلَـةٌ مـساعد
فمـن وافـاهم يرجـو نجاحـاً   لـه البـشرى بإنجـاح المقاصـد

ثم قصدنا ضريح ذي التمكين، سيّدي وأستاذي مولاي محي الدين[511]، فوقفت على الباب، واستأذنت في الدخول على ذلك الجناب، وبعد صلاة ركعتي التحية، وإهداء ما ناسب من السلام والتحية، دخلت مرقده الشريف، ووقفت تجاه ضريحه السامي المنيف، ودعوت الله بما أجراه على لساني، ولم أنس من تلك الخطوة إخواني، وأنشدت في ذلك المقام، ووابل الدمع في انسجام. [من البسيط]

عواطـف الـشوق للأحبـاب تلـويني   ودمـع عـيني كـم يجـري بتلـوين
شغفت بالحب من قبل الصبا ولها   حتى اتخذت الهوى في حبهم ديني
تلـون الحـال مـن تمكـين حـبّهم   فأعجب لتلوين حالي حين تمكيني
فالقبض والبسط فيما بيننا قسما   فالبسط يظهرهم والقبض يخفيني
والفـرق عنـهم أراه حـين جمعهـم   وغيـبتي بـشهود الأنـس تـسبيني
إرادتـي تبعـت حقـاً إرادتهـم   أنـا المريـد مـرادي ذاك يكفـيني

الصحابة استشهدوا في فتح دمشق ولكن الأسماء الثلاثة غير معروفة تاريخياً، يصعد للحرم بدرج تقع القبور في جهته الجنوبية الشرقية و للحرم سقف خشبي مسنم ينزل إلى غرفة الأضرحة بدرج حيث توجد ثلاثة قبور مستطيلة مبنية من الحجر الرخامي كتب على الأول الصحابي مساعد والثاني الشهيد الصحابي جابر بن مسعود والثالث الشهيد الصحابي حرملة بن وائل، وتطل القبور على شارع بوابة الصالحية بثلاث نوافذ قوسية

[511] ولد ابو بكر محمد بن عربي الحاتمي الطائي، في مرسيّة جنوبي إسبانيا ستة 560 هجرية [1165م]، لقب بالشيخ الأكبر، وكني بمحي الدين، نشأ في إشبيلية، وتلقى علومه الأولى فيها، وقضى ابن عربي حياته حتى عام 595 هجرية [1198م] بين شتى مدن الأندلس وشمال إفريقية في مقابلة المتعبدين وكان احياناً يعقد المناظرات مع الجماعات المختلفة، كالمعتزلة وقد اتسع نطاق سفره حتى بلغ تونس، كما زار المريّة ايضاً، وكانت مركزاً لابن مسرّة وهناك على حد قول آسين بالاثيوس: (بدا ابن عربي رسمياً دراسة التصوف) في عام 598 [1198م] هاجر ابن عربي إلى الشرق وبدات فترة جديدة في حياته، فحج إلى مكة، حيث شرع في تأليف الفتوحات المكية، وبعدها طاف في مدن الشرق العربي كالقاهرة والموصل وبغداد، وحلب، ودخل في مجادلات مع الفقهاء عرضت حياته للخطر. واخيراً قرر ابن عربي في سنة 609 هجرية [1223م] ان يستقر في صالحية دمشق، بعد ان طبقت شهرته العالم الإسلامي قاطبة، وتوفي في دمشق سنة 638 هجرية [1240م]، فوري ثرى الصالحية عند سفح قاسيون شمال دمشق، في تربة ابن الزكي

وشاهد الوجد في أطوار موردهم ... حقيقة في بقاء الحب تفنيني

وكلما قربت مني مشاهد هم ... جلال أنوارهم بالبعد يقصيني

ذهلت كوني مذ لاحت بوارقهم ... فحيرتي من مقام القرب تدنيني

رجوت وصلاً وخفت البعد يورثني ... عنهم سلوا وما الهجران يسليني

رضوا ببعدي ونأيي الدار إذ غضبوا ... حسبي فإن الذي يرضون يرضيني

طربت من عذل عذالي ولومهم ... لما غدا الذكر للأحباب يشجيني

رجت طوامح أمالي بقربهم ... ري اتصال لبعد كان يظمني

باحوا بسري وكتمان الهوى شرف ... عن نار وجدٍ بها الأشواق تصليني

سوامح الفكر كم تبدو لوامحها ... وما دروا أن كتم السر ينجيني

مظاهر الحب والعشاق قد كثرت ... في عين وحدتها من غير تعيين

فخذ حديث هيام صح مسنده ... فالسهد عن مدمعي بالوجد ينبيني

إن يقتضي سوء حظ عن بلوغ منىً ... فنجب مدحي لمحيي الدين تدنيني

مولى لديه يد التحقيق قد كشفت ... حجب الحقيقة عن أنوار تبيني

فحلّ من مبهمات[512] القول مشكلها[513] ... حتى تبدت بتصحيح البراهين

ختم الولاية قطب الكون نور هدى ... مطالع النجم من علياه تهديني

نص النصوص بها كم اجتلى حكماً ... جلاؤها من سقام الرين يشفيني

وفي مسامره الأخيار حسن سنا ... ضياؤها من ظلام الغي ينجيني

وكم له في فتوح الفتح مكرمة ... من لي سواه بفيض الفيض يسديني

فقد تركت السِّوى مذ شمت حضرته ... فلمحة لمقام القرب تدنيني

وافيت نحو الحمى سعياً أطوف به ... ففي منى عرفات القرب يفنيني

فجد بفيض نوال سح وابله ... عساك من ظمأ الأشواق ترويني

---

(512) - ب مشكلات

(513) - ب مبهمها.

فلـي ثبـوت غـرام لم يـزل أبـداً | لـه اتـصال بكـم مـن قبـل تكـويني
حيـا ضـريحك روح بالرضـا نفحـت | تهدي عبير الشذا عن مسك دارين
مـا هـيج الـشوق ذا شـوق وفارقـه | أو غـــرد الـــورق في دوح بـــتلحين
أو أســـعد لامــــه واش فأنــــشده | عواطـف الـشوق للأحبـاب تلـويني

ثم توجهنا إلى زيارة ذي النفس القدسي، العالم الرباني مولانا الشيخ عبد الغني النابلسي[514]، قدس سره الرحمن، وأمدنا بمدده الفائض الهتان. فوقفت ببابه الرفيع، ولذت بجنابه المنيع، ووكفت بالدموع سحائب الجفون، حيث لم أدركه قبل احتسائه كأس المنون، فطالما كنت أعلل النظر، بشهود محياه، وأرجي الفؤاد الشجي بطيب لقياه، فعاقتني قيود الموانع، ولم يسعفني مظهر اسمه الجامع. [من البسيط]

مولاي يا عبد الغني يا سيّد النجبا | حاولت قدماً بأن أحدو لك النجبا
وأطـو نـشر فيـافي البيـد مفتربـا | حتـى أكـون لـدى عليـاك مقتربـا
فـسوفت بـي الأمـاني غـير صـادقة | وان داعـي الأمـاني طـال مـا كـذبا
حتـى دعتـك المنايـا فاسـتجبت لهـا | مـولىً إلى جنـة الفـردوس مختطبـا
ولم أشـاهد محيـاك المـضيء سـناً | لـسوء حظـي الـذي درك المنـى حجبا
فهيجـــتني دواع لا انفكـــاك لهـــا | لنحـو مـشهدك الحـاكي شـهود قبـا
إذا ذاك كعبـة أمـن الخـائفين ومـن | وافـاه يحظـى منـاه والـذي طلبـا
ســارت بـسيرتك الركبـان منـشدة | مـدائحاً زركـشت بـل توجهـت كتبـا
كـم مـن عـرائس أفكـار كـشفت لنـا | عنـها القنـاع وكانـت قبـل خلـف خبـا
شـرح الفتوحـات إذ وضّحت مُشكلها | طلاسمـــاً لكنـــوز تحتـــوي عجبـــا
وللفـصوص نقـوش ضـمنها غـرر | إكـسير فـضلك فيـضاً حلـها ذهبـا
وقفـت في بابـك المرفـوع منتـصباً | فإنـــه بـــاب جـــود للمنـــى نـــصبا

[514] - توفي الشيخ عبد الغني النابلسي في 26 شعبان 1143 هجرية، 6 اذار 1731 ميلادية، اي قبل وصول اللقيمي إلى دمشق بحوالي ستة اشهر، وهو من مواليد دمشق عام 1050 هجرية، 1640 ميلادية شيخ صوفي كبير ورحالة لا يشق له غبار ترك الكثير من الآثار.

عساك أسعد بالإسعاد تمنحه مـوانح الفيض حتى يبلغ الأدبا

ثم توجهنا لسفح قاسيون لنروي حديث شجون المشحون، فسفحت عيوني على سفحه، حين هبت علينا نفحة من نفحه، فشرعنا في صعود الجبل الأقدس الأنفس، فنودينا لن تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، فامتطينا صهوته الرفيعة، وارتقينا ذروته المنيعة، متوسلين بمن به من الأنبياء والمرسلين، والصحابة الكرام والتابعين، أن يكشف عنا سحائب الأوهام، ويجعلنا من أهل الخصوصية بهذا المقام. فوصلنا إلى مغارة الدم، ويقال لها مغارة الأربعين، حيث قتل قابيل وبها آثار الدم بالتعيين.

وهو محل عليه الأنوار ساطعة، ولوائح الإجابة بجوانبه لامعة، فعن أبي زرعة قال: سألت أبا مسهر عن خبر مغارة الدم، فقال مغارة الدم موضع الجمرة موضع الحوايج، يعني بذلك الدعاء فيها والصلاة.

وعن كعب الأحبار أنه موضع الحاجات والمواهب من الله عز وجل، فإنه لا يرد سائلاً في هذا الموضع.

وعن هشام: لقد صعدت مع أبي وجماعة من أهل دمشق نسأل الله عز وجل السقيا، فأرسل الله عز وجل علينا مطراً غزيراً حتى أقمنا في المغارة التي تحت الدم ثلاثة أيام، ثم دعونا الله أن يرفع عنا وقد رويت الأرض. انتهى

فرفعت أكف الطلب والدعا في ذلك المقام والمدّعى. وأنشد لسان الحال، على البديهة والارتجال: [من البسيط]

مغارة الدم في قاسيون مشرقة نوراً بها لذوي الحاجات ميقات

فانزل بسوح حماها داعياً أبداً عسى توافى من المولى إجابات

فأقمنا بها نحو أربع ساعات نحتسي كأس الأنس والمسرات، وكان القصد المبيت بها مع الأحباب، فلم يتيسر ذلك لعدم تيسر الآراب، فنزلنا والعين تتأمل تلك السفح والربوع، إلى أن وصلنا إلى محل يقال له مغارة الجوع[515]، قيل إنها بها أربعين من الأنبياء والكرام، قضوا بها على ما ذكره بعض الأعلام. فقرأنا ما تيسر من القرآن، وأهديناه لجنابهم الرفيع الشان، ثم ودعنا السفح والصالحية بسلام، وتوجهنا بعد الظهر إلى الشام.

---

(515) - في السفح الشرقي لجبل قاسيون مغارة الدم التي تعرف اليوم بمقام الاربعين، وهو مكان مشهور، يزوره الناس وبالقرب من مغارة الدم توجد (مغارة الجوع) التي ذكرها الشعراء كمأوى للمضربين عن الطعام من الانبياء والمتعبدين، وعندها حي الجوعية ومقبرة الجوعية

قبر الست زينب

وفي يوم الأحد حين لاح وجه الصباح الوسيم، وفاح أرج الصبا بمعطار النسيم، قصدنا زيارة قبر الست[516]، واحتفينا السرور من الجهات الست، فتوجهنا مع أعزة وأحباب، نؤم فسيح الرحاب، فوردنا ساحتها البهية، واستمددنا من مواهبها العلية، فوجد على الضريح مكتوب، ما هو مبشر ببلوغ المطلوب: [من البسيط]

هذا مقام شريف لا نظير له	فللرجال غياث فيه والحرم
ما مد عبد يديه للإله به	إلا ونال الذي يرجوه من كرم

فالتمس مني بعض الرفاق الكرام، أن أشطرهما حالاً بهذا المقام، فابتدرت ممتثلاً لإجابته، وأمرت القلم أن يكتب فأجاب من ساعته: [من البسيط]

هذا مقام شريف لا نظير له	إذ فيه بنت عليّ الطاهر الشيم
يمم حماه إذا ما خفت معضلة	فللرجال غياث فيه والحرم
ما مد عبد يديه للإله به	إلا وعاد بحظ وافر القسم
وما أتى مرتجي الإحسان مفتقراً	إلا ونال الذي يرجوه من كرم

ثم سنح لي أن أمدح جنابها الكريم، بقصيدة تشوق السامع لها للزيارة وتهيم: [من الكامل]

روض به ورق السيادة تعرب	تنبي عن الحسن البديع وتغرب
طلعت شموس العز في أرجائه	فلها شروق في علاه ومغرب
برقت بروق الأنس حول حمائه	وهمى سحاب بالمسرة صيّب
وتبسمت في دوحه زهر الهنا	وسما سماه بالسعادة كوكب

---

[516] - في قرية راوية من قرى مرج دمشق يقع قبر السيدة زينب، وقد غلب اسم القبر على اسم القرية ذكر مجموعة من المؤلفين والرحالة مقام السيدة زينب في ضاحية دمشق وغوطتها الشرقية ومن أولئك المؤلفين ابن جبير وابن بطوطة وياقوت الحموي وخير الدين زركلي ومحمد كردعلي ووصفي زكريا. وغيرهم ويقول المتولون على هذا المشهد بأن المدفونة هنا هي السيدة أم كلثوم الكبرى زينب بنت الإمام علي بن ابي طالب، رضي الله عنه، اخت الإمام الحسن والإمام الحسين، وأمهم السيدة فاطمة الزهراء بنت محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وانها زوجة ابن عمها عبد الله بن جعفر بن ابي طالب، وان سبب دفنها هنا هو قدومها إلى دمشق من المدينة مع زوجها سنة المجاعة ايام عبد الملك بن مروان أو لسبب اخر. وأن هذه القرية كانت ملكاً لزوجها. ولما ماتت دفنت فيها. وتحدث خير الدين زركلي في كتابه (الأعلام) ما قائلاً: السيدة زينب توفيت عام 65 هـ حضرت مع اخيها الإمام الحسين معركة كربلاء، وحملت إلى الكوفة، ومنها إلى دمشق

وافى النسيم لحيه متعطراً — لما شذا منه العبير الأطيب
تتروح الأرواح منه بعرفه — وبورد مورده يطيب المشرب
يا سعد إن وافيت ذياك الحمى — وبدا لك الروض البهي المخصب
قف ساعة وانظر له متأملا — وانشق أريجاً بالصبا يتطيب
ثم التثم أعتابه واخضع له — واجري جفوناً بالمدامع تسكب
وادخل إلى الحرم السعيد فإنه — حلت به شمس المحاسن زينب
بنت البتول سمت بطه جدها — فلفخرها جمع المفاخر تنسب
هي بضعة نبوية علوية — أعظم بها نسب شريف طيب
منها سحاب الفيض يهمي بالعطا — لموانح عنها الهنا يتسبب
حسن البلاغة قاصر عن مدحها — لو أنه دوماً يخط ويكتب
فاقصر نظام المدح أنت مقصر — من ذا الذي زهر الثواقب يحسب
يا سعد هيا للمقام فإنني — فحمى حماها في الرحاب مقرّب
وافيتها أبغي اجتناء موانح — فوجدت منها ما يسر ويطرب
بشرى لأسعد إذ حظي بزيارة — ذيل السرور بها عليه يسحب
يهدي سلاماً بالمديح مدبجاً — يزهو به عقد النظام ويعجب
وسقا الحمى صوب السحاب برحمة — طول الزمان بحصيها يتصبب
ما لاح نجم أوزها بمحاسن — روض به ورق السيادة تمرب

وزرنا الشيخ مدرك حيث هو منها قريب، وتملينا بذاك المربع الخصيب.

قرية المنيحة

ثم انعطفنا إلى قرية المنيحة[517] سائرين، وبحصول المنح والمواهب مستبشرين، نؤم المورد العذب الأحلى، حيث به ضريح جدنا الأعلى، الصحابي الجليل سيد الخزرج

---

[517] تلفظ الآن المليحة وهي قرية في غوطة دمشق الشرقية، وفيها مقام منسوب للصحابي سعد بن عبادة الأنصاري ولكن ثمة مقام آخر في قرية الشيخ سعد في محافظة درعا، وهي من الأماكن التي وقعت فيها معركة اليرموك مع البيزنطيين، وحسب سيرة سعد بن عبادة فقد استشهد في معركة اليرموك

السادة، مولانا سعد بن عبادة، فحين وقفت ببابه، ولثمت ثرى أعتابه، أنشدت في الحال معلناً، لنصف بيت مضمناً: [من الكامل]

وافيــت ســعداً بالمنيحــة زائــراً ... ووقفــت بالأعتــاب وقفــة لائــذ

أبــدي الــضراعة مــستجيراً عائــذاً ... مــن جــور دهــر لا يــزال منابــذي

ورفعــت صــوتي في حمــاه منــشداً ... هــذا مقــام المــستجير العائــذ

وأنشدت تالياً[518]، ولعنان التضمين ثانياً:

لمــا أتيــت حمــاكم متــذللاً ... ووقفــت بالأعتــاب وقفــة لائــذ

فــسئلت مــا هــذا المقــام أجبتــهم ... هــذا مقــام المــستجير العائــذ

ثم وردت حما حماه البهيج، ودخلت دوح روضته الأريج، فبشرني وارد الإلهام بنجح أمري، حيث انشرح بتلك الزيارة صدري، فبعد قراءة ما تيسر من القرآن العظيم، وإهدائه لعالي جنابه الكريم، رأيت مكتوباً تجاه مقامه، ما ينبئ عن علو مقامه: [من المجتث]

يــا ســعد أســعد وافــي ... يرجــوك يــا ابــن عبــاده

فعــسى ينــال منــاه ... فــشوقه لــك قــاده

فــإن مــن أمّ يومــاً ... حمــاك نــال مــراده

ولما طاب لي المقام برحابه، وجاد الوقت بقربه واقترابه، أنشدت لجنابه مادحاً، وبحسن شمائله صادحاً: [من الكامل]

مــن أم ســعداً بالمنيحــة يمــنح ... ولديــه أبــواب المعــارف تفــتح

ولــه تلــوح مــن الغيــوب بــشائر ... تــروي أحاديــث القبــول[519] وتــشرح

فبــسوحه ثغــر الهنــا مبتــسم ... وبدوحــه ورق البــشائر تــصدح

وبروضــه الزاهــي الأريــج نــوافح ... مــن نــشرها أرج الريــا يتفــوح

تــتروح الأرواح مــن أنفاســه ... ولــه عيــون أولي النــهى تــتلمح

أعظــم لــه بمناقــب ومفــاخر ... ومــآثر عنــها البخــاري يفــصح

مــولى تــشرف بــالنبي صــحابة ... وببيعــة العقبــا نقيبــاً ينــصح

---

(518) - ا وب ثانياً.

(519) - ا الفؤاد.

شـهد المـشاهد غـير بـدر وإنـه ... منـها لـه سـهم المثوبـة يـرجح
وغدا بيوم الفتح حامل راية الأنصـــــار والنـــصر المنـــاهج يفـــتح
ورث المكـــارم كـــابراً عـــن كـــابر ... فبجـوده الخـبر الـصحيح مـصرح
فهـو الجـواد بـن الجـواد بـن الجـوا ... د بـن الجـواد أخـو الغيـاث المـنجع
ولنحـو أرض الـشام وافـى مقـبلاً ... بعـد الـنبي هـدي الـشريعة يوضـح
فرمـاه رامـي الجـنّ منـه بـسهمه ... فقضى كما هـو في الطـروس مصرّح
سـحت عيـونٌ رحمـةً لمـصابه ... وغـدت عليـه بالمـدامع تـسفح
أهـدي إليـه مـع الـسلام تحيـة ... طابـت شـذا فالمـسك منـه يـنفح
لي منـه أسـنى نـسبة قدسـية ... عـن غـانم وهـو المليـك المفلـح
يممـت نحـو رحابـه متـشوقاً ... وعيـون قـصدي للمـوانح تطمـح
ووقفـت بـالأبواب وقفـة لائـذ ... والمـرء يهـدى للـصواب فـيفلح
مـا لي سـوى قـصد الزيـارة متجـر ... فلـي البـشائر متجـر مـستريح
وبـه انتـهيى بـي الـسير غـير مـذمم ... فإليـه مـن أمّ المقاصـد يـنجح
وجعلـت زورتـه اختتـام سـياحتي ... لكـن بحـسن ختامهـا اسـتفتح

وبعد صلاه الظهر بذلك الرحاب، هبت علينا فوائح نسيمه المستطاب، فعرجنا خلف المقام، وكحلنا العيون بميل المنام، ثم بعد الانتباه احتسينا من الأنس كؤوساً، وحلينا بحديثه القديم نفوساً، فكم له من منقبة وردت بها الأخبار، وناهيك إذ كان أحد النقباء وحامل راية الأنصار، وأما منهجه في الكرم، فأشهر من نار على علم، قال الحافظ بن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة في معرفة الصحابة: سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الأنصاري، سيد الخزرج، شهد العقبة[520] وكان أحد النقباء، وكان يكتب بالعربية ويحسن العوم والرمي، فكان يقال له الكامل، وكان مشهوراً بالجود، هو وولده وجده وأبوه. وكان لهم أطم[521] ينادي عليه كل يوم من أحبّ اللحم والشحم فليأت أطم دليم بن حارثة، وكانت جفنة سعد تدور مع النبي صلى الله عليه وسلم في بيوت أزواجه.

[520] - ا و ب العقبا والمقصود بيعة العقبة
[521] - مكان مرتفع

وعن ابن عباس:كانت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم في المواطن كلها مع علي، وراية المهاجرين. ومع سعد بن عبادة راية الأنصار. وروى الإمام أحمد من طريق محمد بن سعد بن زرارة بن قيس بن سعد : زارنا النبي صلى الله عليه وسلم في منزلنا فقال: السلام عليكم ورحمة الله، الحديث وفيه، ثم رفع يديه فقال اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة، وكان سعد يقول اللهم هب لي مجداً، اللهم إنه لا يصلحني القليل ولا أصلح عليه. وعن محمد بن سيرين كان سعد بن عبادة يمشي كل ليلة ثمانين من أهل الصفة، وخرج إلى الشام في خلافة أبي بكر، ومات بحوران سنة خمس عشرة، وقيل إن قبره بالمنيحة قرية بدمشق بالغوطة. انتهى

وفي نهاية التقريب[522] ان سعداً شهد العقبة مع السبعين من الأنصار في روايتهم جميعاً، وكان أحد النقباء الاثني عشر، وكان يحث الأنصار على الخروج لبدر، فنهس [نهسته أفعى]، فتخلف، فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره ولم يثبت، شهد الخندق وأحد والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومناقبه وفضائله كثيرة جداً، ولم يختلف في أنه وجد ميتاً وأحضر جسده، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلاً يقول ولم يروا أحداً: [مجزوء الرمل]

قد قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة

رميناه بسهمين فلم تخطئ فؤاده

ويقال إن الجن قتلته، له ذكر في غير موضع من الصحيحين، وروى له الأربعة. انتهى باختصار... (الإحياء)

عن جابر قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً وأمر عليهم قيس بن سعد بن عبادة، فجهدوا فنحر لهم قيس تسع ركائب، فحدثوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الجود من شيمة أهل ذلك البيت. انتهى

سمعت خاتمة المحدثين شيخنا العلامة عبد الله بن سالم البصري[523] عام مجاورتي بمكة سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف[524] يقول: إن قيساً بن سعد كان أطلس،

---

(522) - نهاية التقريب وتكميل التهذيب، لتقي الدين محمد بن فهد المكي المتوفى سنة 871 هجرية

(523) - الشيخ عبد الله بن سالم بن محمد بن سالم البصري محدث شهير، ولد بمكة ونشا في البصرة صدر عنه كتاب للعربي الدائز الفرناطي عن دار البشائر بدمشق

(524) 1720م - 1721م

فقال قومه وددنا له لحية ولو بنصف أموالنا، وكان سعد لا يتزوج إلا بكراً، وإذا طلق زوجته لم يتجاسر أحد يتزوجها بعده لشدة غيرته وشرفه، وورد أنه صلى الله عليه وسلم خرج إلى قباء لصلح بني النجار، فقدم سعد، فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأنصار وقال قوموا لسيدكم. انتهى

وليس هذا من القيام المنهى عنه. وقال أبو داوود في سننه في باب قيام الرجل للرجل: حدثنا موسى بن إسمعيل حدثنا حماد عن حبيب بن الشهيد عن أبي مجلز قال: خرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر وجلس عبد الله بن الزبير، فقال معاوية لابن عامر اجلس فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار.

قال شارحه ابن رسلان[525]: أي يقومون له قياماً وهو جالس. يقال: تمثل الرجل يتمثل تمثلاً إذا انتصب قائماً، وإنما نهي عنه لانه من زي الأعاجم كما سيأتي في كلام المصنف، ولأن الباعث له الكبر وإذلال الناس له بأن يمثلوا قياماً بين يديه طول جلوسه.

فالنهي هنا ليس للقائم للإكرام، بل للذي يقام له فنهى عن سروره بما يفعل له لما فيه من رؤية المنزلة له في نفسه. ثم قال المصنف عن أبي أمامة قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئاً عصىً، فقمنا إليه، فقال لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً. قال الشارح المذكور والمراد بالأعاجم فارس والروم، بدليل رواية مسلم إنما يفعلون فعل فارس والروم، يقومون على ملوكهم وهم قعود، فلا تفعلوا. ومنه النهي عن قيام الغلمان والأتباع على رأس متبوعهم الجالس لغير حاجة، لأنه من أفعال المتكبرين وأما القيام للوالد والفضلاء إذا دخلوا فليس من هذا كما دلت عليه الأحاديث. انتهى

برزة

ولما انقضى ذلك المجلس النفيس، بذلك المعهد السامي الأنيس، انتهزنا في الوقت نهزة، ويممنا قاصدين قرية برزة[526]، فوردنا حماها بعد العصر، وراية المسرة تخفق بالنصر، فصلينا بها الصلاة الوسطى، ورجونا من وافر الأجر قسطا، ودعونا الله تعالى

---

[525] - (شرح ابن رسلان على سنن ابي داود) لأحمد بن حسين بن علي بن يوسف بن علي بن ارسلان، وهو تلميذ ابن حجر العسقلاني

[526] - برزة الآن حي من أحياء مدينة دمشق يقع في الجهة الشمالية الغربية من المدينة، وما يزال مقام إبراهيم الخليل في جبل برزة يزار حتى اليوم

بحصول الإنابة، فإنه من المواطن المشهورة بالإجابة. قال ابن عباس: وُلِدَ إبراهيم بغوطة دمشق في قرية يقال لها برزة، في جبل يقال له قاسيون.

وعن حسان بن عطية قال: أغار نبط ملك هذا الجبل على لوط فسباه وأهله، فبلغ إبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم ذلك، فأقبل في طلبه في عدة أهل بدر، ثلثماية [ثلاث مائة] وثلاثة عشر، فالتقيا[527] في صحراء القعود، فعبى إبراهيم ميمنه وميسرة وقلباً، وكان أول من عبى الحرب هكذا، واقتتلوا فهزمهم إبراهيم واستنقذ لوطا وأهله، وأتى الموضع الذي ببرزة وصلى فيه واتخذه مسجداً.

وعن الزهري أنه قال: مسجد إبراهيم صلى الله عليه وسلم في قرية يقال لها برزة، فمن صلى فيه أربع ركعات خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، ويسأل الله ما شاء فإنه لا يرد خائباً.

ولما حسن من النهار الختام، رجعنا للمبيت بمدينة الشام.

متنزهات دمشق

وفي صبح يوم الأربعاء ذا التهاني، غرة ربيع الثاني[528]. دعاني بعض الأعزة الأحباب، للتنزه بدوح[529] المرجة[530] المستطاب، فأجبت دعوته امتثالاً، ولسان الحال ينشد ارتجالاً: [من البسيط]

انهض إلى المرجة الفيحاء مبتهجاً	ونزه الطرف في أرجاء دوحتها
أما بها الروضة الغناء قد جليت	جلي المليحة في ورديْ حلّتها

فوردنا حماها الزاهي البهيج، وانتشقنا شذاها الزاكي الأريج، ولاحت لنا لوائح النجاح، بزيارة ابن عساكر[531] وابن الصلاح[532]، فوردنا سوحهم الزاهي الأنفس،

---

(527) - ا و ب فالتقا.

(528) 3 تشرين الأول 1731.

(529) - ا بدوحة

(530) - ساحة المرجة الآن من اشهر ساحات دمشق وتعد مركز المدينة، وقد انشئت في اواخر العصر العثماني تكريماً للامبراطور الألماني غليوم، الذي زار الأراضي المقدسة، واقيمت على شرفه مجموعة من المباني والشوارع في دمشق والقدس، منها ساحة المرجة، والمرجة متنزه قديم ذكر في العصر المملوكي بهذا الاسم

(531) - هو علي بن الحسين بن القاسم الدمشقي محدث الشام ومؤرخها المشهور بمؤلفه التاريخي الضخم الذي وضعه قديماً في ثمانين مجلداً، ولد عام 499هـ ورحل كثيراً في طلب العلم ثم توفي في دمشق عام 571هـ [1175م]، ودفن بمقبرة الباب الصغيرة شرقي قبر معاوية

واستمددنا مددهم الوافي الأقدس، ثم لما استحلينا من الزمان مزّة، تشوقنا إلى التوجه إلى قرية المزّة[533]، حيث بها الصحابي الجليل، سيدنا دحية المتمثل به جبريل، لأنه سما من الحسن رتبة سنية، والشبه في الصورة لا في الحقيقة الذاتية فقد أخرج الحافظ السيوطي في جامعه، عن ابن سعد في الطبقات[534] عن الشعبي مرسلاً: دحية الكلبي يشبه جبريل.

قال المناوي في شرحه: هو الصحابي القديم المشهور، شهد مع المصطفى مشاهده كلها بعد بدر، وبايع تحت الشجرة، وكان جبريل يأتي المصطفى غالباً على صورته، فإنه كان بارعاً في الجمال يضرب به المثل فيه، بحيث كان إذا دخل بلداً برز لرؤيته العواتق من خدورهن، وفيه جواز تشبه الملائكة بغيرهم، وهذا الشبه إنما هو للصورة كما تقرر، ولا شك أن الصورة المذكورة أخص بالمشبه، فلا يرد أن المشبه به يجب يكون أقوى. انتهى

فوردنا ناديه النادي، وبشير القبول ينادي، فدخلنا مقامه الشريف بعد الاستئذان، وقرأنا ما تيسر من القرآن، ورفعنا أكف الدعاء والطلب، راجين نجح المقاصد والأرب، ولما احتسينا كأس مسرة بالأنس طفح، واجتلينا عرائس العواطف واللطائف والمنح، أنشدت صادحاً ولجنابه مادحاً: [من الكامل]

لمقام دحية قد سريت صباحاً	فوجدت في حسن المسير نجاحا
ونشقت من أرج الرحاب نوافحاً	لما شذا عرف العبير وفاحا
ودهشت من ذاك الحماء ونوره	ورشفت من كأس المسرة راحا
صادفت في أرجائه طيب الرجا	ولقيت من حسن القبول فلاحا
وشهدت من فرط السرور مظاهراً	تقصي الهموم وتذهب الأتراحا

---

(532) - يذكر البدري في (نزهة الأنام في محاسن الشام) [ص 382] أن ضريح ابن الصلاح يقع في مقابر الصوفية مع ضريح ابن تيمية، وابن المبارك وقبر ابن الصلاح الشهرزوري قائم إلى الآن داخل مبنى كلية طب الأسنان خلف مشفى التوليد قرب قبر ابن تيمية وهو الحافظ عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى بن ابي النصر الشهرزوري الكردي الشّرخاني، ابو عمر، تقيّ الدين.

(533) المزة الآن من أكبر أحياء مدينة دمشق، وكانت بلدة تبعد عنها بضع كيلومترات فيما مضى، وقد ذكرها الادريسي بوصفها ضيعة من الضياع المحيطة بدمشق والتي تشبه المدن

(534) - الطبقات الكبرى لابن سعد كتاب مرجع في علم التراجم وضع المجلد الأول والثاني منه في السيرة النبوية، ومن كان يفتي بالمدينة ومن جمع القرآن الكريم، وبعد ذلك تكلم في تراجم الصحابة ومن بعدهم من التابعين وبعض الفقهاء والعلماء يذكر اسم المترجم له ونسبه وإسلامه ومآثره وما ورد في فضله في ترجمة مطولة وقد بلغ عدد الأعلام الذين ترجم لهم 4725 علماً.

لا بدع أن نروي أحاديث الصبا — بمشارق الأنوار عنه صحاحا

نجم الصحابة في سماء مشاهد — فجماله الزاهي سنا قد لاحا

ذو مظهر بالحسن أشرق وجهه — يحكي سناه كوكباً وضاحا

فلذا الأمين أتى بصورة ذاته — للمصطفى بالوحي منه صراحا

مولىً تسامى بالمكارم قدره — من أمَّه ألفى لديه رياحا

فإذا رجوت من الإله عواطفاً — هيا ويمم روضه الفياحا

تلقى زهور غصون أنس أينعت — فاقطف حبيت البسط والأفراحا

ثم انتشق عرف القبول مضوعاً — عرفا شذاه ينعش الأرواحا

ولقد أتيت لبابه مستعطفاً — أرجو بفيض الغيض من سماحا

لا أنثني عن بابه دوماً ولا — أبغي على قرب الزمان براحا

فاعطف وجد واسمح بحسن مبرة — لفقير حال قد غدا ملتاحا

فعواطف الإمداد منك موانح — يلفي بها أهل الصلاح صلاحا

فإليك أهدي بالسلام تحية — رفعت لها بالخافقين جناحا

وسحائب الرضوان من أفق العلا — تغشى المقام عشية وصباحا

ثم توجهنا إلى الربوة والمنشار[535]، وعز المقسم[536] للسبعة أنهار، فارتوى القلب بسلسالها، وروي حديث الشهد عن عسالها، وسرحنا الطرف في تلك الأدواح، وشرحنا الصدر بمروّحات الأرواح، وانتشقنا شذا عرف الزهور، وانتعشنا بصفاء مياه النهور، وشربنا من المسرات حالي صرفها، على مطربات الحمائم بجنكها ودفها[537]، فهناك أنشد لسان الصب وأقسم، على حسن هذه المشاهد بالربوة وعن المقسم: [من الكامل]

قسماً سما حسناً بصدق المقسم — بالربوة الفيحا بعز المقسم

الشام يزهو بالمشاهد حسنها — فلها بسامي الحسن فضل تقدم

ففياضها قد وشحت بأزاهر — ورياضها أهدت لطيف تنسم

---

[535] - اعلى الربوة يسمى المنشار لأنه صخرة كبيرة تشبه المنشار تطل على الربوة

[536] وسط الربوة حيث ينقسم نهر باناس او بنياس عن بردى

[537] - الجنك والدف من متنزهات الربوة القديمة

وبـدوحها ورق الحمـام صـوادح ببـديع ألحـان ولطـف تـرنم

فبمائهـا ورياضـها وهوائهـا وقيانهـا للـصب حـسن تـنعّم

واتخذت بعض الصحاب أنيسا، وصعدت وإياه إلى مهد سيدنا عيسى[538]، حيث اختبأ فيه من اليهود الحائزين مكراً وغياً، وبه اختبأ إبراهيم والياس ويحيى، وبه صلى جماعة من الأنبياء الكرام، عليهم أفضل الصلاة والسلام.

ففي كتاب أبي الحسن الربعي في فضائل دمشق ما نصه: عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله رجل عن الإمارات بدمشق، فقال بها جبل يقال له قاسيون فيه قتل ابن آدم آخاه، وفي أسفله في الغرب ولد إبراهيم، وفيه أوى عيسى بن مريم وأمه من اليهود، وما من عبد أتى معقل روح الله فاغتسل وصلى ودعا لم يرده الله خائباً، وفيه احترس يحيى بن زكريا من هدار رجل من عاد، وقد احترس الياس النبي عليه السلام من ملك قومه، وفيه صلى إبراهيم ولوط وموسى وعيسى وأيوب، فلا تعجزوا في الدعاء فيه. وعن كعب الأحبار أنه قال إنه موضع الحاجات والمواهب من الله تعالى لا يرد سائلاً فيه. انتهى

فصلينا به صلاة الضحى، وقد زال عن القلب حرف الهم وانمحى، ورفعنا أكف الدعاء بذاك المقام، راجين التوفيق وحسن الختام: [من الكامل]

يـا حبـذا المهـد الأنـيس فإنـه سـامي المقـام سـنا وزاهـي المشهد

فمطـالع الأنـوار مـن آفاقـه تـدعو الـسراة إلى عـذيب المـورد

فـارفع بـه كـف الـسؤال مرجيـاً حسن القبـول وطيـب نجـح المقـصد

قلعة دمشق

ثم ثنينا العنان إلى نحو المدينة، إلى أن وصلنا إلى القلعة الحصينة، فدخلنا حمى حرمها الأمين، برداء الأدب والسكينة متوشحين، وقصدنا زيارة الصحابي الجليل أبي الدردا[539]، وأدينا له من آداب الزيارة ما يؤدى، وقرأنا ما تيسر من الكتاب العظيم، واهديناه لجنابه العالي الكريم، ورجونا لمحة من لمحاته، وتشرفنا لنفحة من نفحاته، عسى

---

(538) - الموقع المفترض لمهد عيسى في غار بأعلى الربوة ما يزال موجوداً حتى الآن

(539) - مسجد وضريح الصحابي (أبو الدرداء) في الجانب الشمالي من قلعة دمشق قرب نهر بانياس

نشتفي بحكمه البهية، ونتيقظ بمواعظه السنية، فكم له من مواعظ وحكم، تشرح الصدور وتنفي السقم. [من الكامل]

حكم سمت فيها لطائف حكمة ... تشفي فؤاداً دائم الحسرات

ومواعظ منها القلوب تنبهت ... وتيقظت من رقدة الغفلات

قال المناوي في الطبقات: همعت عليه سحائب الرحمات: أبو الدرداء عويمر بن زيد الأنصاري، العارف المتفكر، العالم المتبحر، العامل المتذكر. داوم على العلم استباقاً، وأحب العمل اشتياقاً، تفرغ من الهموم، ففتح المفهوم، فصار حاجب الحكم والعلوم.

وكان رضي الله عنه حكيماً لبيباً، ونحريراً طبيباً، كلامه يكنز، ومواعظه تعزز، وكان أكبر عبادته التفكر والاعتبار، ويفضل بذلك على غيره من الأخيار، وكان يقعد إلى القبور، فقيل له فيه، فقال: أجلس إلى قوم يذكّرونني معادي، وإذا قمت من عندهم لم يغتابوني. وقال له بعضهم: أوصني، فقال له: اذكر الله في السراء، يذكرك في الضراء، وإذا أشرفت على شيء من الدنيا فانظر إلى ماذا يصير. وقال: لأن أقع من فوق قصر فأتحطم، أحب إلي من مجالسة الأغنياء. ومر بقوم يبنون فقال تجددون الدنيا والله يريد خرابها والله غالب على ما أراد. وقال موعظة بليغة وغفلة سريعة: كفى بالموت واعظاً وبالدهر مفرقاً، اليوم في القصور وغداً في القبور. وقال لا يزال العبد يزداد من الله بعداً كلما مشى خلفه.

ومن شعره: [من الوافر]

يريد المرء أن يعطى مناه ... ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتي ومالي ... وتقوى الله أفضل ما استفادا

ولما احتضر جعل يقول: من يعمل لمثل يومي هذا؟ من يعمل لمثل ساعتي هذه؟ من يعمل لمثل مضجعي هذا؟ ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾. مات سنة اثنتين وثلاثين. انتهى باختصار

فنسألك اللهم يا ميسر الأمور، وكاشف الهم وشارح الصدور، أن تنبهنا من سنة الغفلات، وتهيئنا لتوارد النفحات، وترفع عنا سحب الأوهام، وتمنحنا التوفيق وحسن الختام.

دار الحديث الأشرفية

ثم أسرعنا بالسير الحثيث إلى أن وصلنا دار الحديث[541] التي كان الإمام النووي[542] بها يحدث عن المصطفى، فكم أطلع بها مشارق الأنوار بحديث الشفا، وناهيك دليل شرفها السامي الأثير، ما أنشده الإمام السبكي الكبير، قدس الله سره، وجعل في غرف الجنان مقره: [من الوافر]

وفي دار الحديث لطيف معنى	على بسط لها أصبو وآوي
عسى أني أمس بحر وجهي	مكاناً مسه قدم النواوي

قال ولده في طبقات الشافعية، حباه الله بالدرجات العلية، في ترجمة الإمام المذكورة، ذي القدر العالي والفضل المشهور: يحيى النووي الشيخ الإمام العلامة محي الدين أبو بكر زكريا شيخ الإسلام أستاذ المتأخرين، وحجة الله على اللاحقين، والداعي إلى سبيل السالفين، كان يحيى رحمة الله سيّداً وحصوراً، وليثاً على النفس هصوراً، وزاهداً لم يبال بخراب الدنيا إذ صير دينه ربعاً معموراً.

له الزهد والقناعة، ومتابعة السالفين من أهل السنة والجماعة، والمصابرة على أنواع الخير بحيث لا يصرف ساعة في غير طاعة. هذا مع التفنن في أصناف العلوم فقها ومتون، أحاديث وأسماء رجال ولغة وتصوفاً وغير ذلك، وأنا إذا أردت أن أجمل تفاصيل فضله وأدل الخلق على شرف مقداره لم أزد على بيتين سمعتهما من الشيخ الوالد رحمه الله لما سكن في قاعة الحديث الأشرفية، في سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة[543]، كان يخرج في الليل إلى إيوانها فيتهجد تجاه الأثر الشريف، ويمرغ وجهه على البساط الذي كان الإمام النووي يجلس عليه وقت التدريس، وينشد: وفي دار الحديث، البتين [السابقين].

قال المناوي: وكان يقرأ كل يوم اثني عشر درساً، وكان لا ينام الليل، ويكتب حتى تكل يده ويعجز، ثم يضع القلم وينشد:

---

(541) - هي دار الحديث الأشرفية الجوانية اي التي تقع داخل سور دمشق، لأن بانيها الأشرف موسى ابن الملك العادل شقيق صلاح الدين الأيوبي، بنى داراً للحديث في سفح قاسيون أسمها دار الحديث الأشرفية البرانية ودار الحديث الجوانية هي التي درّس فيها الامام النووي والسبكي وابن الصلاح، وابو شامة وابن خلكان والفارقي وابن كثير وغيرهموعلى ذلك فهي كانت جامعة كبرى لعلوم الحديث

(542) - هو الإمام الحافظ شيخ الإسلام محيي الدين ابو زكريا يحيى بن شرف بن مُرّي بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حِزام، النووي نسبة إلى نوى، وهي قرية من قرى حَوْران، ثم الدمشقي الشافعي، شيخ المذاهب وكبير الفقهاء في زمانه. ولد في المحرم 631 هـ في قرية نوى وتوفي فيها سنة 676 هـ

(543) - 1341م- 1342م

إذا كان هذا الدمع يجري صبابة   على غير سلمى فهو دمع مضيع

واستمر على هذه الحال حتى هجمت عليه المنية قبل بلوغ الخمسين، وصرّح بعض أهل الكشف أنه لم يمت حتى تقطب[544]، وكان يضرب به المثل في الورع، مات سنة ست وسبعين وستمائة[545] ودفن بنوى[546] رضي الله عنه. انتهى

فتشرفنا بلثم ثرى ثمارهم، وشنفنا السمع بدرّ أخبارهم، وبسطنا أكف الطلب رجاء الاثابة والتوفيق، فإنه لا شك من مواطن الإجابة على التحقيق: [من الكامل]

دار الحديث تشرفت بمآثر   قد أثبتت بمسلسل الأخبار

طلعت بها شمس الحديث وأشرقت   أرجاؤها بمشارق الأنوار

فلكم بها راوي الصحيح ومسند   له عن قتاد وسادة أخيار

ناهيك بالسبكي الهمام وشيخه   يحيى النواوي سامي المقدار

فارفع بها كف السؤال مرجياً   شرح الصدور ومنحة الأبرار

قطوف من المكتبة الأشرفية

ثم أطلعني السيد محمد الأدهمي المحب الحبيب، على جزء من تذكرة العلامة الصفدي الأديب، فإذا هي روضة ذات أفنان، ومنهل عذب سائغ للظمآن، تشتمل على ملح ومستظرفات، وتحتوي على مفاكهة ومستغربات، فأحببت أن أوشح هذه الرحلة من حليّ أزهارها، وأرشحها بقطرة من مسلسل أنهارها. فمما أستحسنته منها، وبالسند رويته عنها، رسالة لأبي عثمان الجاحظ وهي:

رأيت فلاناً ينفض يده منك وأنت تصادره على وصله، وكفى بالإعراض حاجباً، وبالانقباض طارداً، ومن وقف في الأذن لك فقد حجبك، ومن تنكر عن حكاياتك فقد كذبك، ومن مطلك ولو ساعة فقد حرمك، ومن حظر سره عنك فقد اتهمك، ومن تمنى فقدك فقد قتلك، ومن صادق عدوك فقد عاداك، ومن عادى عدوك فقد والاك، ومن أقبل بحديثه على غيرك فقد طردك، ومن شكر إليك سواك فقد سألك، ومن سكت عند مدح الناس فيك فقد ثلبك [عابك]، ومن بلغك الذم فقد شتمك، ومن استمهلك في

---

[544] - اي اصبح قطباً صوفياً.

[545] - 1277 م – 1278م

[546] - من قرى حوران الغربية، وهي بلدة كبيرة تضارع المدينة

الجواب فقد هابك، ومن أجرى ذكرك عند من لا يأمنه عليك فقد اغتابك، ومن نقل إليك فقد نقل عنك، ومن شهد لك بالباطل فقد شهد عليك، ومن وقع لك في أخيك فقد وقع له فيك، ومن مدحك بما ليس فيك فقد هجاك بما لا يعلمه منك، ومن أحبك لغير شيء فقد بغضك لغير شيء، ومن أحسن إليك فقد استعان بالزمان عليك، فإن شكرته جازاك عنه، وإن كفرته جازاك دونه، ومن ألح عليك في سؤاله فقد طرق لك إلى حرمانه، ومن أمرك بما لا تطيق فقد أفتاك بعصيانه. جعلتك سهمي فيها، وأعطيتك ما أعطيت منها، فكن شفيعي إلى أذنك حتى تسمعها، وشفيع أذنك إلى قلبك حتى يفهمها، وشفيع قلبك إلى نفسك حتى تعمل بها والسلام.

والرسالة المعروفة بالنيرين وهي:

يقبل الأرض بين يدي الملك الرحيم سلطان الملاح، وقطب فلك الحسن والعدل والسماح، مالك الرقاب، وسالب الألباب، أجرى الله بالعدل أقلامه، وقرن بالنصر أعلامه، وأدام سلطان جماله بمحمد وآله، وينهي أنه عبد مظلوم محروم لا مرحوم، ظلمه صفي مولانا ووزيره، ووليده ومحبه ونصيره، بصّره الله بسوء أفعاله، وأعانه على صلاح حاله، وذلك أنه كان قد استأجر من العبد بستاناً عامراً زاهراً لا غامراً، مخضراً نضراً لا تفنى ثماره، ولا تُعرى أشجاره، ولا تجف أنهاره، صحيح التقسيم طيب النسيم، شتاؤه كمصيفه، وربيعه كخريفه، فيه من فنون الأفنان صنوان وغير صنوان.

وهذا البستان يعرف بالقلب من أعمال الجسد، المسلوك إليه من الجهات الست بالحواس الخمس، ويحيط به ويشتمل عليه حدود أربعة: فالحد الأول ينتهي إلى مراعاة الحقوق، ومجانبة العقوق. والحد الثاني ينتهي إلى الشوق المقلق، والزفير المحرق. والحد الثالث ينتهي إلى مكابدة الأشجان، وممارسة الأحزان. والحد الرابع ينتهي إلى الطريق، التي بها يختبر كل صديق.

وفي هذا الحد مشرع باب ذلك بجميع حدوده وحقوقه، الداخلة فيه والخارجة منها. فمنها العين التي لا تبصر إلا باختياره، والأذن التي لا تسمع إلا بإيثاره، واللسان الذي لا يترجم إلا عن آثاره. وجميع الجوارح على اختلافها وتباين أوصافها وأصنافها. استأجر ذلك كله منه مدة سنين متوالية، وأيام متتالية، أولها تاريخ نشء هذا البستان، وأخرها انقضاء الزمان، بأجرة مبلغها من العين نظرة إليه، وسلام عليه، وتقبيل لكفه وقدميه، يؤدي ذلك إلى المؤجر المسكين، في كل حين، من غير مدافعة ولا ممانعة، ولا منازعة ولا مخادعة.

وأقر المستأجر المذكور أنه مَليٌ بذلك وفيٌّ به قادر عليه وتسلم من ما استأجره، وصار ذلك في يده وقبضته وتصرفه. ثم إن المستأجر المذكور أهمل أمر هذا البستان، ورماه بالهوان فما سقاه من ماء الوصال، ولا حماه من وحوش الملال.. فاستقلع واستخرب، واستعجم بعدما استعرب. وذوت أشجاره، وناءت أطياره، فزهد في عمارته، ورغب في فسخ إجارته، فهل يجوز له أن يتسلمها عامراً ويردها غامراً، قد تبدل بعد حمائمة بالبوم. وبعد فواكهه بالزقوم. لا والله لا أرضى بهذا الحكم، ولا أصبر على هذا الظلم، وكيف وعدل مولانا قد شمل أقطار العراق، وانتشر في ساير الآفاق: [من الكامل]

وإذا ظلمت ولي بكم متعلق	فعلى علاكم لا على العار[547]

وكتب الصلاح الصفدي إلى التقي السبكي الشافعي. [من الوافر]

تقي الدين يا قاضي البرايا	ويا رب النهى والألمعيّه
ويا من راح أثنيتي عليه	تضوع كمثل فطرته الزكيه
أهز إليك منك بجذع علم	فوائده تساقط لي جنيّه
لأنك لا تسامى في علومٍ	نزلت بها منازلك العليه
ونظمك نظم مصريٍ طباعاً	حلاوته لذلك قاهريه
ودابك فتح باب النصر حقاً	وغيرك شغله بالباطليه
أفدنا إننا فقراء فهم	لما تملي فضائلك الغنيه
تقرر أن فعالاً فعولاً	مبالغتان في اسم الفاعليه
فكيف تقول فيما صحّ منه	وما الله بظلام البريه[548]
أيعطي القول إن فكرت فيه	سوى نفي المبالغة القويه
وكيف إذا توضأنا بماءٍ	طهور وهو رأى الشافعيه
أزلنا الوصف عنه بفرد فعل	وذاك خلاف راي المالكيه
فأوضح ما أدلهم علي حتى	تغادرني على بيضا نقيه
فإن يدجو ظلام الشك مني	فذهنك ذو قناديل مضيه

---

(547) - كلمة ناقصة في الأصل

(548) وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ [فصلت: 46]

ودم للمشكلات تميط عنها ... أذى فهم لأذهان صديه

فأجاب [معارضاً]: [من الوافر]

جلوت علي ألفاظاً جليه ... وسقت إلي أبكاراً سنيه
ونظمت الكواكب في عقود ... فأزرت بالعقود الجوهريه
وأبدعت المسيّر في نظام ... فما لمسيّر عندي مزيه
لآلٍ مثل بدر التم نوراً ... ولكن في النهار لها مضيه
حلاوتها تخالط كل قلب ... ومن حشو وحوشي نقيه
أتت من حافظ الآداب طراً ... وقلبي مغسرم بالحافظيه
وتعزي للخليل فما فوادي ... يميل هوى لغير السكريه
فهمت بما فهمت من المعاني ... ولم أظفر بنكتتها الخفيه
لأن العجز مني غير خافٍ ... وما لي في العلوم يد قويه
تأنف صاغة الآداب مني ... وما لي للإجابة صالحيه
ومن جاء الحروب بلا سلاح ... كمن عقد الصلاة بغير نيه
فخذ ما قد ظفرت به جواباً ... فما أنا قدر فطرتك الذكيه
فظلام كبزاز وأيضاً ... فقد يأتي بمعنى الظالميه
وقد ينفي القليل لعلة في ... فوائده بنص الأكثريه
وقد ينحى به التكثير قصداً ... لكثرة من يضام من البريه
وأما قوله ماء طهور ... ونصرته لقول المالكيه
فجاء على مبالغة فعول ... وشاع مجيئه للفاعليه
وقد ينوي به التكثير قصداً ... لكثرة من يروم الطاهريه
وأيضاً فهو يغسل كل جزءٍ ... ولاءً وهو رأي المالكيه
فخذها من محب ذو دعاءٍ ... أتى منه الروى بلا رويه
له فيكم موالاة حلت إذ ... أصول الود منه قاهريه

فــإن مـــرت إذا مـــرت فعفــواً ... فــإن الــستر شــيمتك العليّــه

فمرســل شــعره مــا فيــه طعــمٌ ... يجــاب بــه القــوا في الــسكريه

وكتب العلامة الشهاب محمود إلى العلامة علاء الدين بن غانم المقدسي ملغزاً: [من الطويل]

ومــا اســم خماســي جميــل رواؤه ... لــه منظــر يزهــو بــه وشمــيم

ألــذّ مــن المسك الفتيــق إذا ســرى ... بأنفاســه عنــد الــصباح نــسيم

بقايــا نــضارٍ في ســداهن لؤلــؤ ... تركــب منــها الــدر وهــو نظــيم

إذا الروضــة الغنــاء أبدتــه خلتــها ... سمــاءً عليهــا مــن حــلاه نجــوم

كــلا طرفيــه اســم صــحيح وقلبــه ... عليـــل ولا قلـــب لـــه فيهـــيم

ورب جنـــاح لا ظلـــيم تخالـــه ... فيعـــدو ولا طـــيراً يـــرى فيحـــوم

متــى تلــق خمسية فباقيــه إن تــشا ... ففــى الجــو أو بــين النجــوم مقــيم

فبينــه لي مستقــصياً مــا رمزتــه ... فأنـــت بحـــل المــشكلات علـــيم

يا مولانا هذا اللغز إن شممت رياه خلته عبيراً. وإن عكسته بعد إسقاط خمسية ألفيته وإن لم يعاشر الفرزدق جريراً، فهو بكماله معيّر المسك بأنفاسه، ويفتح وسطه مثنى ما دل على مسماه ثلاثة أخماسه، وإن حططت أعجام أوله عن رتبته، وجعلت الضمة مكان ما استقر من لزوم فتحته، كان مع اسقاط خمسيه ثمراً حلواً، منه ما يصفر حسناً ومنه ما يحمرّ زهواً، أو اسم بلد يزار ساكنه، وترتاح له قلوب مريديه وإن لم ترق مساكنه، وليس الغرض بحله غير تنزيله، ولا المطلوب من إجمال الجواب غير تنزيله، والله يطيب ذكرك، ويوزع السنة الأقلام شكرك، فكتب له الجواب: [من الطويل]

أيــا عالمــاً بــالعلم منــه وبالنــهى ... وبالفــضل كــل العــالمين علــيم

ومــن فــضله قــد عــم شــرقاً ومغربــاً ... ففــي القــرب منــه والبعــاد عمــيم

وأنــى نقــس وامــرؤ القــيس مثلــه ... كـــلام نـــثير دره ونظـــيم

لعبــد الــرحيم الفــضل قــدما وإنمــا ... حــديثك لم يلحقــه منــه قــديم

بعثــت بلفــظ كالنــسيم لطافــة ... ومــا مثلــه في اللطــف قــط نــسيم

والغــزت في اسـم راق شمــا ومنظــراً ... يــسرّ بــه وقــت الــصبوح نــديم

متى ما تصحف منه حرفاً وثانياً　　　فشهر تراه في الخلائق روم

يرى في ألم نشرح بتصحيف بعضه　　　وتحريفه منه تزول هموم

لعل إله الخلق يرحم خلقه　　　ويدركهم باليسر فهو رحيم

يا مولانا أدام الله تعالى لك الأيام، وأمتع بحياتك وحسناتك جميع الأنام، هذا اللغز في اسم إذا صحفت خمسيه الأولين مع التحريف كان اثنين من البشر، وإذا أسقطت خمسيه الآخرين فهو به نسر، وإذا فاخت روائحه زادت على طيب عرف الأزهار، وإذا حذف حرفه الأخير كان لنا من مهمات السفر في الليل والنهار، فإن ظهرت حقيقته بهذا الكلام، وإلا فالمملوك بعيد عن حله والسلام.

ومن نثر ضياء الدين بن الأثير رحمه الله تعالى:

ومما سمحت لي به الأيام، وما أقول إلا أنها غفلة والغفلة تحت المنام، وذلك أني أصحرت على حكم الارتياد، وخلوة الانفراد، في يوم متأرجح الصبا، متبرح الوهاد والربا، سماؤه بأجنحة الفواخت محجوبة، وقطره في أعناق الأغصان درر ولكنها غير مثقوبة، والجو قد برز في حلته الدكنا، ولو كان للحسناء مثلها لازدادت في ملاحتها حسنا، والأنهار قد سلّت بأيديها كل غضب صقيل، صيغ فضة بيد الضحى وذهباً بيد الأصيل، والأغصان كأنما خلقت منابر لخطباء الحمام، وصورت أوراقها محاجر لدموع الغمام، وخرطت أزهارها مجامر للمندل الرطب، وقدر أقحوانها فماً لمؤشر الثغر العذب، والطير ما بين متطلع من ركنه وقائم على غصنه، من كل مفوف الطيلسان، ذي طوق يزهو على طوق العقيان. [من الطويل]

يصلن بنوحي نوحهنّ وإنما　　　بكيت بشجوي لا بشجو الحمائم

فبينما طرفي يسرح في محاسن الروض وبدائعه، وطرفي يتخير مسارح رعي ومراتعه، إذ دخلت حديقة قد سقاها النعيم ماءه، وألبسها نعماءه، ففيها ملهى للناظر والسامع، ما بين مفرد وساجع، وأحمر قانٍ وأخضر ناضر وأصفر فاقع، وما أقول إلا أنها خلقت في الأرض، وقيل استدلوا بها على جنة السماء وبعض الأشياء يدل على بعض، فلما دخلت قلت الحمد لله، والحمد هو آخر دعوى أهل دار السلام، وشوقتني إلى اختها في الآخرة فأخذت في اكتساب الحسنات واجتناب الآثام، ولما طوفت بها لم يكن بأسرع من أن وثب النرجس وثبة الريم من كناسه، نافضاً عن جفنه سنة نعاسه، وقال أنا عيون الرياض الناظرة، وزهراته الناضرة، بي يوصف تضعيف الأجفان، وأنا البشير بمقدم طيب الزمان.

فنهض لمبارزته الأقحوان، بمرهفي سيف وسنان، وقال أيها المفتخر بما ليس فيه، الراعي زرعاً ليس بواديه، بماذا أتيته على خلطائك وتشرف على نظرائك؟ وأنت لا تزل منكوس الرأس، وأنت أعجمي الاسم والعجمة ضرب من الالتباس، ولولا خبث طويتك لما كثفت، ولو لم يلحق بك الماء لذبلت وتلفت، ولا تستخدم إلا صاغراً قائماً، ولا تزال لهفان هائماً، وأما أنا فحسني حسن البداوة ولا حسن للحضارة، ولا أحتاج لما يحتاج إليه النبت من النفخة المستعارة، ألا ترى أنك تنتقل من الصحراء إلى البستان، ولولا ذلك لم تكسب طيب العرف ولا تضعيف الأجفان.

فلما أنهى الأقحوان مشاجرته، وأثبت مفاخرته، وثب الشقيق لكفاحه، ونشر محمر جناحه، وقال أردت أن تتقدم فتأخرت، وظننت أنك تفخر فما فخرت، غاية ما عندك أن تشبه بالثغور، وكفاك سوأة أن تشبه بعظام أهل القبور، لكن أنا المصبوغ بدم القلوب الشارب دمع الغمام المسكوب.

عن بهجتي تتحدث الزهرات	وإلى احمراري تنسب الوجنات
فانظر إلى المحمرّ ثم تأمل المسودّ فيه كأنه خالات	

فنهضت له زهرة بدوية الانتساب، لا تهوى في غالب أمرها إلا سكان القباب، فقالت هلاّ وقفت بمكانك، وميزت بين شأن غيرك وشأنك، الست الضعيف النية، القريب المنيّة، تأتي والربيع يختال في حلل الإعجاب، فتأذن لعمره بالانقضاب[549]، لكنني أنا الذي ناسبت السماء بزرقتي، وأرجت الأرض بطيب عبقتي، ولزمت أهل الوبر، أنفة من أهل المدر. [من الخفيف]

وإذا ما أستطيب ريح زكي	شبهوه بريحتي تعظيما
أنا صبح الأزهار ومسا دو	ني تراه العيون ليلاً بهيما

فاندلق البنفسج حنق الأوداج، وانقض انقضاض الكوكب الوهاج، وقال أيتها الساكنة بمساكن الشيح والقيصوم، التي لا يعلم لها مقام في المفاخرة حتى يقال وما منا إلا له مقام معلوم، هل أنت إلا ريحانة المشققي الكعاب، البوالين على الأعقاب، تنشق عنك البيدا، لتوعك الطبيعة الصيدا، فقد حرمت ريف العراق وطيب نسيمه، ومنعت مقارنة الحضرة ونضرة نعيمه، فلا تضحى إلى مباهلة الرياحين، ذا أمل متطاول، فأين الثريا من

---

[549] - بالانقباض

يد المتناول، ولكن أنا حبيب النفوس، وتاج الرؤوس، والعطر الموضوع في الجيوب، واللون الذي يشبه عذار المحبوب.

فأقبل الورد في جنوده، خافقة السنة عذباته وبنوده، محمر الوجنات من الغضب، منكراً على البنفسج ما جناه من سوء الأدب، فجال في ميدان المفاخرة وصال، وهتف بالبنفسج وقال: [من الكامل]

أعلى يفتخر البنفسج جاهلاً ... والي يعزى كل فضل يبهر

وأنا المحبب للقلوب زمانه ... وبمقدمي أهل المسرة تفخر

كيف أطعت هوى نفسك الإمارة، حتى افتخرت بحضرة الإمارة، ألست صاحب الاسم المعجم، والبرد الذي ليس بمعلم، بيتاً ترى ناضراً، إذ يرى الطرف عنك نافراً، وهل لك فخر إلا أن تشبه بالغدار إذا بقل، وبالكبريت إذا اشتعل، ولم تحظ من الوصفين إلا بالصيت المذموم، لأن هذا إحراق النار وذاك تسويد الخد الملثوم، على أن بعض البلغاء ذكر تشبيهك بالعذار، ونزع عنك خلقة هذا الثوب المعار، فقال: [من الكامل]

ومهفهف لما بدا في خدّه ... شبه البنفسج وانطفى توريده

غم البنفسج حين شوه خلقه ... وغدا على مبيضه تسويده

لكن أنا أيامي أيام الأفراح، ومراوح الأرواح، لا يشرف الربيع إلا بورودي، ولا تشبه خدود الغيد إلا بخدودي، ولا تطرب النفوس إلا بمجاورتي، ولا تطيب الكؤوس إلا بمحاورتي. [من الطويل]

فمن ذا يضاهيني يوسف فضيلة ... وفضلي على كل الرياحين ظاهر

زماني على الأزمان بي متشرف ... وفخري لمن يبغي التفاخر قاهر

ولم أزل من الأزهار ففي سؤال وجواب، وأنا منصت إنصات التعجب لمفاخرات الإعجاب، حتى سمعت صوت هاتفة ورقاء، على بانةٍ حضراء بلسان فصيح، وقلب بفرقة الأحباب قريح، وقد أذنت على غصنها الرطيب ومالت، وأعلنت بما أسرته من وجدٍ وقالت: [من الرمل]

اذكرونا ذكرنا عهدكم ... ربّ ذكرى قربت من نزحا

أذكروا صبا إذا غنى بكم ... شرب الدمع وعاف[550] القدحا

---

(550) - أ فاح.

لقد حزتم حد الادكار، ولم ينج أحدكم من ثعطات العثار، هب أنكم نزهة العيون، وزينة الأفنان والفنون، فهل أنتم إلا أعشاش أفراخنا، ومواضع أوساخنا، وأعواد خطبائنا، وأرائك أمرائنا، ومهود أبنائنا، ومستور نسائنا، رؤوسكم محط أرحلنا، وهاماتكم نعال أرجلنا، ونحن نسبح بحمد ربنا، بالألسن الناطقة، والأفواه الرائقة.

فلما سمعت كلام الحمائم هممت بالانصراف من حيث أتيت، لأخبر بما سمعت ورأيت، إذ أقبلت غمامة تمشي لثقلها مشى الرداح، ويكاد يلمسها من قام بالراح، وما أظلمت إلا أضاء البرق في جوانبها فتمثلت ليلاً في صباح، فلم يزل البرق يأخذ في أذهاب ردائها، والرعد ينذر بإبدائها، وهي تلقي على الأرض ما حملته في أحشائها، وتنشئ به خلقاً آخر بقدر مسيرها بإنشائها، ثم قالت يا ذوات البكاء والنوح، المفتخرات على الأيك والدوح، الستم الباكين بغير جوى، الشاكين بغير هوى، قلوبكم خاشعة، عيونكم غير دامعة، منكم عرف اختلاف الباطن والظاهر، وقد أعرب عن ذلك قول الشاعر:

وهاتفة في البان تملي غرامها	علينا وتتلو من صبابتها صحفا
ولو صدقت فيما تقول من الأسى	لما لبست ثوباً ولا خضّبت كفا

لكن أنا مخرج الأرض من موتها إلى نشورها، ومظهر ما في بطونها إلى ظهورها، وقد نطق بحالي الكتاب العزيز: و﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[551]. فبينما الغمامة تطلق لسانها، وتذكر إحسانها، إذا عارضتها الشمس فخرجت من أثوابها، وبرزت من حجابها، وقالت: هذه منة على الأرض أنا أولى بها، فشيمتك أيها الغمامة البكاء من غير حزن، والحنين من غير فراق ولا سكن، ولكن أنا عروس الفلك الدوّار، ومربية الأزهار والثمار، ومصلحة ما أفسده تتابع الأمطار.

فلما رأيت النزاع بينهم لا ينقطع مجاذبة حبله، وأن كلاً منهم لا يسلم لصاحبه ما يدعيه من فضله، قلت لهم إن الله عند لسان كل قائل، والرجوع إلى الحق أولى من التمادي على الباطل، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، واعلموا أنه قد جاءكم مخلص كريم، ألم تعلموا أن جامع هذه الأوصاف كلها مولانا السلطان الملك الأشرف، مظفر الدين موسى الذي سعيه مشتق من لقبه، وسبقه إلى المعالي سبق الذي منتم إليه من نسبه، فهو الممدوح بكل لسان، الذي حظي بشبيبة العمر وشيبة السلطان. [من البسيط]

---

(551) - سورة الحج، الآية رقم 5.

تراه مستغنياً عن مدح ممتدح غنى الظباء عن التكحيل بالكحل

تلوح في غرة الأيام دولته كأنها ملة الإسلام في الملل

فاعترف الربيع بنضارة أخلاقه، والنسيم بطيب أعراقه، والغمام بجود يمينه، والشمس بضوء جبينه، وأقرت الأطيار له بالثناء، وقالت لا أتغنى إلا بمدحه وأطيب المدح ما اشتبه بالغناء. فلما اعترف الجميع لأنفسهم بالنقص وله بالمزيد، وقالوا جاء زهر معقل بطل نهر يزيد، تمثلت عند ذلك بقول القائل: [مجزوء البسيط]

وليس على الله بمستبعد[552] أن يجمع العالم في واحد

انتهى

أنشد أبو هلال العسكري: [من الطويل]

وخط من التصحيح فيه معالم وللحسن إذ يبدو عليه نسيب

يعبر عنه الروض وهو منمنم ويخبر عند الوشي وهو قشيب

سواد مداد في بياض صحيفة تقول شباب بالمشيب مشوب

كأن ظلام الليل أذرى دموعه فظلت على خد الصباح تصوب

وللمصنف: [من الوافر]

ورب حمامة في الدوح باتت تجيد النوح فنا بعد فنّ

أقاسمها الهوى مهما اجتمعنا فمنها النوح والعبرات مني

وله أيضاً: [من الخفيف]

لا تقيسوا الحمامة حزناً إن فضلي تدري به العشاق

أنا أملي الغرام عن ظهر قلب وهي تملي وحولها الأوراق

وله أيضاً: [من الوافر]

أرى ورقاء ذات شجى وشجو لها هتف غدا سبباً لهتكي

تقول أما خلقنا يا مُعنّى سوي أني أنوح وأنت تبكي

وله أيضاً: [من الكامل]

أحباب قلبي إن تطاول بيننا أمد الفراق حكيت من أشواقي

---

[552] . ا و ب بمستنكر.

ورقـاء فارقهـا القـرين فأرسـلت　　　منـــها بـــديع الـــسجع في الأوراق

انتهى ما اخترته من النكات الأدبية، من جزء التذكرة الصفدية، ولمناسبة الأبيات المتقدمة في الحمائم، التي هي لنحور البلاغة عقود تمائم، أعجبني بيت في المقامة الأثيرية، يسير لسامعه الأشجان اليعقوبية، وهو: [من الطويل]

يـــصلن بنـــوحي نـــوحهنّ وانمـــا　　　بكيـت بـشجوي لا بـشجو الحمـايم

فضمنه بيتين لطيفين صار بهما محلى الطرفين. [من الطويل]

تــروم تحــاكي النــوح مـني حمــائم　　　تنـوح بقلـب في الهـوى غـير هـائم

يـــصلن بنـــوحي نـــوحهن وانمـــا　　　بكيـت بـشجوي لا يـشجو الحمـائم

وهيهـات أن تحكـي شـجوني صـبابة　　　وأنّـى لهـا سـفح الـدموع الـسواجم؟

محاسن دمشق

وقد كنت خلال تلك الزيارات، وتفيؤ ظلال الأنس والمسرات، اجتلي محاسن دمشق البديعة، وأتحلى بشهد مشاهدها الرفيعة، فإنها قد توشحت بوشاح الجمال، وتزينت بعقود البهاء والكمال، وناهيك بجوامعها الجوامع، ومدارسها الزاهية اللوامع، وحماماتها الحسنة ورياضها، ومنتزهاتها البهجة وغياضها. وأسواقها الظريفة الكيان، وعماراتها المشيدة البنيان، وتقسيم مياهها أحسن تقسيم، على الأماكن بالضبط والتسهيم، ودوام الفواكه والثمار، والمحمضات والخضراوات والأزهار، وتيسير أسباب التعيش والمعاش، وتيسير مسببات التريش والرياش، وتنعماتها الدانية القطاف، وكم وكم لها في منهج الحسن أوصاف. [من الوافر]

دمــشق الــشام في وصــف تــسامت　　　فكـم يحـوي رباهـا مـن محاســن

بهـــا الأزهـــار دانيـــةً قطافـــاً　　　كـــذا الأنهـــار مـــاء غـــير آســـن

فكم سرحت الناظر في مدرسة وجامع، لاسيما المسجد الأموي الذي هو للحسن جامع، وشرحت الخاطر ببعض منتزهاتها الحسان، المضاهية والمحاكية فراديس الجنان، وتروحت بشذا عبير أزهارها، وتفكهت يجنى يانع ثمارها، وتنعمت بأحسن حماماتها، التي عذب ماؤها، وحسن للصب بها هواؤها، ومررت بأسواقها المحكمة البنا، وتحليت بمشاهدها التي ليس عنها غنى، واجتليت من آفاقها شموس عبّاد، فاقوا في السيادة

ملوك عباد، ورويت القلب من ظمأ الجهد والآلام، باجتماعي بأفراد من علمائها الأعلام. [من الكامل]

سرّحت في وادي دمشق نواظري ... وشرحت صدري باجتلاء مشاهد

وتروح القلب العليل بسادة ... حازوا العلا بمدارس ومعابد

وتنعمت مني الحواس بقربهم ... فمصادري فيها حلت ومواردي

الحنين إلى الوطن

وأنا مع ذلك اتقلب على بسط التهاني، وأرتع في رياض الأمن والأماني، لا أتفكر في الانتقال، ولا يخطر مني السفر ببال. فبينما أنا في روضة طاب بها المقيل. متفيء بفيء ظلها الظليل، انتشق نسيم الشفا من صبا رَوحها، وأقتطف زهور الصفا من ربا دوحها، إذ سمعت صوت ورقاء على فنن، بعثت الذكري وحركت الشحن، فحنوت لأحبتي ومربع أوطاني، وحننت إلى جيرتي ومرتع أخداني، فحين أذكرتني الحمى والمرابع، أنشدت مضمناً البيت الرابع: [من مجزوء الكامل]

صب يبوح[553] بما اكن ... فالسر والنجوى علن

لا تعجبوا من شجوه ... إذ ما نفى عنه الوسن

قد هاجه جنح الدجى ... ورق تنوح على فنن

أهدت له الذكرى شجن ... فحنى وحن إلى الوطن

وهمت سحاب جفونه ... شوقاً إلى الوجه الحسن

فتحركت منى الخواطر بالرجوع، وتراسلت سحب الأجفان بالدموع، وتمثلت بما أنشدته بعض الأعراب، لما استطالت به شقة النوى والاغتراب: [من الطويل]

ذكرت بلادي فاستهلت مدامعي ... بشوق لعهدي بالصبا المتقادم

حننت إلى أرض بها اخضر شاربي ... وقطع عني قبل عون التمائم

وقد قيل اللبيب يحن إلى وطنه، والنجيب إلى عطنه، والحليم إلى رحابه، والأسد إلى غابه، فلا تجف أرضاً فيها قوابلك، ولا تنس بلداً فيها مراضعك.

---

(553) - ا ينوح.

قال بزرجمهر[554]: من علامات العاقل أنسه بإخوانه، وحنينه لأوطانه، ومداراته لأهل زمانه. قال بعض الأدباء: كان الناس يتشوقون إلى أوطانهم، ولا يدرون العلة في تحريك أشجانهم، حتى أوضحه ابن الرومي الوحيد، بما أنشده من جملة قصيد. [من الطويل]

وحبب أوطان الرجال إليهم ... مآرب قضاها الشباب هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهمو ... عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

وقال أبو هلال، منشداً في هذا المجال: [من الطويل]

إذا أنا لا أشتاق أرضاً لجيرتي ... فليس مكاني في النهى بمكين

من العقل أن أشتاق أول منزلٍ ... غنيت بعيش في ذراه ولين

إذا أنا لم أرع العهود على النوى ... فلست بمأمون ولا بأمين

وقال ذو الشجون، رجاء بن هارون: [من الطويل]

أحنّ الى وادي الأراك صبابة ... بعهد الصبا فيه وتذكار أوّلي

كأن نسيم الريح في جنباته ... وفاء حبيب أو لقاء مؤمّل

استطراد على قوله ولا تنس بلداً فيه مراضعك :

الرضاع له ذمة يجب مراعاتها، وحقوق وحرمة يلزم ومواساتها، فقد روى أهل الحديث أنه كما قدم زهير بن صرد الحسني السعدي على النبي صلى الله عليه وسلم من حنين وهو بالجعرانة يميز الرجال من النساء. فقال له زهير يا رسول الله! إنما سبيت منا عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كفلنك، وإنا لو جئنا للحارث بن أبي شمر وللنعمان بن المنذر، ثم نزل منا أحدهما بمثل ما نزلت به رجونا فضله وعائدته وأنت خير المكفولين، ثم أنشد: [من البسيط]

أمنن علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وننتظر

أمنن على بيضة قد عاقها قدر ... مشتت شملها في أمرها عبر

أمنن على نسوة قد كنت ترضعها ... وإذ يريبك ما تأتي وما تذر

---

(554) - كبير حكماء الفرس تروى عنه حكم كثيرة ويقال إنه كان معاصراً لكسرى انوشروان

إذ أنت طفل صغير كنت ترضعها | إذ فوك يملؤه من مخضها الدرر
لا تجعلنا كمن شالت نعامته | واستبق منا فإنا معشر زهر
فالبس العفو من قد كنت ترضعه | من أمهاتك إن العفو مشتهر

في أبيات أكثر من هذه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان لي ولعبد المطلب فهو لكم، وقالت قريش ما كان لنا فهو لله ولرسوله، وقالت الأنصار ما كان لنا فهو لله ولرسوله. انتهى

فلما تمكن مني راعي الشوق والولوع، أخذت في أسباب السفر والرجوع، وأنا أتأسف على مضي تلك الأوقات، وأتلهف على قصر هاتيك الساعات: [من الوافر]

سويعات المقام بها قليل | ولكن للتولع باعثات

أتخيل الإقامة لمحة طيف، أو مرور فكر أومزنة صيف، فإنها كانت نحو عشرة أيام، حسبما جرت في اللوح الأقلام، لم تشف عليلاً، ولم تطف غليلاً. [من الطويل]

وتتميم ميقات الكليم إقامتي | بدار دمشق ما روت حرّ أشجاني
رويت أحاديث السرور بدوحها | على نغمات الطير من حيث أشجاني

فلما عزمت على طي بساط المقام، ونشر رداء السير من هذا المقام، توجهت وأهديت الفاتحة لحماتها، وطلبت الفيض والملاحظة من سراتها، لهجاً بدعوات مختتمة بآمين. دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحسينهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين. ثم شرعت في السرى، ولاعج الوجد بالفؤاد سرى. ورحلنا وقد كسانا النوى بالبعد وجداً، متذكرين لمن بها مودة وعهداً.

أنشد لبعض ذوي الهيام، حين وقف بمثل هذا المقام: [من الطويل]

حللت دياراً بالغرام سرت بها | إلينا صبا نجد بطيب نسيم
وبانت[555] الأشجان لما تجاذبت | أكف المنايا في رداء نعيم
فما نشبنا العيس أن قذفت بنا | إلى فرقة والعهد غير قديم
فإن يك ودعنا الديار وأهلها | فما عهد نجد عندنا بنديم

---

(555) - ا و ب وبان رد.

طريق العودة

ففي يوم الخميس ثاني ربيع الثاني[556]، عام وجدي وولعي وتحرك أشجاني، طلعنا إلى الوادي المستطاب، وقد صاحبنا للوداع بعض الصحاب، فوقفنا في مقام الوداع، وقد نثر منا عقد الاجتماع، فأنشدت من حفظي، وإن لم يكن من انشائي ولفظي: [من السريع]

كنـــا جميعـــاً والــــدار تجمعنـــا ... مثـــل حــــروف الجمــــع ملتـــصقه

واليـــوم صـــار البعـــد يجعلنـــا ... مثـــل حــــروف الــــوداع مفترقـــه

ويحق أن أتمثل ساعة التفريق، بما أنشده بعض أولي التحقيق: [من الوافر]

وقفنـــا ســـاعة ثـــم ارتحلنـــا ... ومـــا يغـــني المـــشوق وقـــوف ســـاعة

كـــأن الـــشمل لم يـــك ذا اجتمـــاع ... إذا مـــا شـــتت الـــشمل اجتماعـــه

وأنشدت متحسراً، لبيت مشطراً: [من البسيط]

يـــا مـــن يعـــز علينـــا أن نفـــارقهم ... ونـــار أشـــواقنا بـــالبين تـــضطرم

بنتم فليس لنـا عـن حـسنكم خلـف ... وجـــداننا كـــل شـــيء بعـــدكم عـــدم

ثم ركبنا جادة الطريق، وقد رجع أولئك الفريق: [من الخفيف]

وبروحـــي مـــودعي حـــين وافـــا ... ســـال دمعـــي يـــوم النـــوى كـــالعقيق

قـــال مـــا في الطريـــق تـــصنع بعـــدي ... قلـــت أبكـــي عليـــك طـــول الطريـــق

وحين حدا بنا نحو صيدا[557] الحادي، التفت متشوقاً إلى ذلك الوادي، أتمثل ودمع العين صبيب، بما أنشده الشاعر الأديب: [من الرجز]

هـــل ترجـــع الأيـــام في ذا الـــوادي ... تـــالله قـــد عهـــدتها أعيـــادي

أيـــام ضـــم شملنـــا منتـــزه ... بالغوطـــة الغنّـــاء ذاك النـــادي

وصرت بعد مشاهدة الربا، أقنع بمرور نسيم الصبا، أردد ما أنشده المقري الهمام، حين قوض عنها الخيام. [من الطويل]

حمـــدت وحـــق الله للـــشام رحلـــةً ... أباحـــت لعـــيني اجـــتلاء محيـــاه

---

(556) - 4 تشرين الأول 1731م

(557) - مدينة عريقة مشهورة على الساحل الجنوبي للبنان

وبعد التنائي صرت أرتاح للصبا لأن الصبا تسري بعاطر رياه

فلله عهد قد أناخ بجلق سروراً فحياها الإله وحياه

ولم أنس بوارق أنسها، ولا عيشاً مضى بمعاهد قدسها، وجدير أن يزيد في التلهف إفراطي، وأنشدت أبيات الأديب القيراطي. [من البسيط]

لم أنس بالشام أنساً شمت بارقه جادت معاهده أنواء نيسان

لهفي لعيش تقضّى في معاهدها ما بين حسن من الدنيا وإحسان

وكلما أضناني الجوى لتذكار معاهدها، أتسلى وأترنم بذكر مشاهدها.

شعر [من الطويل]

وأضنى الجوى قلبي بتذكار[558] معهدٍ بوادي دمشق الشام حالي الموارد

شهدت بسفح السفح منه مشاهداً نعمت بها أنعم بتلك المشاهد

وحين هاجت بلابل الغرام، ضمنت بيتاً للشمس العزام[559]. [من الطويل]

أيا سادة بالشام ما زلت لاهجاً بذكراكم دوماً أروح خاطري

أحن لترداد الصبا من بشامكم فأصبو لسارية السري بسايري[560]

ولابدع إذ هاجت لواعج الجوى بالفؤاد، وألف الناظر المقروح البكاء والسهاد، على انقضاء الليالي الخاليات، ومرور هاتيك الأويقات الحاليات. [من الطويل]

ولابد للقلب المشوق من الجوى وللناظر المقروح أن يألف السهدا

على زمن بالشام حالٍ قد انقضى فكم ذقت فيه من مشاهدها الشهدا

ولعمري كانت أوقاتها مواسم، حيث ثغور التهاني برياها بواسم، أماني نفس ما علمت قيمتها، ومغاني أنس ما نسيت لذتها، ولله در من حرك بالقلب أشجاناً، إذ جعل لياليها للمسرة عنوانا. [من الوافر]

وكانت في دمشق لنا ليال سرقناهن من ريب الزمان

جعلناهن تاريخ التهاني وعنوان المسرة والأماني

---

(558) ب لتذكار.

(559) - لم اعثر له على ترجمة

(560) - معنى الشطر فأشتاق للعمود الذي كان يتكئ إليه العارف بالله السري الرفاء [بسائري] أي بكل جوارحي

وبينما أنا أتلهف وأتحسر، إذ مررنا ضحوة النهار على قرية ضمّر [دمّر][561]، وقد أحاطت بها الأنهار، كما يحيط بالمعصم السوار، وتبرحت رياضها الأنيقة، وتأرجت زهورها العبيقة، ورقت صوادح الأطيار، تخطب فوق منابر الأشجار، فأشجاني حسن منظرها، وأهاجني طيب مخبرها، فرمت بها المقيل، لأتفيأ بظلها الظليل، وأستروح للطف نسائمها، وأترنح لصدح حمائمها، فلم يوافق أولئك الرفاق، فأنشدت والدمع والمطايا في استباق: [من الطويل]

مررنا صباحاً والصحاب بضمّر ... وزهر الربا من عرفه الطيب ينفح

وأدواحها تزهو بميل غصونها ... إذا ما بها ورق الحمائم تصدح

فأشجت فؤادي المستهام لأنها ... لمتن غرامي بالصبابة تشرح

فرمت انعطافاً نحوها بتعطف ... لعل فؤادي ساعة يتروح

فما وافقت تلك الرفاق واسرعت ... تحث المطايا نحو صيدا و تكدح

فأشغلت الوقت بمفاكهة وإيناس، إلى أن وصلنا وقت الظهر قرية الديماس[562]، فنزلنا بواديها الأبهج الفياح، بدوح مشهد به ضريح بعض أهل الصلاح، فأقمنا به نتفكه بمسامرة الأخيار، ونتحلى بمناشدة الأشعار وتوارد الأخبار، فمما أنشدنيه بعض الصحاب، للمولى القيراطي محرر الآداب: [من الطويل]

دمشق بواديها رياض نواضر ... بها ينجلي عن قلب ناظرها الهم

على نفسه فليبك من ضاع عمره ... ليس له فيها نصيب ولا سهم

وأنشد الثاني، من غير تواني: [من البسيط]

لم أنس معهدنا والشمل مجتمع ... والعيش غض وروض الأنس معطار

فها أنا بعد بعدي عنه في قلق ... وقد نبت بي أرجاء وأقطار

تمضي الليالي واشواقي مجدّدة ... وما تقضّت من الأحباب أوطار

فلما استروحت النفس بهذا الإنشاد، ابتدرت مادحاً هذا الواد، الطيب المهاد، إذ صفا الوقت لي وراق، وأهاج فؤادي سواجع الأوراق. [من الكامل]

---

(561) - دُمَّرَ حي من احياء دمشق حالياً وكان قرية فيما مضى قبل توسع المدينة، في أول الطريق إلى بيروت.

(562) - تقع بلدة الديماس شمال غرب دمشق على مسافة 25 كم تقريباً، على طريق لبنان، و إلى الجنوب الغربي منها على بعد 3 كم جبل يسمى جبل المزار فيه مزار قديم دارس الآن

ورد السرور موارد الإيناس — لما حللنا دوحة الديماس
وفي النسيم وللأزاهر بهجة — تهدي الأريج بأطيب الأنفاس
وتمايلت غصن الرياض بدوحها — تحكي قوام الأهيف الميّاس
وحمائم تشجي المشوق بشدوها — تروي لنا الألحان عن عباس
وصفا الزمان فأنسنا متواصل — لا نضرب الأخماس في الأسداس

وما زلنا في أنس وسرور، إلى أن تلا الفجر آية النور، سرنا نحو خان الضهر الأحمر[563]، فوصلناه ظهراً، وقد تدبج رباه بالأخضر والأصفر. [من البسيط]

نزه عيونك في الوادي البهيج ترى — روض الربا قد حوى للزهر ألوانا
به روينا حديث الأنس متصلاً — لكن سلسل دمع العين عقيانا
واسمع سواجع ورق من صوادحه — فقد روت فيه عن إسحاق ألحانا

فنزلنا بحمام لطيف بجانب الخان، مستكمل العمارة إلا أنه معطل منذ زمان لكونه بوسط الوادي، بعيد عن أهل ذلك النادي، فبتنا والرفاق الظرفاء، والأحباب الأرقاء اللطفاء، وكان بصحبتنا رجل شريف صديق، سمّي المولى أبي بكر الصديق، فأقسم علينا برب الأرباب، وبالمصطفى الرفيع الجناب، أن لا ندعوه إلا بالسيد حسن، فإن له في ذلك القصد الحسن، لكوننا في أودية المتاولة [...][564] ثم أرحنا العيون والجسم بالكرى، لتحصيل الراحة فنقوى على السرى، فلما حيعل الديك بالصياح، وكاد أن يفجأنا ضوء الصباح، سرينا فوصلنا خان حاصبيا[565] رابعة النهار، وقد وكفت عيون السحب بهوامع الأمطار، فنزلنا بجانب الخان على شاطئ النهر، ونسيم الصبا يهدي لنا طيب النشر، فأنشدني أحد الرفاق الأنجاب، حتى لامه العاذل على التشوق للديار والأحباب. [من الكامل]

أعليّ في ذكر الديار ملام — أم هل تذكرها عليّ حرام
أم هل أذم إذا ذكرت منازلاً — فارقتها ولها عليّ ذمام

---

[563] - هناك موقع في البقاع الغربي على منحدرات جبل الشيخ باسم الظهر الأحمر.

[564] - جمل حذفها المحقق.

[565] - حاصبيا مدينة داخلية تجارية اشتهرت بكونها كانت محطة للتجار و المسافرين في طريقهم من فلسطين و جبل عامل الى بلاد الشام و بالعكس وهي قضاء في محافظة النبطية الآن يجري في اراضي قضاء حاصبيا نهرا الليطاني و الحاصباني، بالاضافة لنبع اللويزاني او الوزاني

دار الأحبة والهوى وشبيبة	ذهبت وجيران علي كرام
كانوا حياتي وابتليت بفقدهم	فعلى الحياة تحية وسلام

فطربت لسماعها، وهممت لإنشادها، وخطر بالخاطر الفاتر تشطيرها، وإن كنت عن مجاراتها قاصر، فبادرت في الحال، وكتبت على الارتجال. [من الكامل]

أعلي في حب الديار ملام	إذ هاج بي وجدٌ لها وغرام
أو شمت من نحو الربوع بوارقا	أم هل تذكرها على حرام
أم هل أُذَمُّ إذا ذكرت منازلاً	فيها مضارب للهوى وخيام
لم أنس طيب معاهد من جنسها	فارقتها ولها علي ذمام
دار الأحبة والهوى وشبيبة	كانت وبي نحو الهيام هيام
ومراتع فيها الظباء أوانس	ذهبت وجيران علي كرام
كانوا حياتي وابتليت بفقدهم	فكأنها وكأنهم أحلام
لا خير في طلبي حياة بعده	فعلى الحياة تحية وسلام

وقضينا بقية اليوم في أنسٍ وصفا. على بسط المودة ونمارق الوفا، فلما أراد الفجر أن يبرز من الحجاب، نادي المكارى تهيؤوا للسير يا صحاب، فشددنا نخبُ السير والانتقال، وسرنا فوصلنا النباطية[566] وقت الزوال، وقطعنا في الطريق عقبة صعبة المسالك، متوعرة الأرجاء شديدة المهالك، ثلاث ساعات في هبوط ومثلها في صعود تقصم الظهر وتفتت الكبود، بين المهبط والمصب نهر يسمى الخردلة[567]، ونزلنا على شاطئه فيا نعم تلك المنزلة، فتروحت النفس وحصل بعض الراحة، ولكنها صورية ومن أين يحصل للمسافر استراحة.

ولما وصلنا نزلنا بها ببعض الحوانيت، وعزمنا بأن يكون به المقيل والمبيت، فحسن لنا بعض أولئك الرفاق، المبيت بالقرية من باب الإشفاق، ليكون أتم للإنس وأكمل، وأنه

---

[566] - تقع النبطية في منطقة تتوسط امهات قرى جبل عامل ومدنه، وهي حلقة وصل بين الساحل والجبل والداخل تبعد حوالي 28 كلم عن مدينة صيدا و20 كلم عن مرجعيون وهي اليوم مدينة ومركز محافظة في جنوب لبنان.

[567] - تقع قرية الخردلة في جنوب لبنان إلى الشرق من النبطية قرب قرية دير الميماس، ويمر منها نهر باسم نهر الخردلة يغذي نهر الليطاني، وهناك جسر عليه معروف باسم جسر الخردلة

اللائق بأمثالنا وأجمل [...][568] وذهبنا إلى سوقها المعهود، لأنه من جميع النواحي في هذا اليوم مقصود، يباع به المتاجر من جميع الأصناف، مما يحتاج إليه السوقة والعبيد والأشراف.

صيدا

ثم سرنا من النباطية عصر يوم الاثنين، فوصلنا صيدا قبيل الفجر بساعتين، فنزلنا عند البوابة إلى أن لاح الفجر وفتح الباب، وحضر لنا جماعة من الأصحاب والأحباب، وتلقونا بمزيد الترحيب والتبجيل، وكل رام أن أكون بحماه النزيل، فأجبت دعوة المحب الأكرم ذي الاحترام، عزيزنا سيدي بكري لمبالغته في الإلزام، فنزلت بداره الزاهية الوسيعة، وخصني بعلية سامية رفيعة، وسرّ بورودي إليه سرور محبّ بحبيب، وبالغ في الإكرام والترحيب.

وحين استقراري بهذا المنزل السعيد، حضر إلي جناب المحب الأكبر المولي المجيد، العمدة الجهبذ الحاوي فضلاً وأفضالاً، الشيخ عبد الغني الحنفي مفتي صيدا حالاً، وهو ممن بيننا وبينه قديم صداقة وصحبة، وأكيد مودة سابقة ومحبة، حين المجاورة بالأزهر عام اثنين وثلاثين[569].

وهو إمام فاضل حظه من العلوم وافر، وفضله شاع فكل طالب نحوه مسافر. ففيه ما يثبت من فضل وشرف، وحسن استحضار للطائف وظرف، وقد كان الأخ السعيد مدحه ببيتين حين كان بدمياط، يؤذنان بما حوى من المعارف واحتاط، وهما: [من الطويل]

لعبد الغني الصيدي حسن سجية ... بها أمتاز في الأبحاث عن كل ذي نظر

هو البدر والأقران في البحث أنجم ... ولم يبد نجم إن بدا رونق القمر

ثم إني في صبيحة يوم الأربعاء السعيد، صرت أتأمل المدينة وبناءها المشيد، وأسرح الطرق في رياضها، وأنتشق عرف نسيم غياضها، فهي كما قال الأميني[570] في نفحته، أسكنه الله بحبوح جنته:

وأما صيدا، فإنها بين البلاد أسد البيدا، وما أدري كيف يذمها الناس، وأهلها يعوذونها من الوسواس الخناس، ولعمري إنها بلدة لولا حرارة مائها وهوائها، وبرودة

---

(568) - جمل حذفها المحقق

(569) - 1719م - 1720م

(570) - لم اعثر على معلومات بشان الأميني المذكور.

أوضاعها وأبنائها، لكانت جنة المأوى في الدنيا والآخرة، اللهم إنا نسألك الإنصاف، ونعوذ بك من التعصب والاعتساف، وكيف يسأم الناس بلدة إذا جلب إليها الماء يكتسب حرارة، وإذا استجلب إليها العذب السائغ ينقلب إلى عفوصة ومرارة، وهي كما قال أبو الحسن الباخرزي[571] في مدح محاسن الري ولطف هوائها ومائها : [من الرجز]

صادفت فيها كل شيء حائزاً — أقصى حدود البرد غير الماء

وكيف لا يمدح الماء الحار، وهو الذي يجلب المسار، ويدفع المضار، وهو الذي ينفع في الحمام، للاغتسال والاستحمام، ويحلل الأورام، وإن شئت فقل يجلب البرسام والسلام.

ثم إني توجهت إلى منتزه يقال له المقصف[572]، حسنه في الغاية لا يوصف، يشابه الروضة والمقياس[573]، لكنه على خلاف القياس، فانشرح الصدر بذلك المنتزه البهيج، وانتعش الفؤاد بعرف روضه الأفيح الأريج. وهو واد متسع رحب الأكناف، متناسق النعوت والأوصاف، تشجيك حمائمه، وتشفيك نسائمه، فصعدنا إلى قصره المشيد، نروي حديث المسرة بالمسامرة والنشيد.. فلما طاب لي به المقام، أنشدت في وصف ذاك المقام: [من الوافر]

ومنتزهات صيدا قد تسامت — حوت للحسن من كل الجهات

ومقصفها الأنيق له افتخار — على تلك الرياض الزاهيات

ثم سرت إلى زيارة نبي الله شمعون[574]، مع طائفة زوار إلى رحابه يسعون، فوصلنا إلى رحابه ووقفنا تجاه بابه، وقرأت ما تيسر من القرآن مع أمّ الكتاب، وجعلته هدية لذلك الجناب، فورد على ما ورد من الإلهام، بأعظم بشارة من الفرح، مادحاً ذاك الجناب حسبما به الفكر سمح: [من الكامل]

دوح به لذوي الشجون شجون — يزهو حلاه ويطرب المحزون

يشفي العليل جوى بطيب نسيمه — ويهيج من وجدٍ به المفتون

---

[571] - ابو الحسن علي بن الحسن بن علي بن ابي الطيب الباخَرْزي [توفي في ذو القعدة 467هـ/1075م] من الشعراء الكتاب، من أهل باخرز [من نواحي نيسابور] تعلم بها وبنيسابور، وقام برحلة واسعة في بلاد فارس والعراق وقتل في مجلس انس بباخرز. كان من كتاب الرسائل وله علم بالفقه والحديث

[572] - توجد الآن حارة في مدينة صيدا باسم حارة المقصف

[573] - مقياس النيل يقع في الطرف الجنوبي لجزيرة الروضة بمدينة القاهرة بمصر. كان يستخدم لقياس فيضان النيل، وعلى أساسه يتم تحديد الضرائب في العام الزراعي المقبل

[574] - يقع مقام النبي شمعون بين بساتين صيدا الشمالية الشرقية ونشا حي حول المقام يسمى حي الشمعون وقد اقيم في أواخر القرن التاسع عشر، و تم تحويل مقام النبي شمعون إلى مسجد.

بــرق المناقــد أشــرقت أنــواره	مـــن أفقـــه إذا حلـــه شمعـــون
وأظنـــه صـــنو الكـــريم المرتـــضى	إذ قــبر غـــير المـــصطفى مظنـــون
مـــولى نـــبي قـــد سمـــا بمكـــارم	حـــاوي المحامـــد ســـيّد مـــأمون
وافـــاه أســـعد يرتجـــي لمـــوانح	حيـــث الرجـــا بوفـــوده مـــضمون
حيـا الحيـا سـوحاً سمـا نحـو العـلا	وسـقاه مـن سـحب الرضـاء هتـون

ثم ذهبت لرياض (السبع عيون)[575]، لشرح الصدر وتنزيه العيون، فسرحت الطرف في مرابع سوحها، واقتطفت ثمار الأنس من حدائق دوحها، فبينما أنا أقرأ مطالع الأنس ونزهة الأبصار، إذ ورد من بيروت عزيزنا السيد أحمد حندس القصار، فانبسطنا بطيب وروده، وسررنا بحسن وفوده، إذ له معنا علاقة مصاهرة ونسب، وارتباط محبة ومودة ونشب.

وما زلنا في أنسٍ إلى أن لبست الشمس ثوب الاصفرار، رجعنا والسيد أحمد المذكور إلي الديار، وبتنا وإياه بليلة بديعة الأوصاف، غدت ثمار حدائق أنسها دانية القطاف، وقد عزم علينا السيد المنعوت، بالتوجه معه إلى مدينة بيروت، لنزور جناب الإمام الأوزاعي، ويسر هو والأحباب بوفودي واجتماعي، فتعللت عليه بخوف سفر الفليون، وأن يمتد بنا الوقت فيدخل شهر كانون، فأبرم وألح غاية الإبرام، وشوقني للتوجه باطلاعي على ترجمة هذا الإمام، قال في مجمع الأحباب، ما ملخصه في ترجمة هذا الجناب:

الزاهد العلامة عبد الرحمن، وقال الشيخ محيي الدين النووي قدس الله روحه: كنيته أبو عمرو الشامي الدمشقي، كان إمام أهل الشام في عصره بلا مدافعة ولا مخالفة، وكان يسكن دمشق خارج باب الفراديس، ثم تحول إلى بيروت فسكنها إلى أن مات مرابطاً بها، وهو من تابع التابعين.

روى عن عطا بن رباح وقتادة ونافع مولى ابن عمر والزهري ومحمد بن المنكدر، وروى عن جماعة كسفيان ومالك وشعيب وابن المبارك وخلائق لا يحصون، وقد اجتمع العلماء على جلالته وإمامته، وعلو مرتبته وفضيلته، وأقوال السلف كثيرة مصرحة بورعه وعبادته، وقيامه بالحق وكثرة أحاديثه وغزارة فقهه، وشدة تمسكه بالسنّة وبراعته في الفصاحة، وإجلال أعيان علماء عصره من الأقطار له، واعترافهم بمنزلته ومرتبته.

---

[575] - اسم المنطقة الآن النبعة وهي واقعة على ساحل المدينة وفيها سبع عيون ماء.

قال غير واحد: أجاب الأوزاعي عن سعبين ألف مسألة. وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: الأئمة في الحديث أربعة، الأوزاعي، ومالك، وسفيان الثوري، وحماد بن زيد، ولما بلغ سفيان الثوري مقدم الأوزاعي لمكة خرج حتى لقيه بذي طوى، فحل سفيان رأس البعير عن القطار ووضعه على رقبته، وكان إذا مر بجماعة قال: الطريق للشيخ. وعن الشيرازي، استفتي الأوزاعي وله ثلاث عشرة سنة، وكان مولده بعلبك، ومات في حمام بيروت، دخل الحمام فذهب الحمامي في حاجته وأغلق الباب عليه، ثم جاء ففتخ الباب فوجده ميتاً متوسداً يمينه مستقبلاً القبلة رضي الله عنه وأرضاه.

وقال موسى بن أعين: قال الأوزاعي: يا أبا سعيد كنا نمزح ونضحك فلما صرنا يقتدى بنا ما أرى يسعدنا إلا التبسيم، وقال أبو الفرج: قال الأوزاعي ليس ساعة من ساعات الدنيا إلا وهي معروضة على العبد يوم القيامة، يوماً يوماً وساعة ساعة، فالساعة التي لا يذكر الله فيها إذا مرت به، تقطعت نفسه عليها حسرات، فكيف إذا مرت ساعة مع ساعة ويوم مع يوم. وقال: رأيت رب العزة جل جلاله في المنام، فقال يا عبد الرحمن: أنت الذي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. قلت بفضلك يا رب، ثم قلت: يا رب أمتني على الإسلام فقال جل جلاله وعلى السنة. انتهى

وقال الإمام المناوي في طبقاته: هو الإمام المشهور عبد الله بن عمر الأوزاعي، كان جليل القدر، حاوي السماحة، رحب الصدر، رفيع المنزلة والهمة، بهي المنظر عظيم اللمة، ذا براعة ولسن، وأخلاق خبرها صحيح وحديثها حسن، نعم وكان أوحد زمانه، وإمام عصره وأوانه، لا يخاف في الله لومة لائم، قوالاً بالحق لا يخشى سطوة ظالم، وكان أهل الشام والعرب على مذهبه قبل تحولهم إلى مذهب الإمام مالك، ولد سنة ثلاث وثمانين[576] ونشأ في الفقه والتعبد والزهد حتى كان لا يدخل الخلاء إلا في كل شهر مرة، فرقت بطنه فصار يدخل في كل شهر مرتين، فصارت أمه تقول لصحبه ادعوا لعبد الله فإنه مبطون.

دخل عليه المنصور فقال: عظني، فوعظه، فبكى. قال: ادع لي، قال: ما دعاء رجل لك مع دعاء بقية الرعية عليك. وقال من عمل سوءاً فبنفسه أبداً.

وقال: ينظر أحدكم إلى الشرطي فيستعيذ بالله منه، وينظر إلى علماء الدنيا المتصنعين للخلق، المتشوقين للرئاسة فلا يمقتهم، هم أحق بالمقت من الشرطي.

---

(576) - 702 م

وقال من أكثر ذكر الموت كفاه اليسر، ومن علم أن منطقه من عمل قلّ كلامه. مات سنة سبع وخمسين[577] ومائه بحمام بيروت، رضي الله تعالى عنه. انتهى

فهاجني ترجمة هذا الجناب، لزيارته والوقوف بالأعتاب، لكن الوقت ضاق عن التوجه والرجوع، ولواء العذر منشور ومرفوع، فأهديت له ما تيسر من القرآن العظيم، وأنشدته قصيدة تنبئ بالعذر تقرأ بمقامه الكريم، عسى يقبل عذري في التخلف عن ورود مقامه، ويتحفني بمنحة من فيضه وإنعامه: [من الكامل]

شـــوق ألم بمهجـــة الملتـــاع   يبـدي الحـنين لحـضرة الأوزاعــي

مــولى لــه في العلــم أرفــع رتبــة   منـــشورة الأعـــلام بالإجمـــاع

قطب الحقيقة والطريقة والشريـــــعة قد سما فيها بغير نزاع

إن كـان لم يحظـى برتبـة صـحبة   فلقــد غــدا مــن قــادة الأتبــاع

وردت لـه سـبعون ألـف مـن المسا   ئـل أشـكلت بتخــالف الأنـــواع

فأجـاب عنـها موضـحاً منـهاجها   قــد أفرغــت في قالــب الإبــداع

واختــار بيروتــاً لفــضل رباطهــا   حتـــى دعتـــه للحمـــام نـــواعي

فثــوى ببقعتــها الــسنية مــشهداً   أعظـــم لهـــا بمـــشاهد وبقـــاع

كــم رمــت أســعى نحــوه لزيــارة   فيعــوقني حظـــي بحـــسن دفـــاع

فبعثــت أهديــه القــريض تحيــة   تحلــو لــدي الأفــواه والأسمــاع

شـــط المـــزار وللزيـــارة باعـــث   شـــوق ألم بهجـــة الملتـــاع

وظهر للسيد أحمد العذر وحصحص، وطاب لي منه بذلك حسن المخلص[578].

سليمان باشا العظم

وفي يوم الأحد ذي التهاني، في العاشر من ربيع الثاني[579]. توجهت بصحبة جناب مفتي المدينة، إلى نحو الجزيرة والقلعة الحصينة[580]، واجتمعنا بجناب صاحب العز

---

(577) - 773م – 774م

(578) - الجملتان ساقطتان من ا.

(579) - 13 تشرين الأول 1731م

(580) - تطل قلعة صيدا التي بناها الصليبيون عام 1228م على مدخل المدينة، وشيدت على جزيرة صخرية تبعد حوالي

والإجلال، ساحب أذيال السعد والإقبال، الجامع بين مرتبتي العلم والوزارة، ومن هو على التحقيق أحق بالصدارة، حضرة الدستور المكرم، الوزير الحاج سليمان باشا ابن العظم[581]، أطلع الله سماء مجده شمس بشائر الخلاص، وبلغه ما يروم لما فيه من النفع العام والخاص، فقد كان مقيماً بتلك القلعة المشيدة الأركان، بأمر من حضرة مولانا السلطان، لسعاية حاسد اقتضت ذلك، وهو في الحقيقة بريء مما هنالك، وليس هذا نقصاً في مقداره، وإنما هو دليل على عزه وفخاره، ومما يناسب هذا المقام، ويسطر في الطرس ببنان الأقلام، ما أنشده الوزير ابن زيدون، حين هو بقصر بني جَهْوَر مسجون: [من الطويل]

ألم يأن أن يبكي الغمام على مثلي ... ويطلب ثأري البرق من صلت النصل

وهلا أقامت أنجم الزهر مأتماً ... لتندب في الآفاق ما ضاع من نبلي

أمفتونه الأجفان مالك والهاً ... ألم تترك الأيام نجماً هوى قبلي

ولله فينا علم غيب وحسبنا ... به عند جور الدهر من حاكم عدل

وأنشد أبياتاً من قصيدة، في الرضى بالقدر مفيدة: [من البسيط]

ما جال بعدك لحظي في سنا القمر[582] ... إلا ذكرتك ذكر العين للأثر

ولا استطلت دُماء الليل من أسفٍ ... إلا على ليلةٍ سرّت مع القصر

يا للزرايا لقد شاهدت منهلها ... غمراً فما أشرب المكروه بالغمر

لا يهنأ الشامت المرتاح خاطره ... فإن معنى الأماني ضائع الخطر

---

80 متراً من الشاطئ، ويربطها به جسر صخري مبني على تسع قناطر، ويقع داخلها مسجد بناه الأشرف خليل بن قلاوون، وجدده الأمير فخر الدين

[581] - ورد خطأ من الناسخ سليمان باشا ابن المعظم والصحيح ما اثبتناه، ويعد سليمان باشا العظم من اشهر ولاة آل العظم، تحدث عنه البديري الحلاق في يومياته خلال ولايته الثانية على الشام واثنى عليه، ذكره من المؤرخين: المرادي والقاري والمقار والجبرتي وحيدر الشهابي، تولى باشوية طرابلس سنة 1138هـ- 1725م، ومن خلال نص اللقيمي نستشف بأنه نقل إلى ولاية صيدا مغضوباً عليه ثم أعيد إلى طرابلس قبل ان ينقل إلى ولاية الشام اي دمشق سنة 1136هـ- 1733م واقام فيها خمس سنين، نقل بعدها إلى مصر سنة 1152هـ- 1739م إلا انه لم يتمكن من الإقامة فيها إلا سنة واحدة فقد ساءت علاقته بالمماليك فحاول التخلص منهم لكنه لم يتمكن، وأرسل المماليك يشكونه إلى السلطان، فعزل عن ولاية مصر وولي الشام ثانية سنة 1154هـ 1743م. واقام فيها ثلاث سنين مات في عكا خلال حصاره قلعة طبريا في صراعه مع ظاهر العمر وقيل: مات مسموماً.

[582] - في النسخة ب: ما جال لحظك بعدي في سنا القمر.

إنْ طال في السجن إيداعي فلا عَجَبٌ — قد يودعُ الجفن حدُ الصارم الذكَرِ

وإنْ يُثبطْ (أبا الحزم) الرضا قَدَرٌ — عنْ كشف ضُرِّي فلا عَتْبٌ على القدرِ

وكان مجلس السامي الجليل، ومقامه العالي الجميل، بزاوية بالجزيرة على شاطئ البحر، مع حسن الانتظام ونفاذ والنهي والأمر، وهو حفظ الله مقامه، ورفع بالنصر والسعادة أعلامه، ممن جمع بين مرتبتي الوزارة والعلم، ومزج جريال الشجاعة والصولة بسلسال الحلم، أشعري العقيدة[583] شافعي المذهب[584]، له في كل فن من المعارف مسلك ومذهب، ذو قريحة ذكية بالفطنة تتقد، وفكرة سليمة جواهر المعارف تنتقد، ومحاضرات كوميض البرق لائحة، ومحاورات بحس الآداب طافحة.

يرتاح القلب الشجي بلقياه، ويسر الناظر المقروح برؤياه. تحسد الأسماع على رؤياه النواظر، ويغبط الفكر إذا ما مر يوماً بالخواطر. وهيهات أن يفي لسان البراعة بمدحه، أو يشير بنان اليراعة بنعته وحقيقة شرحه، فقد ظهرت محاسن أوصافه ظهور الشمس، وتنعمت وتلذذت بها الحواس الخمس.

لا زالت أوقاته مواسم الأعياد، ومجلسه مطلع بدور السعادة والإسعاد، وقد جرى في مجلسه العالي بحضرته الشريفة، أبحاث دقيقة في العلم لطيفة، فمن جملتها، سأل ما المراد بقوله صلى الله عليه وسلم بالولد الصالح، في حديث إذا مات ابن آدم انقطع عمله.. (الحديث)، فأجاب حضرة المفتي بأن العلماء نقلوا أن المراد به المسلم، لأنه لا صلاح أعظم منه.

وسأل حفظه الله تعالى: لأي شيء نص صلى الله عليه وسلم دوام آثار هذه الأعمال الصالحة دون مقابلها، مع أنه كذلك لا ينقطع[585]، فأجبت بأن في الحديث إضماراً، والتقدير: انقطع اتصال عمله إلا من ثلاث، وإنما استم اتصاله بهذه دون غيرها لبقاء آثارها، أعني معمولاتها، وذلك ظاهر في العلم والصدقة الجارية، وكذا الولد الصالح إذ هو السبب في وجوده، ومنه البين أن ليس شيء من الأعمال سواها بهذه المثابه ولا يقدر

---

[583] - الأشاعرة فرقة كلامية إسلامية، تنسب لأبي الحسن الأشعري الذي خرج على المعتزلة وقد اتخذت الأشاعرة البراهين والدلائل العقلية والكلامية وسيلة في محاججة خصومها من المعتزلة والفلاسفة وغيرهم لإثبات حقائق الدين والعقيدة الإسلامية على طريقة ابن كلاّب

[584] - قد يكون هذا الكلام دليل على أصل عائلة المعظم العربي، لأن الترك بمجموعهم كانوا حنفية، وعرب الشام ومصر والحجاز في معظمهم شافعية، ومن المستبعد ان يغير والٍ تركيّ مذهبه خصوصاً إذا كان في السلطة

[585] - ساقطة من ا.

المضمر الثواب كيلا ينتقض ببعض الأعمال المستم ثوابها، كالرباط، وتكبير مبصر الجنازة ثلاثاً وقوله هذا ما وعد الله ورسوله.. الخ وغيرهما مما هو مذكور في محله، فارتضى بهذا الجواب.

وسأل حفظه الله عن قوله تعالى ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[586]، مع انه لا يتصور التقدم مع حضور الأجل. فأجاب حضرة المفتي أنه على معنى المقاربة وعليه أكثر المفسرين. فقلت: يحضرني أن الشمس الرملي[587] أجاب بأن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عطف على جملة الشرط مع الظرف لا على الجزاء، والمعنى وهم لا يستقدمون على وقت آجالهم، فاستحسن الجواب. ولنورد العبارتين، قال الشمس الرملي: وقوله عز وجل ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عطف على الجملة الشرطية مع الظرف لا الجزئية، والمعنى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة، فما الظن بما زاد؟ ولو كان عطفاً على الجملة الجزائية لورد أن الاستقدام لا يتصور لفواته، وفي تفسير الآخرين مانصه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

قيل ما معنى هذا مع استحالة التقدم على الأجل وقت حضوره، وكيف يحسن قوله ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ بعد فناء الرجل، قيل هذا على المقاربة، لأن العرب تقول جاء الشتاء، إذا قارب وقته، وجاء الصيف كذلك، ومع مقاربة الأجل يتصور الاستقدام وإن كان لا يتصور مع الانقضاء. والمعنى لا يستأخرون عن آجالهم إذا انقضت، ولا يستقدمون عليها إذا قاربت الانقضاء. انتهى

قال الخطيب في تفسيره في سورة يونس قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي انقضت مدة أعمارهم فلا يستأخرون، أي لا يتأخرون عنه ساعة، ثم عطف على الجملة الشرطية ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي ولا يتقدمون.

فلا تستعجلوا فإن الوفاء بالوعد لابد منه، والسين فيهما بمعنى الوجدان، أي لا يوجد لهم المعنى الذي صيغ منه الفعل، ويجوز كون المعنى لا يوجدون التأخر ولا التقدم، وإن اجتهدوا في الطلب فتكون السين في معنى الطلب. وتدل الآية على أن أحداً لا يموت إلا بانقضاء أجله، وكذا المقتول لا يقتل إلا على هذا الوجه. انتهى

---

[586] - سورة الأعراف، الآية 34

[587] - محمد بن احمد بن حمزة شمس الدين الرملي المتوفى 1004هـ، فقيه الديار المصرية في عصره ومرجعها في الفتوى يقال له الشافعي الصغير، نسبة إلى الرملة من قرى المنوفية بمصر مولده ووفاته بالقاهرة ولي افتاء الشافعية وصنف شروحا وحواشي كثيرة منها، (نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج)

ولم نزل مع المولي الصدر، في أبحاث دقيقة ولطائف تشرح الصدر، فإن رحابه الشريف محط الفوائد، وجنابه المنيف محل للصلة والعوائد، ولا بدع إذا أنشدت، لما سمعت وشاهدت: [من الكامل]

وافيت مجلسه المنيف لكي أرى ... ما حدثت عن وصفه الركبان

فرأيت حلماً ما لأحنف مثله ... وشهدت بأساً هابه الشجعان

قد خص من فصل الخطاب بحكمة ... لم يؤتها قسٌ ولا سحبان

فله السعادة والسيادة والثنا ... والمجد والإسعاد والإيمان

ما قام في شرع المدائح مدّع ... وقضى بصدق مقاله برهان

فلما صلينا الصلاة الوسطى، وقد منحنا من وافر الأنس قسطاً، ورفعنا أكف الدعاء لجنابه، بتفريج كربه وجبر مصابه، واستأذنا في السير من هذا المقام، فودعناه وانصرفنا بسلام. [من الطويل]

لعل الذي نجّى من الجب يوسفاً ... وخلصه من سجنه واغترابه

وخصّ سليمان النبي بمنحة ... ورد عليه الملك بعد ذهابه

ينجي سليمان الزمان من الردى ... ويمنحه البشرى برفع حجابه

العفو عن الباشا

وفي ضحوة يوم الخميس، خامس عشر ربيع الثاني[588] الأنيس، حضر قبجي باشي[589] من دار الخلافة الكبرى، على نجب الهنا برسائل البشرى، لجناب حضرة الوزير المشار إليه، بالعفو عن جنابه والرضى عليه، وأن يكشف عنه حجب الترسيم، ويرفع فوق منصات الإجلال والتكريم، وتوليه محافظة طرابلس الشام، كحكمه بها في سالف الأيام، وكان لعمري هذا اليوم ثالث العيدين، وموسم المسرات والأنس بلا مين. وحمدنا الله المولي المفضال، على تحقيق الرجاء وبلوغ الآمال، وأنشدت أبياتاً تهنئة بالبشرى، تهدى لجنابه بالمدح من طي عرفها نشرا: [من الطويل]

---

(588) 17 تشرين الأول 1731م

(589) - أصل العبارة قبوجي ومعناها حارس باب السلطان غير أن المعنى قبجي باشي تغير عملياً وأصبح يعني رسول السلطان

بشير الرضا وافى على نجب البشرى ... لصدر المعالي بالهنا شارحاً صدرا

كبشرى سليمان النبي بملكه ... ويعقوب إذا وافى المبشر من مصرا

هي الغاية القصوى التي كنت آملاً ... بها أحتظي لكنها النعمة الكبرى

حلا وصفا دهري بطيب ورودها ... وقد كان مرّاً بالتكدر إذ مرا

سررت بها والبشر يروي حديثها ... فأعظم ببشري قد سمعنا بها بشرا

لقد صدقت فيها القضايا بمنطق ... يصور أن النجح يستعقب الصبرا

وقد أنتجت برهان سعدٍ بشكلها ... وما تلك صغرى للنتيجة بل كبرى

وفاحت كعرف الطيب من نشر طيبها ... فأبدت لنا من طي منشورها عطرا

دخلت لجيد الدهر من كنز حسنها ... عقود نظامٍ ليس تتبعها نثرا

رفعت بذا قدراً وقد صرت راقياً ... معارج يتلى عندها سورة الإسرا

فدُم في مراقي السّعد ممتطيَ السها ... بعزّيّة تعلو السماكين والنسرا

وهاك تهاني العز تشرق شمسها ... فلم تخل من أضواء إشراقها قطرا

فأهدت علاك اليمن والسعد والهنا ... مع المجد فاستعبد بعزتك الدهرا

وأسعد يهديك التهاني مبشراً ... فتاريخه فيه بشائر بالبشرى

ثم زرنا بصيدا من المقامات، المقصودة والمعدودة لاستمناح الإمدادات، كمقام سيدنا يحيى وسيدنا داود، وأولاد يعقوب وأبي الروح ذي المنهل المورود.

وقد أسلفنا بحثنا في تعدد المشاهد والمآثر المنسوبة لبعض الأنبياء وخواص الأكابر، وأن لوايح الأنوار السنية، دليل على ثبوت هذه الأثار الأقدسية، وانه يحصل للزائر الفيض والإمداد، بحسب القبول والاستعداد، فينبغي أن يقف بالأعتاب، متخلقاً بمحاسن لطائف الآداب: [من الطويل]

روينا أحاديث الضيا عن مشارق ... بأرفع إسناد لتلك المعاهد

بأن الذي ينحو المآثر زائراً ... يفوز بإسعاد ونجح المقاصد

فقف في حماها خاضعاً مترجياً ... وقبل ثراها بالجفون السواجد

وبمناسبة ذكر هذه المآثر والمشاهد، والآداب المطلوبة لها من المار والقاصد، تذكرت أبياتاً ونبذة أدبية، أوردها الشهاب الأميني في نفحته الزكية، حيث قال: قال عبد الباقي السمان من قصيدة: [من الطويل]

وقفنا على الأطلال والليل شائب واعناقنا فوق المطايا موائل

ولما رآها الصب والدمع حائر أناخ وحيا تربها وهو راحل

أخذه من قول المتنبي: [من الطويل]

ولما رأينا رسم من لم يدع لنا فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لبًا

نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة لمن بان عنها أن نلم به ركبا

قال ابن بسام[590]: أول من بكى الربع ووقف واستوقف الملك الضليل حيث يقول:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل. ثم جاء أبو الطيب فنزل وترجل ومشى في آثار الديار حيث يقول: نزلنا عن الأكوار (البيت). ثم جاء أبو العلاء المعري فلم يقنع بهذه الكرامة حتى خشع وسجد حيث قال: [من الطويل]

تحية كسرى في الملوك وتبع لربعك لا أرضى تحية أربع

انتهى

وقد خطر في الفكر فقرات حسان، ذكرها الشهاب الخفاجي في ريحانته مشيراً إلى حال أهل هذا الزمان، قد كان شراب الأصول يداوي العليل، والآن ليس في غير الديار شفاء الغليل، ألم تسمع أن الدراهم لجروح العدم مراهم، وقد استردت الأيام ودائع الكرم والكرام. انتهى.

فنحوت نحو هذه الطريقة، وأين الجوهرة من العقيقة، فقلت: لقد كات شراب الأصول، فيما مضى من الأزمنة والفصول، تنتدب العقلاء الظرفاء إليه، وتقول الحكماء اللطفاء عليه، حين اعتدال الطبائع والأمزجة، حيث الأبدان بطيب الفصل ممتزجة، والآن فقد تغيرت الطباع، وخلت من الرؤساء البلغاء البقاع، ففسدت قضايا التدبيرات،

---

(590) - ليس واضحاً من هو المقصود بابن بسام في هذه المناسبة نظراً لوجود اكثر من علم في الأدب والتاريخ، ولكن المرجح ان يكون المقصود ابو الحسن علي بن بسام الشنتريني 450 هـ - إشبيلية، 542 هـ . من اهل شنترين بالبرتغال حاليا، انتقل إلى قرطبة بعد سقوط مدينته الأصلية بيد الفونسو الأول وقد وصف الكاتب هذا الحادث في اشهر اعماله وكيف خرج من بلده مقهورا وتأثره بهذا المصاب. صنف ابن بسام كتابه (الذخيرة في معرفة اهل الجزيرة) والذي يعد من اهم المراجع الأدبية والحضارية في بلاد الأندلس وكان ذلك في سنة 502 هـ في اشبيلية حيث استقر وتفرغ للتاليف. ويعتقد بعض الباحثين انه هو صاحب كتاب (سرقات المتنبي) الشهير والمنسوب لابن بسام النحوي

واختلطت في أنين المركبات، وخفق من الهموم قلب الزمان، وأغمي عليه بكثرة الدوران، فكان فيه انذارٌ بالأمراض، وذهاب الجواهر والأعراض، وقد نظمت بعض ذلك، محذراً مما هنالك: [من الخفيف]

رغب الناس في شراب الأصول	سالف الدهر لاعتدال الفصول
فاستقامت طباعهم واستداموا	في سرور بذلك المحصول
قد سقوا كؤوس التهاني سلافاً	واحتظوا منه بالمنى والسؤول
واعترى أهل ذا الزمان فساد	في طباع ودينهم والعقول
فتراهم وهم سكارى حيارى	في اعتلال بربقة المعضول
رفع الندل فوق كل كريم	باعتلال لخفض أهل الأصول
دينهم درهم عليه تواصوا	والنسا قبلة بغير عدول
وجهة الشخص منهم جمع مالٍ	باحتيالٍ وإن يكن من غلول
باذل الفضل بالفضول اعتباطاً	واغتباطاً عدمته من فضولي
بائع الدين عن غرورٍ بدنيا	رابح الخسر فاقد المعقول
فخذ النصح واعتزلهم وحاذر	أن تبيع المعلوم بالمجهول

وفي يوم الأحد هاج [هاجت] بي الشجون، للتوجه ثانياً لزيارة نبي الله شمعون، فتوجهت مع إخوانٍ لطفاء، وأصحاب ندمان ظرفاء، نوح دوح روضته الغنا، ونستطلع الأنس من سوحه الأسنى، فوصلنا إلى رحابه الأفيح الرحب، ونزلنا بواديه الفسيح الخصب، وتجارينا في ميدان الأبحاث والنوادر، على كرائم الأفكار وعتاق الخواطر، فأفضى بنا السبق في هذا المضمار، إلى حديث شمعون صاحب المزار، هل هو شمعون ابن يعقوب بيقين؟ أو هو رسول عيسى المعزز به في سورة يس [ياسين]. فلم نر نصاً نرجع إليه، ولا خبراً وارداً نعتمد عليه، فقلت أيهما كان هو يحصل الإمداد، ويمنح قاصد الزيارة تحائف الإسعاد، ولنورد هنا نبذة مختصرة العبارة، توضح قصة كل منهما بألطف إشارة.

فأما شمعون بن يعقوب عليه السلام، فقد ورد في سورة يوسف بطريق الإشارة والإفهام. قال المفسرون في قول يوسف: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾[591] اعني بنيامين،

---

[591] ـ سورة يوسف، الآية 59

ذهبوا وارتهن شمعون عنده، وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾[592] قالوا هو شمعون لأنه كانت له الرئاسة على اخوته، وقيل هو روبيل لأنه كان أكبرهم في السن، وقيل في الفضل والعلم. انتهى

وأما شمعون رسول عيسى عليهما السلام، فقد قال الخطيب في تفسيره ما ملخصه بلا إيهام في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾[593] إلى آخر القصة، المراد بالقرية أنطاكية والمرسلون رسل عيسى، ونسبة الإرسال إلى الله تعالى لأن رسول الله رسول المرسل، كما أن وكيل الموكل لا وكيل الوكيل، فلا ينعزل بعزل الوكيل إياه، وهما يحيى ويونس من حواريه لا يحيى بن زكريا. ولا يونس بن متى. وقال كعب [الأحبار]: صادق وصدوق، أرسلهما إلى أهل أنطاكية وكانوا عبدة أصنام، فلما قربا من المدينة رأياً حبيباً النجار يرعى غنماً، فسلما عليه، فقال من انتما فقالا رسولا عيسى عليه السلام يدعوكم من عبادة الأصنام والأوثان، إلى عبادة الرحمن، فقال أمعكما آية؟ قالا: نعم نشفي المريض ونبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى. فقال: إن لي ابناً مريضاً منذ سنين قالا: فانطلق بنا حالاً، فأتى بهما إلى منزله فمسحاه فقام في الوقت بإذن الله صحيحاً، فآمن حبيب وفشا الخبر في المدينة، وشفى الله على أيديهما كثيراً من المرضى، فانتهى الخبر إلى الملك فدعاهما فقال لهما: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى عليه السلام. قال فيما جئتما؟ قالا: ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عباده من يسمع ويبصر. قال: ولنا إله دون آلهتنا؟ قالا: نعم، من أوجدك وأوجد آلهتك. فقال: قوما حتى انظر في أمركما. فأمر بحبسهما وجلد كل واحد منهما مائة جلدة. فلما كُذِّبا وضُربا بعث عيسى عليه السلام رأس الحواريين شمعون الصفار في إثرهما لينصرهما، فدخل البلد متنكراً وما زال، حتى اتصل بالملك فعاشره وأنس به، فقال له ذات يوم: أيها الملك بلغني أنك حبست رجلين في السجن وضربتهما حتى دعوا إلى غير دينك، فهل كلمتهما وسمعت قولهما؟ فقال الملك: حال الغضب بيني وبين ذلك. قال: فإن رأى الملك دعاهما حتى يطلع على ما عندهما، فدعاهما الملك فقال لهما شمعون: من أرسلكما إلى ههنا؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك. فقال لهما شمعون: فصفا وأوجزا. قالا: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. قال شمعون: وما آيتكما؟ قالا: ما يتمنى الملك. فدعا بغلام مطموس العينين موضع عينيه كالجبهة، فما زالا

---

[592] - سورة يوسف، الآية 80.

[593] - سورة يس، الآية 13.

يدعوان ربهما حتى انشق موضع البصر، فأخذا بندقتين من الطين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما، فتعجب الملك. فقال شمعون للملك: أرأيت إن سألت إلهك يصنع مثل هذا حتى يكون لك الشرف ولإلهك. فقال الملك: ليس لي عنك سر إن إلهنا الذي نعبده لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، ثم قال لهما الملك: إن هنا ميتا مات منذ سبعة، فهل يقدر إلهكما على إحيائه، فإن أحياه آمنا به وبكما. قالا: إلهنا قادر على كل شيء فجاؤوا به وقد تغير وأروح، فجعلا يدعوان ربهما علانية، وجعل شمعون يدعو ربه سراً فقام الميت، فآمن الملك وأمن قوم وكفر آخرون، فصاح جبريل على من لم يؤمن فهلكوا. انتهى

ولما حان الانصراف من هذا المقام، وطاب مجلسنا بمسك الختام، أنشدت أبياتاً بين التصريح والتلويح، في عدم تحقق صاحب هذا الضريح، وإن موانح المدد والإسعاف، حاصلة لمن وافى كعبة شهده وطاف. [من الخفيف]

مشهد مشرق الضيا بضريح	يزدهي حسنه بواد فسيح
نشهد الأنس من حماه ولكن	ليس يدري من قد ثوى بالضريح
فاختلفنا في كونه ابن نبي اللـ	ـه يعقوب أم رسول المسيح
حيث لم يأت بالبينات نصوص	واردات بمسند التوضيح
فعلى كل الوافدون إليه	يمنحون المنى بلا ترجيح

وفي يوم الأحد الخامس والعشرين، من الشهر المذكور الموضح[594] بالتعيين، حضر لصيدا غليون البيليك[595] المعروف بالريالة[596] المشحون بالرجال والمحصن بالعدة والآلة، فتحركت مني للوطن لواعج الأشواق، وصار لي بالسفر شدة اعتلاق، فعزمت على التوجه فيه، وتوكلت على الله ولي العبد وكافيه، وسعيت في تحصيل ما هو للمسافر مطلوب، ووافيت ساحل البحر قبيل الغروب، فرأيت الغيلون قد نشر مطوي الشراع، ولج في سيره مع شدة الإسراع، فحصل لي غم أعدمني أنسي، ولمت على عدم المبادرة نفسي، وتحيرت في أمري كيف أصنع، والليل أقبل والغليون قد أقلع، فأشار على بعض أولي الكياسة،

---

[594] - 27 تشرين الأول 1731م

[595] - غليون Galleon سفينة ذات اشرعه ومجاديف، وقد تلحق بها ماكينة بخارية، تستخدم في الحرب ونقل البضائع والبيليك تعريب للكلمة الفرنسية publique التي تعني عمومي او عام، وهذه الصيغة [البيليك) ما تزال مستخدمة في اللهجات العامية في المغرب العربي وعلى ذلك يكون معنى العبارة السفينة العمومية

[596] قد تكون منحوتة من الكلمة الاسبانية Real او الكلمة الانكليزية Royal اي ملكي او سلطاني

بالمبادرة إلى لحاقه ولو في قياسه. ووجدي مع ذلك بالتوله نامي، بسبب مفارقة المربع الشامي، وأنشد ما بقلبي من الوجيب، قول الكمال الشريشي الأديب: [من البسيط]

يا جيرة الشام هل من نحوكم خبر ... فإن قلبي بنار الشوق يستعر

بعدت عنكم فلا والله بعدكم ... ما لذ للعين لا نوم ولا سهر

إذا تذكرت أوقاتاً نأت ومضت ... بقربكم كادت الأحشاء تنفطر

والورق تشدوا والأغصان راقصة ... والدوح يطرب بالتصفيق والنهر

سقاك بالسفح مسفوح الدموع ضحى ... وقل ذاك له إن أعوز المطر

فلما آن فراق أرضه المقدسة، ومواطنه التي على الأنس والخيرات مؤسسه، وقوضت عنها الخيام بالنوى، واشتعل القلب بنيران الجوى، أهديت الفاتحة لحماة تلك الربوع، وودعت أهلها بتحايا الدموع، وأرسلتهم بتحاليف السلام، وطبعت عليها بمسك الختام: [من الكامل]

حلت عقود الصبر مني عندما ... رفعت من الشام الشهيم خيام

وبموقف التوديع إذ حكم النوى ... كم هاجني وجد بها وهيام

أهدي لمن فيها لطيف تحية ... أبدالها مسك الختام ختام

فنزلت في سفين صغير، مستعيناً بالمولى المعين النصير، وعندما سرنا من مرساها، تلونا بسم الله مجراها، ثم لما تحققت قضايا الانفصال، وسلبت موجبات الاتصال، لم نشعر إلاّ وهي في وسط البحر العجاج، وقد عفت الريح وتلاطمت الأمواج، وتصالح الريح والبحر، واتفقا على المواصلة وعدم الهجر. [من البسيط]

ومذ ركبت عباب البحر مفترراً ... شاهدت منها دواعي الفتك بالنظر

تصالح الريح والأمواج واتفقا ... على السنين بأنواع من الخطر

الرفع والخفض فيما بينهم نوب ... وكاد ينصبنا كانوا على الخبر

فهاج بنا من شدة العرق، لما لاحت بوارق التلف والغرق، وصاروا ما بين غائب عن الوجود وحاضر، ومستيقظ لكلمة الشهادة ذاكر. فلعمري لو شاهدت ما هالنا من تلك الأهوال لقضيت بعدم النجاة لا محالة ولا محال. [من الكامل]

لو كنت شاهدنا وقد لعب الهوا ... بسفيننا وتلاطم الأمواج

لجرت جفونك بالدموع ترحماً ... وقضيت أني لست منه بناجي

فاعتراني لطف من الحق المبين، وحصل لي سكون وثبات يقين، وأنشدت من غدا من الخوف ذاهل، تسليةً له بيتين من بحر الكامل.

يـا راكـب البحـر العبـاب يخافـه	سلّم ففي التسليم حسن سعادة
لابـد إحـدى الحسنيين تنالهـا	إمـا السلامة أو حصول شهادة

وأطبق الليل علينا بظلامه، وصال البحر فيه بسيف اصطلامه، وطالت الليلة لشدة هولها، وهالت الأنفس بطُولها وطَولها، وصار الموج يلطم وجه السفين، ويد الريح تقلبه ذات الشمال وذات اليمين، والبحر يمنحنا من فيضه بمائه، والجو يتحفنا بقطر سمائه، إلى أن تليت آي الصباح، ونسخت بها أحاديث المصباح، صلينا الفجر جلوساً ولم نطق من المشقة أن نرفع رؤوساً، ثم سرحنا في أرجاء البحر النظر، وإذا بالفليون بمطالع القرب قد ظهر، فسرت النفوس، وزال الترح، واطمأنت القلوب وحصل الفرح.

فأسرعنا نحوه حتى تمسكنا بأسبابه، وصعدنا ودخلنا من أحد أبوابه، فتلقاني رئيسه محمد قَبُدان[597] المغربي بأحسن ملتقى، وهش وبش ورحب بي، وأنزلني بمحل الترحيب والإكرام، وبسط بساط الكرم والأنعام، وهو حفز الله ذاته العلية، له مشاركة في الفنون سيما العلوم الرياضية، فجرت فيما بيننا مباحثة في الأوفاق، خصوصاً في المخمس الذي سما على غيره وفاق، ثم أسمعني منظومة في المخمس الخالي الوسط، الذي يطلبه كل طالب ارتبط، فأحببت أن أحلي هذه الرحلة بجواهر عقودها المنظومة، وأطيبها بنوافح زهورها المكتومة، وهي هذه: [من البسيط]

يا طالب السر في الأوفاق مجتهداً	خـذه إليـك بإيجـاز وإجمـال
أجلـها مـا خـلا منـهن مركـزه	دفعـاً ونفعـاً بإسـراع وإعجـال
أبـدأ بجـيم لكـب ثـم واوكـاءٍ	وكـاف طـي يـو للياء والـدال
يـد لبـاءٍ وزاءٍ يـب ثـم يـهٍ	وهـاء كـدٍ وحاكـه لطـاء إهمـال
كـجٍ وبـجٍ ويـزّ اي لاؤلهـا	وخـده منجى أخـي من كـل أهـوال
و العـد مبداؤه مـن كـل[598] ميسرة	في الخير واعكسه أيضاً غير صوال
ومـا يوافـق مـن أسمـاء خالقنـا	أو آيـة بـصهٍ فاطرحـه يـا سـال

---

(597) - كلمة تركية محورة عن قبطان اي قائد البحرية

(598) - ا فوق

ولا تعــــد مكــــر الأولا ألفــــاً والــلام أو يــاوذان في اسـم فعــال

واضرب ثلاثاً وخمساً عند طرحكها في نـصف زوج مـتين خـوف إشـكال

بعــدك الطرحــات أدخــل بأولــه وثـامن العشر وأجهـد حاضـر البـال

والكسر مـن عـده في بيت جاذبـه ضـعه وكـن طـاهراً أو صـالح الحـال

وابدأ لـدي لوضـع مـن أقلها عـدداً في الخير واصعد وفي عكس بإنزال

والرسـم بـالقلم الهنـدي فهـو بـه أولى وبالـصفر لا بـالنقط في الخـالي

كــذا بــواه نــور مــثمن فلــه ســر بــسريانها في كــل أفعــال

واكتب على كل وجهٍ يا أخي ملكاً ودبــدبن عليــه طــوق إدخــال

والأول المبتــدأ دومــاً تحملــه علـى مـشت وأن ترميـه في الحـال

وابـدأ بـأكبر عـدٍ وانطقــن بـه وقــل بــآخره يابيــل بــإجلال

وطـيش أن كـان للـشيطان تطرحـه وذاك ملحقــه مــن غــير إغفــال

ومنتــهاه لثــانٍ ثــم ثالثهمــا مجمـوع ذيـن ووفـق الرابـع التـالي

الله مـع طالــب مطلوبــه وطــرٌ جبريـل للخـير مـع ميكايـل الـوالي

وخــارج عنــدما تــضربه في فلـك عنـد الطبـائع سمـت ذلـك الجـالي

والـضلع مـن هـذه الأشـياء نـذكره خمــاس أملاكــه في بيتــه الخــالي

وقــدر ذي الخــامس أتلـون دعوتـه واقـسم علـيهم بهـم إذ ذاك يـا تـالي

وادخل لدى الخير بالاملاك قط ومعاً في العكس وارعى جناساً كل أعمال

وطالــب الـشر لا تـدخل بـه أبـداً لكــن مطلوبــه فاقــصد بأوجــال

ورفـع نـار بنصب الـريح حفض ثـرى يحــزم مــاء بهــا في بــداء مقــوال

بحمـرة النـار يـصفر الهـوى وتـرى لــضوعها باخــضرار كــل ســيال

أحــرق وعلــق واغــرق وادفــننْ أو احذر الشمس والعين والحظ كل الكمال

والخـير طيبـه واعكـس غـيره فـإذا صليت جالـست في هـذا بـأقوال[599]

---

[599] - هذا الشطر ساقط من ب

عرج على الشيخ في تكميله فإذا[600]	كملت حزت جميع المقصد الغالي
واشكر لربك ذي الإحسان ثم على	محمد صلّ والأصحاب والآل
فهذه نبذة في الوفق كافية	فاشدد عليها وكن مستحسن الحال

وأطلعني على وفق مخمس مصمط، جدير بأن يحفظ ويضبط، وهو أن تنزل باسم من تريد في الوسط، وتعمره بما تريد من آية أو اسم حسبما يشترط، فيطلع كامل الأضلاع والأقطار، ولا يخفى بقية العمل على ذوي الأفكار.

وطريقته أن تنزل بالاسم في البيت الوسط، وتمشي بزيادة واحد إلى آخر الدور الأول، ثم تسقط عدد الاسم وأربعين أساً[601] من عدد الآية والأسماء، فما بقي تأخذ ربعه وتمشي له في مبدأ الدور الثاني إلى آخر الوفق، وإذا كان معك جبر فأنزل به في مكانه المعلوم، ثم أجمع أضلاعه أو أقطاره تجده عدد الآية أو الأسماء المأخوذة. انتهى

فطلب مني لجميع المفردات قاعدة، لتكون إلى حكم هذا المثال عائدة، فقلت لست من فرسان هذا الميدان، ولكن عسى أن يفتح به الحنان المنان، ففتح الله علي بقاعدة كلية، تبني عليها أحكام أمثال هذه القضية، وهي أن تضرب نصف الأدوار بعد الدور الأول في عدد خاناتها، فما خرج فهو الأس، مثله في المسبع الباقي بعد الدور الأول ستة أدوار، يضرب نصفها ثلاثة في اثنين وأربعين عدة الخانات، فالخارج 126 وهو الأس. انتهى

وأفادني طريقة في كيفية وضع الوفق الميثيني المنطق، وطريقته أن تقسمه خمسة وعشرين مربعاً، وتعمره على طريقة هذا الوفق المخمس، إما أن تعمره بتمامه أو تمشي دوراً دوراً أو دورين دورين حسبما تريده، وهذه صورته:

7	18	9	16	15
22	2	23	14	4
5	25	13	1	21
20	12	3	24	6
11	8	17	10	19

وأفادني فائدة للحمى تكتب على ثلاث ورقات: الأولى هلو والثانية هلوع والثالثة طلوع، وتقرأ الإخلاص على الأولى مرة، وعلى الثانية مرتين، وعلى الثالثة ثلاثاً، ويبخر بها مع الكزبرة عند ورودها. وإن كتبت على لوز على هذا الحكم، وأطعمته له كان أنجح.

وأطلعته على وفق معشّر كنت اخترعته فيه أسماء الله الحسنى التسعة وتسعون،

---

[600] - هذا الشطر ساقط من ب

[601] - ب اسماً.

وجعلت اسمه تعالى منشز تمام المائة ورتبتها ترتيباً حسناً، فكان كامل الأقطار والأضلاع كما يعرفه من له في هذا الفن حسن اطلاع، وهو نافع للقبول والعز والجاه، إذا وضع في وقته المناسب بشرطه المعلوم، واستعملت الأسماء في كل يوم ثمانية عشرة مرة، مع الطهارة الكاملة ظاهراً وباطناً. وعدة ضلعه 3403 ومجموعه 3403 وهذه صورته:

الله 66	رحمن 298	بر 202	منتقم 630	ماجد 48	قابض 903	هادي 20	باقي 113	مقيت 550	باعث 573	3403
منشز 397	فتاح 489	مبين 102	رحيم 258	رشيد 514	أول 37	شهيد 319	حفيظ 998	كبير 232	مجيد 57	3403
مصور 336	مؤمن 136	قهار 306	خالق 731	مغني 1100	جامع 114	بار 203	واسع 137	سلام 131	مقسط 209	3403
جبار 206	غفار 1281	مهيمن 145	حق 108	عزيز 94	صبور 298	قادر 305	متكبر 662	قدوس 170	صمد 134	3403
رافع 351	معز 117	معيد 124	رقيب 312	ولي 46	متين 500	عليم 150	بصير 302	خافض 1481	ودود 20	3403
وكيل 66	حكم 68	مالك الملك 212	أحد 13	كريم 270	مذل 770	قوي 116	نور 256	شكور 526	ظاهر 1106	3403
خبير 812	عفو 156	عدل 104	محصي 148	مميت 490	سميع 180	غفور 1286	باطن 62	مجيب 55	علي 110	3403
والي 47	متعال 541	عظيم 1020	مقدم 184	مقتدر 744	رزاق 308	بديع 86	محيي [602] 58	لطيف 129	رؤوف [603] 286	3403
غني 1060	قيوم 156	حليم 88	ضار 1001	واحد 19	باري 213	باسط 72	وهاب 14	جليل 73	وارث 707	3403
حميد 62	مانع 161	ذوالجلال والإكرام 1100	حي 18	حكيم 78	حسيب 80	مؤخر 846	آخر 801	مبدي 56	نافع 201	3403
3403	3403	3403	3403	3403	3403	3403	3403	3403	3403	3403

قبرص

وما زلنا نستقبل الليل بطالع سعيد، ونستفتح النهار بأنس جديد، إلى أن وصلنا إلى جزيرة قبرص المعروفة، واستقبلنا تجاه مينها [ميناءها] الموصوفة، أعني مينة الملاحة، التي

---

(602) - مجموع حروف الميم والحاء وياء واحدة

(603) - مجموع الحروف بدون الهمزة

نفي عنها الحسن والملاحة، لما حوت على ما[604] بلغني من المنكرات، من بيع الخمر جهاراً وكثرة نساء الكفار المتبرجات، فأنفت النفس من الطلوع إليها، وأبت من الجزع الاطلاع عليها. وأنشدت ذاماً لعهودها، محذر المتقين من ورودها: [من البسيط]

انشر فديتك مطوى الشراع دجى — واجر السفين بمتن البحر في لجج

واحذر تمر على ملاحة قبحت — فقد حوت منكراً خال عن الحرج

فالخمر قد شهرت والمومسات بدت — ومنهج الحق فيها غير منتهج

ثم في يوم الأربعاء خامس جمادى الأول الميمون[605]، أقلع الغليون لنحو دمياط، وقد قرت بذلك العيون، ففي صباح يوم الاثنين عاشر الشهر المذكور، برقت بوارق البشرى ولاحت طلائع السرور، وظهرت أعلام الديار المصرية، وبدت رياض أدواحها الزهرية، فيا لها نعمة أوجبت شكراً، وسنت تواليه شفعاً ووتراً. [من البسيط]

حمداً سفينتنا للحي قد وصلت — من بعد ما طاب بالاسعاف مجراها

وقد غدت السن التقدير تالية — تقول بشراك بسم الله مرساها

وما حان من الشمس الارتفاع، حتى القيت المراسي وطوي الشراع، واستقبل الغليون بوجه البر، وألزم من فيه الإتمام وترك القصر، ووردت السفن الصغار تخفق بأجنحة شراعها، وتتسابق إليه في ميدان البحر بعدوها وإسراعها، والرياح تعطفها علينا بلطفها، والأمواج تدنيها إلينا بعطفها، فقرت بمنظرها الحسن منا العيون، وانشرح الصدر بوفودها وزالت الغيون[606].

وأرسلت في أول سفينة سابقة في الإياب، بطاقة تنبئ بالوصول وتبشر الأحباب، جرت بها اليراعة بمردُ الأمن والإرتياح، وحملتها إلى الأحبة حمائم المسرة والأفراح، وهي: [من البسيط]

سفينة البين ما زالت تسير بنا — في لجة البعد لا ينفك مجراها

والآن عطفاً لجود القرب قد وصلت — يتلو المبشر بسم الله مرساها

سفينة الألطاف بجودي القرب رست، وسفينة الإسعاف لها بسم الله تلت، وطوي بأكف السلامة مطوي الشراع، فنشر من طيه عرف الفرح وضاع وما ضاع، وحملت الصبا

---

(604) ساقطة في ب

(605) .. 5 جمادى الأولى تصادف يوم الاثنين 5 كانون الأول 1731م

(606) - الغيون هي الغيوم كناية عن زوال الهموم

من نوافح التحايا نشرا، وسرت للأحبة لتهديها سروراً وبشرى، وتشرح قضايا قرب موجبة متصلة. أنتجت براهين وصل عنه البعد منفصلة، وتخبر بأن حكم النوى آن أن ينسخ، وعقد الجوى قد حان أن يفسخ.

ويروي غليل القلب من ظمأ البين، وتقرعين الصب باعتياضه عن الأثر بالعين، فحمائم الهناء بألحان التهاني صادحة، ونسائم المنى بأفنان التداني نافحة، وبروق السرور لاحت بأفياء المعاهد، وسحب الحبور سحت بأرجاء المشاهد، ومنه أشرقت شمس سنا الربوع، وروت حديث الضياء بسندها المرفوع، ومذ شاهد النائي من مرابعها الأعلام، حن شوقاً وزاد به الهيام، فانشد في هذا المقام، حتى إن العاذل لام: [من الوافر]

ألا لا تنكـــروا ولهـــي ووجـــدي	إذا مـــا شمـــت أعـــلام المعاهـــد
فقـــرب الـــدار يبعـــث ذا التـــصابي	ويـــدعو للتولـــه والتواجـــد

ولقد كدت أن أسير إليها مع الصبا، وأطير شوقاً إلى شرفات تلك الربا، لكن عاقني لحظي عائق الأثقال، وأقعد في المقيم المعتد من الأحوال، فمدوا خطا الشوق بميدان اللقا، وطيروا بجناح الشوق إلى أفق الملتقى، فداعي الحب ينادي هلموا التداني، ودعوا الكسل فما هذا وقت التواني: [من الوافر]

فمـــروا نحونـــا خطـــرات شـــوق	بميـــدان الـــسباق فـــلا تـــوان
وطـــيروا للقـــا بجنـــاح تـــوق	إلى أفـــق التـــداني والتـــهاني
فـــداعي البـــشر بالأحبـــاب نـــادى	هلمـــوا يـــا صـــحابي للتـــداني

أقر الله بمشهد الاجتماع منا النواظر، وسر بتحقيق اسمه[607] الجامع منا الخواطر، وأنعشنا بشهود جنابكم السامي الشريف.. وأنشقنا طيب رحابكم الغالي المنيف، ليطيب لي في ذرى حماه المقام، وتزدوج المقابلة مع المخلص وحسن الختام.

ثم نزلنا وبعض الأحباب في سفينة، وقد اطمأن القلب ونزلت السكينة، وروينا بملاقاة النيل حديث الشفا، حيث اتصل أخباره بإسناد[608] الوفا، وأطربني من حسن المشهد الباهر، وقد أحاطت كالسوار الرياض النواضر، وتذكرت قول الأديب الشاعر، لما وافت بوفاء النيل حسن البشائر: النيل قد امتدت أصابعه، وامتلأ حتى تتكسر بالموج أضالعه، وحلا كما احتمل خلايا النحل، واحمر فكأنه قد سفك دم المحل، كم قد هاج

---

(607) - ا مظهر الله

(608) - ا إسناده بأخبار.

وماج، وأوتر قسي الأمواج، فسكنت لرؤيته النفوس، وطبقت الأرض فكأنها أنوار الشموس.

ومن إنشا محي الدين بن عبد الظاهر، الذي حسن عنه في الإنشاء المظاهر: هذا النيل جر على الربا والوهاد ذيولا، وجرد في وجه المحل سيفاً مسلولا، فحسن في مسري مسراه، وجعل على اسم الله مجراه، يركض في مضماره فلا يلحق، ويجري في تياره فلا يسبق، فكان كما قيل، مسرى عرس النيل، لما يشتمل عليه من بشائر تملأ الوجود، وسرور بنعم على الخلائق تعود، لا زال مخضوب البنان، معرسا بالربا والجنان. انتهى

ولله در ابن رشيق، حيث شبهه بوادي العقيق: [من المجتث]

أحمر للنيل خد ... حتى غدا كالشقيق

وقد ترنمت فيه ... إذ صار وادي العقيق

وقد أنشد فيه بعض أولى الطرب، لما رآه فاض واضطرب: [من الكامل]

انظر إلى النيل الذي ... ظهرت به آيات ربي

فكأنه في فيضه ... دمعي وفي الخفقان قلبي

ومما ينبغي أن أزركش به طرسي، قول الشاعر [ابن] جابر الأندلسي[609]: [من الكامل]

ما زلت أنشد من محاسن مصرنا ... خبراً صحيحاً ليس بالمقطوع

كم مرسل من نيلها ومسلسل ... ومدبج من هضبها المرفوع

وما زلنا في سرور وانبساط، حتى وصلنا إلى ثغر دمياط، فمنذ وصولنا إلى المنزل ابتدأنا بصلاة التحية، وحمدنا الله تعالى على هذه النعمة السنية، واجتمعنا بحضرة الوالد والأخوة المكرمين الأنجاب، والأهل والأولاد والأحبة والأصحاب، وقد طوى أيدي اللقاء بساط البين، وانشرح الصدر بالاجتماع وقرت العين، وشفيت النفس من أليم الجوى، وألقت عصاها واستقربها النوى. [من الطويل]

وما زال دهري بالتفرق مولعاً ... يذيب فؤادي بالتباعد والجوى

---

(609) - ابو عبد الله محمد بن جابر بن محمد بن قاسم الأندلسي، من رجال الأندلس في عصر بني الأحمر، من اهل وادي اش، وسكن تونس معظم ايامه، وهو من شيوخ ابن الخطيب، له رحلة اورد في ثناياها ما كسبه من الفوائد الأدبية خلال اسفاره

يجوب بنا في مهمه البين فدفدا   مناهجه توهي التجلد والقوى

إلى أن وفت لي باللقاء ركائبي   والقت عصاها واستقر بها النوى

ثم لما رويت لهم ما شهدته من المعاهد، وما وقفت عليه من الآثار والمشاهد، ولاسيما دمشق الشام ذات المحاسن، وأنهار رياضها التي ماؤها غير آسن، لووا إليها من شوقهم عنانا، والأذن تعشق قبل العين أحيانا، وكان أشدهم بها ولوعاً وهياما، وأكثرهم لطي نشر شقتها أهتاما، جناب المولى الفاضل اللبيب، واللوذعي الفطن اللسن الأديب شقيق الروح الأخ المَجيد المُجيد، حضرة مولانا السيد محمد السعيد، فمن شوقه وحنينه إلى ذاك المغنى، انشأ وانشدني مزدوجة بديعة في المعنى، منسوجة على منوال اللطافة والرقة، مزركشة بأنامل الظرافة والدقة، فأحببت أن أودعها ضمن هذه الطروس، لتجليها نواظر أولى النهي اجتلاء العروس، وهي: [من الرجز]

الحمد لله المعيد المبدي   ثم الصلاة والسلام أهدي

للمصطفى الأمين جدّي   والآل والصحب وكل عبد

مقرب مستوجب للحمد

هذا وصنوي مصطفى المجد   الغانمي السعد اللقيمي أسعد

وافى دمشق الشام وهو مفرد   كأنما حل سماها الفرقد

رقا العلا بجده والجدُ

وافى لها كي يشهد المشاهدا   وأن يزو بالحمى المعاهدا

وأن يرى من ذي النهي أماجدا   ويحتظي لما نوى مقاصدا

بشرى له بحسن ذاك القصد

ولي روى أنموذجاً من مدحها   وما تلاه من متون شرحها

وما رأى من نزهة بسفحها   ومن زهور ثَمَّ طيبُ نفحها

من سوسن ونرجس وورْد

حتى اخترعت هذه المزدوجة   ثغورها بالمدح فيها لهجة

تجلي الهموم فهي كالمنفرجة   أو أنها كواكب مستبهجة

فرائداً تلوح ضمن عقد

سقى دمشق الشام صوب عهد ... وحيها تحية من عندي

واشرح بصدر لاعجات وجدي ... وما أقاسي من جفا وبعدي

لواعجاً في القلب ذات وقد

فكم بها من نزهة وفرجة ... وروضة بالورد ذات بهجة

وللعروس بالمقام لهجة ... تختال كالمران حول المرجة

بالزعفران خلقت والندّ

ويا لهفي لرنة الخلخال ... ومرشفي من رائق السلسال

أو في نصيب لذ كالجريال ... والشرف الأعلى الرفيع العالي

وارتقي من ذاك أوج مجد

كم أطربت بدفها والجنك ... وجبهة ضوء الهلال تحكي

ومقسم أضحى قسيم نسكي ... وربوة بالزهر ذات الحبك

كأنها الفردوس دار الخلد

فهذه الشقراء والميدان ... قد رتعت في دوحها غزلان

من كل ظبي طرفه الفتان ... عليه دمع سفحه هتان

يزيد منه لاعج من وجد

وقاسيون إن سطا وصالا ... مفوقاً من سهمه نصالا

بالنيربين أرتجي اتصالا ... كعاشق قد ابتغى وصالا

من وجنة المعشوق لثم الخد

منشوق عرف نشرها المنشور ... وما ازدهى من بهجة المنثور

وما جرى في السبعة النهور ... تحكي لشاذروان وصف الحور

من كل عطف مائس وقد

أبوابها أبواب بسط للهنا ... فتحتظي السواح منها بالمنى

أوقاتها تحكي الليالي بمنى ... كم صادح يشدوا بألحان الغنا

من رمَل وبنجك ورصْد

وحيث لم يسفر لي العيان ... عن حسنها قد حدث الركبان

والحسن قاض وهو ترجمان ... والشاهدان الحور والولدان

شهادة ما إن لها من رد

والأموي في دمشق جامعاً ... أضحى ولكن للبهاء جامعاً

فكم حوى للأنبياء مضاجعاً ... ضرائحاً تبدي السنا لوامعاً

من كل بحر زاخر في لحد

والصالحية حلها ابن العربي ... العارف القطب الرفيع النسب

مقامه بالحق كنز مطلبي ... فكم له كرامة بها حبي

لا يستطاع حصرها بالعد

ويبتغي السعيد أن لو وفدا ... إلى حماهم يستمد المددا

مستمطراً من فيضهم قطر الندى ... هم فتية من ربهم زيدوا وهدى

وسعدهم جدي ونجم سعدي

فلله دره من فصيح شاعر، وبليغ أديب لبيب ماهر، اخترع هذه المزدوجة، وجعلها بفرائد التوجيه مبتهجة، تهيج الصب الواله المستهام، إلى المعاهد الزاهية بوادي الشام.

[من الطويل]

بديع نظام شاقني ببديعه ... لوادي دمشق الشام أفديه من وادي

فلي في حماه للسرور معاهد ... شهود حلاها بغيتي ومرادي

وقد حبست عنان القلم فقصر الخطا، ووقف مقراً معلناً بالقصور والخطا، وأنا أستغفر الله مما نمقه بناني، وتخيله فكري ونطق به لساني، وأرجو أن يحسن انتهاء سيري إليه، ويمنحني من تحائف القرب زلفى لديه، بجاه حبيبه طه أشرف من علم وعلّم، الذي أوتى جوامع الكلم والكتاب المحكم صلى الله عليه وعلى صحابته وآله، والتابعين السايرين على منهج منواله، صلاة يفوح بالخافقين عرف نشرها، وينشر في الآفاق عبير عطرها، ما مدح السفر وطاب المقام، وطاب الابتداء وحسن الختام.

كشاف الأماكن والأعلام